

تأليف
فضيلة الشيخ
صفي الرحمن المباركفوري
حفظه الله

دار السلام
للنشر والتوزيع
الرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل رسله، وخاتم أنبيائه: محمد الصادق الأمين، المبعوث إلى الأحمر والأسود أجمعين، وعلى آله وصحبه حملة لواء الدين، وعلى من تبعهم بإحسان من الأئمة والهداة والدعاة والأتقياء والصالحين، وعلى كل من سلك سبيلهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن السيرة النبوية من أشرف العلوم وأعزها وأسناها هدفًا ومطلبًا، بها يعرف الرجل المسلم أحوال دينه ونبيه، وما شرفه الله تعالى من أرومة الأصل وكرم المحتد، ثم ما أكرمه به من اختياره للوحي والرسالة، وحمل عبء الدعوة إليه وإلى دينه، ثم ما قام به ﷺ من بذل الجهود المتواصلة، وما عاناه من البلاء والمحن في هذا السبيل، وما حظي به ـ بجنب ذلك ـ من نصرة الله وتأييده بجنود غيبه المكنون، وملائكته البررة الكرام، وبتوجيه الأسباب، وإنزال البركات، وخوارق العادات، وغير ذلك.

وقد كثر الاهتمام بهذا الموضوع في قديم الزمان وحديثه دراسة وكتابة وتأليفًا، لأنه عمل ينبثق من صميم الإيمان وغريزة الحب والتفاني، إلا أنَّ عامة القائمين بذلك لم يوفوا حقه من التحقيق، بل أدخلوا فيه ما وافق أفكارهم وميولهم وعواطفهم، ولو لم يكن له حظ من الصحة والثبوت، بل جاءوا ببعض ما هو مصطدم بأصول الدين وخارج عن حيز نطاق المعقول.

ونظرًا إلى ذلك اقترح عليّ بعض الإخوان بتأليف كتاب جديد في حجم متوسط أجمع فيه ماهو ثابت ومعترف به عند أئمة هذا الفن، مع مراعاة مستوى الناشئين وعامة الدارسين، متجنبًا الإجحاف والانحراف، فطلبت من الله التوفيق والسداد، وبدأت بالعمل المطلوب، مستمدًا في ذلك من القرآن الكريم، وتفاسيره المعتمدة، ثم من كتب السنة والسيرة، ومستفيدًا بما يوجد فيها من القرائن والشهادات الداخلية، وما يحيط بها

من الشهادات الخارجية، وآثرت أن تكون العبارة مأخوذة من الروايات وكلام الأوائل بقدر الإمكان. مع الاختصار والاختيار، وأرجو أني قد أدَّيت المطلوب إلى حد قريب، وأدعو الله سبحانه أن ينفع به المسلمين، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم. وصلى الله على خير خلقه محمد وبارك وسلم.

صفي الرحمن المباركفوري

١/١/١٤١٤هـ

محمد ﷺ أصله، ونشأته، وأحواله قبل النبوة

النسب الشريف:

هو أكرم خلق الله، وأفضل رسله، وخاتم أنبيائه محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وعدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام - بالاتفاق، ولكن لم يعرف بالضبط عدد ولا أسماء من بينه وبين إسماعيل عليه السلام.

أما أمه ﷺ فهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وكلاب هو الجد الخامس للنبي ﷺ من جهة أبيه، فأبوه وأمه من أصل واحد، يجتمعان في كلاب، واسمه: حكيم. وقيل: عروة، لكنه كان كثير الصيد بالكلاب فعرف بها.

قبيلته ﷺ :

وقبيلته ﷺ هي قبيلة قريش المشهود لها بالشرف، ورفعة الشأن، والمجد الأصيل، وقداسة المكان بين سائر العرب، وهو لقب فهر بن مالك، أو النضر بن كنانة.

وكل من رجالات هذه القبيلة كانوا سادات وأشرافاً في زمانهم، وقد امتاز منهم قصي - واسمه: زيد - بعدة ميزات، فهو أول من تولى الكعبة من قريش، فكانت إليه حجابتها وسدانتها، أي كان بيده مفتاح الكعبة يفتحها لمن يشاء ومتى شاء، وهو الذي أنزل قريشًا ببطن مكة، وأسكنهم في داخلها، وكانوا قبل ذلك في ضواحيها وأطرافها، متفرقين بين قبائل أخرى، وهو الذي أنشأ السقاية والرفادة - والسقاية: ماء عذب من نبيذ التمر أو العسل أو الزبيب ونحوه، كان يعده في حياض من الأديم يشربه الحجاج. والرفادة: طعام كان يصنع لهم في الموسم - وقد بنى قصي بيتًا بشمالي الكعبة، عرف بدار الندوة، وهي دار شورى قريش، ومركز تحركاتهم الاجتماعية، فكان لا يُعْقَدُ

نكاح، ولا يتم أمر إلا في هذه الدار، وكان بيده اللواء والقيادة، فلا تعقد راية حرب إلا بيده، وكان كريمًا وافر العقل، صاحب كلمة نافذة في قومه.

أسرته ﷺ:

أما أسرته ﷺ فَتُعْرَفُ بالأسرة الهاشمية، نسبة إلى جده الثاني هاشم، وقد ورث هاشم من مناصب قصي: السقاية والرفادة، ثم ورثهما أخوه المطلب، ثم أولاد هاشم إلى أن جاء الإسلام وهم على ذلك، وكان هاشم أعظم أهل زمانه، كان يهشم الخبز، أي يفتته في اللحم، فيجعله ثريدًا، ثم يتركه ليأكل الناس، فلقب بهاشم،واسمه: عمرو. وهو الذي سن الرحلتين: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وكان يعرف بسيد البطحاء.

ومن حديثه: أنه مر بيثرب، وهو في طريق تجارته إلى الشام، فتزوج سلمى بنت عمرو من بني عدي بن النجار، وأقام عندها فترة، ثم مضى إلى الشام وهي حامل، فمات بغزة من أرض فلسطين، وولدت سلمى ابنًا بالمدينة سمته: شيبة - لشيب في رأسه - ونشأ هذا الطفل بين أخواله في المدينة، ولم يعلم به أعمامه بمكة حتى بلغ نحو سبع سنين أو ثماني سنين، ثم علم به عمه المطلب، فذهب به إلى مكة، فلما رآه الناس ظنوه عبده فقالوا: عبدالمطلب، فاشتهر بذلك.

وكان عبدالمطلب أوسم الناس، وأجملهم، وأعظمهم قدرًا. وقد شَرُفَ في زمانه شرفًا لم يبلغه أحد، كان سيد قريش وصاحب عير مكة، شريفًا مطاعًا جوادًا، يسمى بالفياض لسخائه، كان يرفع من مائدته للمساكين والوحوش والطيور، فكان يلقب بمُطْعِم الناس في السهل، والوحوش والطيور في رؤوس الجبال. وقد تشرف بحفر بئر زمزم بعد أن كان قد درسها جرهم عند جلائهم عن مكة، وكان قد أُمر بحفرها في المنام، ووصف له موضعها فيه.

وفي عهده وقعت حادثة الفيل، جاء أبرهة الأشرم من اليمن بستين ألف جندي من الأحباش، ومعه بعض الفيلة، ليهدم الكعبة، فلما وصل إلى وادي محسّر بين المزدلفة ومنى، وتهيأ للهجوم على مكة، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكان ذلك قبل مولد النبي ﷺ بأقل من شهرين فقط.

أما والده ﷺ عبدالله فكان أحسن أولاد عبدالمطلب، وأعفَّهم، وأحبهم إليه، وهو الذبيح، وذلك أن عبدالمطلب لما حفر بئر زمزم، وبدت آثارها نازعته قريش، فنذر لئن آتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعوه، ليذبحن أحدهم. فلما تم له ذلك أقرع بين أولاده، فوقعت القرعة على عبدالله، فذهب إلى الكعبة، ليذبحه، فمنعته قريش، ولاسيما إخوانه وأخواله، ففداه بمائة من الإبل، فالنبي ﷺ ابن الذبيحين: إسماعيل - عليه السلام - وعبدالله، وابن المفديين، فدي إسماعيل - عليه السلام - بكبش، وفدي عبدالله بمائة من الإبل.

واختار عبدالمطلب لابنه عبدالله آمنة بنت وهب، وكانت أفضل نساء قريش شرفًا وموضعًا، وكان أبوها وهب سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فتمت الخطبة والزواج، وبني بها عبدالله بمكة فحملت برسول الله ﷺ.

وبعد فترة أرسله عبدالمطلب إلى المدينة ـ أو الشام في تجارة ـ فتوفي بالمدينة - راجعًا من الشام - ودفن في دار النابغة الذبياني، وذلك قبل ولادته ﷺ على الأصح.

المولـد:

ولد رسول الله ﷺ بشعب بني هاشم في مكة، صبيحة يوم الاثنين، التاسع ـ ويقال: الثاني عشر ـ من شهر ربيع الأول عام الفيل ـ والتاريخ الأول أصح والثاني أشهر ـ وهو يوافق اليوم الثاني والعشرين من شهر أبريل سنة (٥٧١م).

وكانت قابلته - أي دايته - الشفاء بنت عمرو أم عبدالرحمن بن عوف - رضي الله عنه - ولما ولدته أمه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وأرسلت إلى جده عبدالمطلب تبشره بولادته ﷺ فجاء عبدالمطلب مستبشرًا مسرورًا، وحمله، فأدخله الكعبة، وشكر الله، ودعاه، وسماه محمدًا، رجاء أن يحمد، وعق عنه، وختنه يوم سابعه، وأطعم الناس كما كان العرب يفعلون.

وكانت حاضنته أم أيمن: بركة الحبشية، مولاة والده عبدالله، وقد بقيت حتى أسلمت، وهاجرت، وتوفيت بعد النبي ﷺ بخمسة أشهر، أو بستة أشهر.

الرضاع :

وأول من أرضعته ﷺ بعد أمه ثويبة مولاة أبي لهب، بلبن ابن لها، يقال له: مسروح، وكانت قد أرضعت قبله ﷺ حمزة بن عبدالمطلب، وبعده ﷺ أبا سلمة بن عبدالأسد المخزومي، فهم إخوته ﷺ من الرضاعة.

وقد أعتق أبو لهب أمته هذه فرحًا بولادة رسول الله ﷺ ولكنه صار من ألد أعدائه حينما قام بالدعوة إلى الإسلام.

في بني سعد :

كان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي، إبعادًا لهم عن أمراض الحواضر حتى تشتد أعصابهم، وليتقنوا اللسان العربي في مهدهم.

وقَدَّر الله أن جاءت نسوة من بني سعد بن بكر بن هوازن يطلبن الرضعاء، فعرض النبي ﷺ عليهن كلهن، فأبين أن يرضعنه لأجل يتمه، ولم تجد إحدى النسوة ـ وهي حليمة بنت أبي ذويب ـ رضيعًا فأخذته ﷺ ، وحظيت به حظوة اغتبط لها الآخرون.

واسم أبي ذويب والد حليمة: عبدالله بن الحارث، واسم زوجها: الحارث بن عبدالعزى، وكلاهما من سعد بن بكر بن هوازن. وأولاد الحارث بن عبدالعزى: إخوته ﷺ من الرضاعة هم: عبدالله وأنيسة وجدامة، وهي الشيماء، لقب غلب على اسمها، وكانت تحضن رسول الله ﷺ.

بركات في بيت الرضاعة:

وقد درت البركات على أهل هذا البيت مدة وجوده ﷺ بينهم، ومما روي من هذه البركات: أن حليمة لما جاءت إلى مكة كانت الأيام أيام جدب وقحط، وكانت معها أتان كانت أبطأ دابة في الركب مشيًا لأجل الضعف والهزال، وكانت معها ناقة لا تدر بقطرة من لبن، وكان لها ولد صغير يبكي ويصرخ طول الليل لأجل الجوع، لا ينام، ولا يترك أبويه ينامان.

فلما جاءت حليمة بالنبي ﷺ إلى رحلها، ووضعته في حجرها أقبل عليه ثدياها بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه ابنها الصغير حتى روي، ثم ناما.

وقام زوجها إلى الناقة فوجدها حافلًا باللبن، فحلب منها ما انتهيا بشربه ريًّا وشبعًا، ثم باتا بخير ليلة.

ولما خرجا راجعين إلى بادية بني سعد ركبت حليمة تلك الأتان، وحملت معها النبي ﷺ فأسرعت الأتان حتى قطعت بالركب، ولم يستطع لحوقها شيء من الحمر.

ولما قدما في ديارهما: ديار بني سعد - وكان أجدب أرض الله - كانت غنمهما تروح عليهما شباعًا ممتلئة الخواصر بالعلف، وممتلئة الضروع باللبن، فكانا يحلبان ويشربان، وما يحلب إنسان قطرة لبن.

فلم يزالا يعرفان من الله الزيادة والخير حتى اكتملت مدة الرضاعة، ومضت سنتان ففطمته حليمة، وقد اشتد وقوي في هذه الفترة.

بقاء النبي ﷺ في بني سعد بعد الرضاعة:

وكانت حليمة تأتي بالنبي ﷺ إلى أمه وأسرته كل ستة أشهر، ثم ترجع به إلى باديتها في بني سعد، فلما اكتملت مدة الرضاعة وفطمته، وجاءت به إلى أمه حرصت على بقائه ﷺ عندها، لما رأت من البركة والخير، فطلبت من أم النبي ﷺ أن تتركه عندها حتى يغلظ، فإنها تخاف عليه وباء مكة، فرضيت أمه ﷺ بذلك، ورجعت به حليمة إلى بيتها مستبشرة مسرورة، وبقي النبي ﷺ عندها بعد ذلك نحو سنتين، ثم وقعت حادثة غريبة أحدثت خوفًا في حليمة وزوجها حتى ردا النبي ﷺ إلى أمه. وتلك الحادثة هي شق صدره ﷺ، وإليكم بيان ذلك.

شق الصدر:

قال أنس بن مالك - رضي الله عنه -: إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه - أي ضمه وجمعه - ثم أعاده في مكانه.

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره (وهي المرضعة) - فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، أي: متغير اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

إلى أمه الحنون:

ورجع النبي ﷺ بعد هذا الحادث إلى مكة، فبقي عند أمه وفي أسرته نحو سنتين، ثم سافرت معه أمه إلى المدينة، حيث قبر والده وأخوال جده بنو عدي بن النجار، وكان معها قيمها عبدالمطلب، وخادمتها أم أيمن، فمكثت شهرًا ثم رجعت، وبينما هي في الطريق لحقها المرض، واشتد حتى توفيت بالأبواء بين مكة والمدينة، ودفنت هناك.

إلى جده العطوف:

وعاد به ﷺ جده عبدالمطلب إلى مكة، وهو يشعر بأعماق قلبه شدة ألم المصاب الجديد، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان يعظِّم قدره، ويقدمه على أولاده، ويكرمه غاية الإكرام، ويجلسه على فراشه الخاص الذي لم يكن يجلس عليه غيره، ويمسح ظهره، ويسر بما يراه يصنع، ويعتقد أن له شأنًا عظيمًا في المستقبل، ولكنه توفي بعد سنتين حين كان عمره ﷺ ثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام.

إلى عمه الشفيق:

وقام بكفالته ﷺ عمه أبو طالب شقيق أبيه، واختصه بفضل الرحمة والمودة، وكان مقلًا من المال، فبارك الله في قليله، حتى كان طعام الواحد يشبع جميع أسرته، وكان الرسول ﷺ مثال القناعة والصبر، يكتفي بما قدر الله له.

سفره إلى الشام وبحيرا الراهب:

وأراد أبو طالب أن يخرج بتجارة إلى الشام في عير قريش، وكان عمره ﷺ اثنتي عشرة سنة ـ وقيل: وشهرين وعشرة أيام ـ فاستعظم رسول الله ﷺ فراقه، فرق عليه وأخذه معه، فلما نزل الركب قريبًا من مدينة بصرى على مشارف الشام خرج إليهم أحد كبار رهبان النصارى ـ وهو بحيرا الراهب ـ فتخلل في الركب حتى وصل إلى النبي ﷺ فأخذ بيده، وقال:

«هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين».

قالوا: وما علمك بذلك؟

قال: «**إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا**».

ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب، أن يرده ولا يقدم به إلى الشام خوفًا من اليهود والرومان، فرده أبو طالب إلى مكة.

حرب الفجار :

وحين كان عمره ﷺ عشرين سنة، وقعت في سوق عكاظ حرب بين قبائل قريش وكنانة من جهة، وبين قبائل قيس عيلان من جهة أخرى. اشتد فيها البأس، وقتل عدد من الفريقين، ثم اصطلحوا على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد، ووضعوا الحرب، وهدموا ما وقع بينهم من العداوة والشر.

وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ وكان ينبل على أعمامه، أي يجهز لهم النبل للرمي.

وسميت هذه الحرب بحرب الفجار، لأنهم انتهكوا فيها حرمة حرم مكة والشهر الحرام، والفجار أربعة: كل في سنة، وهذه آخرها، وانتهت الثلاثة الأولى بعد خصام واشتجار طفيف، ولم يقع القتال إلا في الرابعة فقط.

حلف الفضول:

وفي شهر ذي القعدة على إثر هذه الحرب تم حلف الفضول بين خمسة بطون من قبيلة قريش وهم: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تيم.

وسببه أن رجلًا من زبيد جاء بسلعة إلى مكة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه ببني عبدالدار، وبني مخزوم، وبني جمح، وبني سهم، وبني عدي، فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، وذكر ظلامته في أبيات، ونادى من يعينه على حقه، فمشى في ذلك الزبير بن عبدالمطلب حتى اجتمع مع الذين مضى ذكرهم في دار عبدالله بن جدعان رئيس بني تيم، وتحالفوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه حتى تُردَّ عليه مظلمته، ثم

قاموا إلى العاص ابن وائل السهمي، فانتزعوا منه حق الزبيدي، ودفعوه إليه.

وقد حضر رسول الله ﷺ هذا الحلف مع أعمامه، وقال بعد أن شرَّفه الله بالرسالة: **«لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»**.

حياة العمل :

معلوم أن النبي ﷺ ولد يتيمًا، ونشأ في كفالة جده ثم عمه، ولم يرث عن أبيه شيئًا يغنيه، فلما بلغ سنًّا يمكن العمل فيه عادة رعي الغنم مع إخوته من الرضاعة في بني سعد، ولما رجع إلى مكة رعاها لأهلها على قراريط، والقيراط جزء يسير من الدينار: نصف العشر أو ثلث الثمن منه. قيمته في هذا الزمان عشرة ريالات تقريبًا.

ورعي الغنم من سنن الأنبياء في أوائل حياتهم، فقد قال ﷺ مرة بعد أن أكرمه الله بالنبوة: **«ما من نبي إلا ورعاها»**.

ولما شبَّ النبي ﷺ وبلغ الفتوة، فكأنه كان يتجر، فقد ورد أنه كان يتجر مع السائب ابن أبي السائب، فكان خير شريك له، لا يجاري ولا يماري.

وعرف ﷺ في معاملاته بغاية الأمانة، والصدق، والعفاف، وكان هذا هديه ﷺ في جميع مجالات الحياة حتى لقب بالأمين.

سفره إلى الشام وتجارته في مال خديجة :

وكانت خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ من أفضل نساء قريش شرفًا ومالًا، وكانت تعطي مالها للتجار يتجرون فيه على أجرة، فلما سمعت عن النبي ﷺ عرضت عليه مالها، ليخرج فيه إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما أعطته غيره.

وخرج رسول الله ﷺ مع غلامها ميسرة إلى الشام، فباع وابتاع وربح ربحًا عظيمًا، وحصل في مالها من البركة ما لم يحصل من قبل، ثم رجع إلى مكة، وأدَّى الأمانة.

زواجه بخديجة :

ورأت خديجة من الأمانة والبركة ما يبهر القلوب، وقص عليها ميسرة ما رأى في النبي ﷺ من كرم الشمائل وعذوبة الخلال - يقال: وبعض الخوارق، مثل تظليل

الملكين له في الحر - فشعرت خديجة بنيل بغيتها فيه، فأرسلت إليه إحدى صديقاتها تبدي رغبتها في الزواج به، ورضي النبي ﷺ بذلك، وكلَّم أعمامه، فخطبوها له إلى عمها عمرو بن أسد، فزوجها عمها بالنبي ﷺ في محضر من بني هاشم، ورؤساء قريش على صداق قدره عشرون بكرة، وقيل ست بكرات، وكان الذي ألقى خطبة النكاح هو عمه أبو طالب: فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر شرف النسب وفضل النبي ﷺ، ثم ذكر كلمة العقد وبين الصداق .

تم هذا الزواج بعد رجوعه ﷺ من الشام بشهرين وأيام، وكان عمره إذ ذاك خمسًا وعشرين سنة، أما خديجة فالأشهر أن سنها كانت أربعين سنة، وقيل: ثمان وعشرين سنة، وقيل غير ذلك، وكانت أولًا متزوجة بعتيق بن عائذ المخزومي، فمات عنها، فتزوجها أبو هالة التيمي، فمات عنها أيضًا بعد أن ترك له منها ولدًا، ثم حرص على زواجها كبار رؤساء قريش فأبت، حتى رغبت في رسول الله ﷺ وتزوجت به، فسعدت به سعادة يغبط عليها الأولون والآخرون.

وهي أول أزواجه ﷺ ، لم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، وكل أولاده ﷺ منها إلا إبراهيم، فإنه من مارية القبطية.

أولاده ﷺ من خديجة :

هم: القاسم، ثم زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم عبدالله، وقيل غير ذلك في عددهم وترتيبهم، وقد مات البنون كلهم صغاراً، أما البنات فقد أدركن كلهن زمن النبوة، فأسلمن وهاجرن، ثم توفَّاهن الموت قبل النبي ﷺ إلا فاطمة - رضي الله عنها - فإنها عاشت بعده ﷺ ستة أشهر.

بناء البيت وقصة التحكيم :

ولما بلغت سنه ﷺ خمسًا وثلاثين سنة، جاء سيل جارف صدَّع جدران الكعبة، وكانت قد وهنت من قبل لأجل حريق، فاضطرت قريش إلى بنائها من جديد، وقرروا أن لا يدخلوا في نفقتها إلا طيبًا، فلا يدخلوا فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد. وهابوا عقاب الله على هدمها، فقال لهم الوليد بن المغيرة: إن الله لا يهلك

المصلحين، ثم بدأ يهدم، فتبعوه في هدمها حتى وصلوا بها إلى قواعد إبراهيم.

ثم أخذوا في البناء، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها، وكان الأشراف يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان رسول الله ﷺ وعمه العباس فيمن يحمل، وتولى البناء بنَّاء رومي اسمه: باقوم. وضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامها على قواعد إبراهيم، فأخرجوا منها نحو ستة أذرع من جهة الشمال، وبنوا عليها جدارًا قصيرًا علامة أنه من الكعبة. وهذا الجزء هو المعروف بالحجر والحطيم.

ولما وصل البنيان إلى موضع الحجر الأسود أراد كل رئيس أن يتشرف بوضعه في مكانه، فوقع بينهم التنازع والخصام، واستمر أربعة أيام أو خمسة، وكاد يتحول إلى حرب دامية في الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي تداركها بحكمة ـ وكان أسن رجل في قريش ـ فاقترح عليهم أن يُحَكِّموا أول رجل يدخل عليهم من باب المسجد، فقبلوا ذلك، واتفقوا عليه.

وكان من قدر الله أن أول من دخل بعد هذا القرار هو رسول الله ﷺ فلما رأوه هتفوا، وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر، أخذ رداءً، ووضع فيه الحجر الأسود، وأمرهم أن يمسك كل واحد منهم بطرف من الرداء ويرفعه، فلما وصل الحجر الأسود إلى موضعه أخذه النبي ﷺ بيده، ووضعه في مكانه. وكان حلًّا حصيفًا رضي به الجميع.

والحجر الأسود يرتفع عن أرض المطاف مترًا ونصف متر. أما الباب فقد رفعوه نحو مترين حتى لا يدخل إلا من أرادوا، وأما الجدران فرفعوها ثمانية عشر ذراعًا، وكانت على النصف من ذلك، ونصبوا في داخل الكعبة ستة أعمدة في صفين ثم سقفوها على ارتفاع خمسة عشر ذراعًا وكانت من قبل بدون سقف ولا عمود.

سيرته ﷺ قبل البعثة:

نشأ ﷺ منذ صباه سليم العقل، وافر القوى، نزيه الجانب، فترعرع، وشب، ونضج، وهو جامع للصفات الحميدة، والشيم النبيلة، فكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ومثالًا نهائيًا في مكارم الأخلاق، ومحاسن الخصال، امتاز بالصدق، والأمانة، والمروءة، والشجاعة، والعدل، والحكمة، والعِفَّة، والزهد،

والقناعة، والحلم، والصبر، والشكر، والحياء، والوفاء، والتواضع، والتناصح.

وكان على أعلى قمة من البر والإحسان كما قال عمه أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وكان وصولًا للرحم، حمولًا لما يثقل كواهل الناس، يساعد من أعدم العيش حتى يصيب الكسب، وكان يقري الضيف، ويعين من نزلت به النوازل.

وقد حاطه الله بالحفظ والرعاية، وبغَّض إليه ما كان في قومه من خرافة وسوء، فلم يشهد أعياد الأوثان واحتفالات الشرك، ولم يأكل مما ذُبح على النُّصب أو أُهِلَّ به لغير الله، وكان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى فضلًا عن مس الأصنام أو التقرب إليها.

وكان أبعد الناس من شرب الخمر، وشهود الملاهي حتى لم يحضر مجالس اللهو والسمر ونواديها التي كانت منتزه الشباب وملتقى الأحبة في مكة.

النبـوة والدعـوة

مقدمات النبوة وتباشير السعادة :

وبما تقدم ذكره اتسعت الشقة الفكرية، والعملية بين النبي ﷺ وبين قومه، وطفق يقلق مما يراهم عليه من الشقاوة والفساد، ويرغب في الاعتزال عنهم، والخلوة بنفسه مع تفكيره في سبيل ينجيهم من التعاسة والبوار.

واشتد هذا القلق، وقويت هذه الرغبة مع تقدم السن حتى كأن حاديًا يحدوه إلى الخلوة والانقطاع، فأخذ يخلو بغار حراء[1]، يتعبد الله فيه على بقايا دين إبراهيم - عليه السلام - وذلك من كل سنة شهرًا. وهو شهر رمضان، فإذا قضى جواره بتمام هذا الشهر انصرف إلى مكة صباحًا، فيطوف بالبيت، ثم يعود إلى داره، وقد تكرر ذلك منه ﷺ ثلاث سنوات.

فلما تكامل له أربعون سنة - وهي سن الكمال، ولها بعثت الرسل غالبًا - بدأت طلائع النبوة، وتباشير السعادة في الظهور، فكان يرى رؤيا صالحة تقع كما يرى، وكان يرى الضوء ويسمع الصوت، وقال: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلِّم عليّ قبل أن أبعث**».

بداية النبوة ونزول الوحي:

فلما كان في رمضان من السنة الحادية والأربعين، وهو معتكف بغار حراء، يذكر الله ويعبده، فاجأه جبريل - عليه السلام - بالنبوة والوحي، ولنستمع إلى عائشة - رضي الله عنها - تروي لنا هذه القصة بتفاصيلها، قالت عائشة - رضي الله عنها -:

أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى

(١) حراء: اسم الجبل الذي يعرف اليوم بجبل النور، وهو على بعد نحو ميلين من أصل مكة، أما الغار فيقع فيه بجنب قمته الشامخة أسفل منها على يسار الصاعد إليها، يصل الرجل إلى الغار بعد ما ينزل من القمة، وهو غار لطيف طوله ينقص قليلًا عن أربعة أمتار، وعرضه يزيد قليلًا على متر ونصف متر.

رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث - أي يتعبد - فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء.

قال: فأخذني، فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء. فأخذني، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني، فغطني الثالثة. ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - فقال: زملوني، زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر -: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتُقْرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى، ابن عم خديجة، وكان امرأً تَنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخًا قد عمي.

فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّلَ الله على موسى. ياليتني فيها جزعًا - أي قويًا جلدًا - ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: أو مُخرِجيَّ هم؟

قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.

ثم لم يلبث ورقة أن تُوفِّي، وفتر الوحي.

تاريخ بدء النبوة ونزول الوحي:

تلك هي قصة بداية النبوة ونزول الوحي على النبي ﷺ لأول مرة، وقد كان ذلك في رمضان في ليلة القدر، قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وقد أفادت الأحاديث الصحيحة أن ذلك كان ليلة يوم الإثنين قبل أن يطلع الفجر.

وحيث إن ليلة القدر تقع في وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان، وقد ثبت علميًا أن يوم الإثنين في رمضان من تلك السنة إنما وقع في اليوم الحادي والعشرين فقد أفاد ذلك أن نبوته ﷺ إنما بدأت في الليلة الحادية والعشرين من رمضان سنة إحدى وأربعين من مولده ﷺ وهي توافق اليوم العاشر من شهر أغسطس سنة (٦١٠م) وكان عمره ﷺ إذ ذاك أربعين سنة قمرية وستة أشهر واثنى عشر يومًا. وهو يساوي تسعًا وثلاثين سنة شمسية وثلاثة أشهر واثنين وعشرين يومًا، فكانت بعثته على رأس أربعين سنة شمسية.

فترة الوحي ثم عودته:

وكان الوحي قد فتر وانقطع بعد أول نزوله في غار حراء - كما سبق - ودام هذا الانقطاع أيامًا، وقد أعقب ذلك في النبي ﷺ شدة الكآبة والحزن، ولكن المصلحة كانت في هذا الانقطاع، فقد ذهب عنه الروع، وتثبت من أمره، وتهيأ لاحتمال مثل ما سبق حين يعود، وحصل له التشوق والانتظار، وأخذ يرتقب مجيء الوحي مرة أخرى.

وكان ﷺ قد عاد من عند ورقة بن نوفل إلى حراء، ليواصل جواره في غاره، ويكمل ما تبقى من شهر رمضان، فلما انتهى شهر رمضان وتم جواره نزل من حراء صبيحة غرة شوال ليعود إلى مكة حسب عادته.

قال ﷺ: فلما استبطنت الوادي - أي دخلت في بطنه - نوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا ونظرت أمامي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فإذا الملك جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعبًا حتى هويت إلى الأرض، فأتيت خديجة، فقلت:

زملوني، زملوني، دثروني، وصبُّوا عليّ ماءً باردًا، فدثروني وصَبوا عليّ ماءً باردًا، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥]

وذلك قبل أن تفرض الصلاة ثم حمي الوحي وتتابع.

وهذه الآيات هي بدء رسالته ﷺ وهي متأخرة عن النبوة بمقدار فترة الوحي، وتشتمل على نوعين من التكليف مع بيان ما يترتب عليه:

أما النوع الأول: فهو تكليفه ﷺ بالبلاغ والتحذير، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾. فإن معناه: حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عما هم فيه من الغي والضلال، وعبادة غير الله المتعال، والإشراك به في الذات والصفات والحقوق والأفعال.

وأما النوع الثاني: فتكليفه ﷺ بتطبيق أوامر الله - سبحانه وتعالى - والالتزام بها في نفسه، ليحرز بذلك مرضاة الله، ويصير أسوة لمن آمن بالله. وذلك في بقية الآيات، فقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. معناه: خصه بالتعظيم، ولا تشرك به في ذلك أحدًا غيره، وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ المقصود الظاهر منه تطهير الثياب والجسد، إذ ليس لمن يكبر الله ويقف بين يديه أن يكون نجسًا مستقذرًا، وقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ معناه: ابتعد عن أسباب سخط الله وعذابه، وذلك بطاعته وترك معصيته، وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تُحسن إحسانًا تريد أفضل منه في هذه الدنيا.

أما الآية الأخيرة فأشار فيها إلى ما يلحقه من أذى قومه حين يفارقهم في الدين، ويقوم بدعوتهم إلى الله وحده، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

القيام بالدعوة:

وقام رسول الله ﷺ على أثر نزول هذه الآيات بالدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - وحيث إن قومه كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، ولا حجة لهم إلا أنهم ألفوا آباءهم على ذلك، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزة والأنفة، ولا سبيل لهم في حل المشاكل إلا السيف، فقد اختار الله له أن يقوم بالدعوة سرًّا، ولا يواجه بها إلا من يعرفه بالخير وحب الحق، ويثق به ويطمئن إليه، وأن يقدم أهله وعشيرته وأصدقاءه وندماءه على غيرهم.

الرعيل الأول:

فلما بدأ النبي ﷺ دعوته بادر إلى الإيمان به عدد ممن كتب الله له السبق إلى السعادة والخير:

١- وكانت أولهم على الإطلاق أم المؤمنين خديجة بنت خويلد - رضي الله تعالى عنها - وكانت قد علمت البشارات، وسمعت عن الإرهاصات، وأبصرت ملامح النبوة، وشاهدت تباشير الرسالة، وتوقعت أن يكون رسول الله ﷺ هو نبي هذه الأمة، ثم تأكد لها من حديث ورقة أن الذي نزل في حراء هو جبريل - عليه السلام - وأن الذي جاء به هو وحي النبوة، ثم شاهدت بنفسها ما مر به النبي ﷺ عند نزول أول المدثر، فكان من الطبيعي أن تكون هي أول المؤمنين.

٢- وبادر النبي ﷺ إلى صديقه الحميم أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - ليخبره بما أكرمه الله به من النبوة والرسالة، ويدعوه إلى الإيمان به، فآمن به دون تردد ولا تلعثم، وأسرع إلى التصديق، وشهد شهادة الحق، فكان أول من آمن به على الإطلاق أو من الرجال، وكان أصغر منه ﷺ بسنتين، وصديقًا له منذ عهد قديم، عارفًا بسره وعلانيته، فكان إيمانه أعدل شاهد على صدقه ﷺ.

٣- ومن أول من آمن به علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كان تحت كفالته ﷺ مقيمًا عنده، يطعمه ويسقيه، ويقوم بأمره، لأن قريشًا أصابتهم مجاعة، وكان أبو طالب مقلًا كثير الأولاد، فكفل العباس ابنه جعفرًا، وكفل النبي ﷺ عليًا، فكان كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة وقد ناهز البلوغ - يقال: كان عمره عشر سنين - وكان يتبعه في كل أعماله، فلما دعاه إلى الإسلام أجاب إليه، وهو أول من آمن به من الصبيان.

ومن أول من آمن به مولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، كان قد أُسِرَ أيام الجاهلية وبيع، فاشتراه حكيم بن حزام. ووهبه لعمته خديجة، فوهبته خديجة لرسول الله ﷺ وعلم به أبوه وعمه فجاءا إلى رسول الله ﷺ وكلّماه، ليحسن إليهما في فدائه، فدعا رسول الله ﷺ زيدًا، وخيَّره بين أن يذهب مع أبيه وعمه وبين أن يبقى عنده، فاختاره عليهما، وعندئذ ذهب رسول الله إلى الملأ من قريش، وقال: اشهدوا أن هذا ابني وارثًا وموروثًا، وذلك قبل النبوة، فكان يدعى زيد بن محمد حتى جاء الإسلام

وأبطل التبني، فَدُعِي زيد بن حارثة.

هؤلاء الأربعة كلهم أسلموا في يوم واحد، يوم أمر رسول الله ﷺ بالإنذار، وقام بالدعوة إلى الله، وقد قيل عن كل واحد منهم إنه أول من أسلم.

ثم نشط للدعوة إلى الله أبو بكر - رضي الله عنه - وصار الساعد الأيمن للنبي ﷺ في مهمة رسالته، وكان رجلًا عفيفًا، مألفًا محببًا، سهلًا كريمًا، جوادًا، معظَّمًا، أعلم الناس بأنساب العرب وأخبارها، يقصده رجال قومه لخلقه ومعروفه، وعلمه وفضله، وتجارته وجوده، وحسن معاملته ومجالسته، فدعا إلى الإسلام من توسَّم فيه الخير، ووثق به من قومه، فأجابه جمع من فضلاء الناس، في مقدمتهم عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي، وعبدالرحمن بن عوف الزهري، وسعد بن أبي وقاص الزهري، وطلحة بن عبيدالله التيمي، بيَّن لهم أبو بكر - رضي الله عنه - الإسلام، وأتى بهم إلى النبي ﷺ فأسلموا جميعًا.

ثم تلا هؤلاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سلمة بن عبدالأسد، وامرأته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبدالله ابنا مظعون، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت، وجعفر ابن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وخالد بن سعيد بن العاص، وامرأته أمينة بنت خلف، ثم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه حطاب بن الحارث، وامرأته فكيهة بنت يسار، وأخوه الآخر معمر بن الحارث، والمطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، ونعيم بن عبدالله ابن أسيد النحام، وهؤلاء كلهم قرشيون من بطون وأفخاذ شتى من قريش.

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام من غير قريش: عبدالله بن مسعود الهذلي، ومسعود بن ربيعة القاري، وعبدالله بن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش، وصهيب ابن سنان الرومي، وعمار بن ياسر العنسي، وأبوه ياسر، وأمه سمية، وعامر بن فهيرة.

وممن سبق إلى الإسلام من النساء من غير من تقدم ذكرهن: أم أيمن بركة الحبشية، مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، وأم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث

الهلالية، زوج العباس بن عبدالمطلب، وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وقد عُرِفَ هؤلاء الأقدمون ومن أسلم معهم بلقب «السابقين الأولين» ويظهر بعد التتبع والاستقراء أن عدد من قيل فيه: إنه قديم الإسلام، أو قيل فيه: إنه من السابقين الأولين، يصل إلى مائة وثلاثين صحابيًا تقريبًا، ولكن لا يُعرفُ بالضبط أنهم كلهم أسلموا قبل الجهر بالدعوة أو تأخر إسلام بعضهم إلى الجهر بها.

عبادة المؤمنين وتربيتهم:

أما الوحي فقد تتابع نزوله بعد أوائل المدثر، ويقال: إن أول ما نزل بعدها هي سورة الفاتحة، وهي سورة تجمع بين الحمد والدعاء، وتشتمل على جميع المقاصد المهمة من القرآن والإسلام، كما أن أول ما أمر به النبي ﷺ من العبادات الصلاة: ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي، نزل بذلك جبريل فعلمه الوضوء والصلاة.

فكانت الطهارة الكاملة هي سمة المؤمنين، والوضوء شرط الصلاة، والفاتحة أصل الصلاة، والحمد والتسبيح من أوراد الصلاة، وكانت الصلاة هي عبادة المؤمنين، يقيمونها، ويقومون بها في أماكن بعيدة عن الأنظار، وربما كانوا يقصدون بها الأودية والشعاب.

ولا تعرف لهم عبادات وأوامر ونواهٍ أخرى في أوائل أيام الإسلام، وإنما كان الوحي يبين لهم جوانب شتى من التوحيد، ويرغّبهم في تزكية النفوس، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنة والنار، ويعظهم مواعظ بليغة تشرح الصدور وتغذي الأرواح.

وكان النبي ﷺ يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويحدو بهم إلى منازل نقاء القلوب، ونظافة الأخلاق، وعفة النفوس، وصدق المعاملات، وبالجملة كان يخرجهم من الظلمات إلى النور. ويهديهم إلى صراط مستقيم، ويربيهم على التمسك بدين الله والاعتصام بحبل الله، والثبات في أمر الله، والاستقامة عليه.

وهكذا مرت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، لم يجهر بها النبي ﷺ في المجامع والنوادي، إلا أنها صارت معروفة لدى قريش، وقد تنكر لها بعضهم أحيانًا، واعتدوا على بعض المؤمنين، ولكنهم لم يبالوا بها بصفة عامة، حيث لم يتعرض رسول الله ﷺ لدينهم، ولم يتكلم في آلهتهم.

الجهـر بالدعـوة

الدعوة في الأقربين :

وبعد أن قضى رسول الله ﷺ ثلاث سنوات في سبيل الدعوة الفردية، ووجد لها آذانًا صاغية، ورجالاً صالحين من صميم قريش وغيرها، وتمهدت لها السبل، وتهيأ لظهورها الجو، أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ○ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ○ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٦] فجمع النبي ﷺ عشيرته الأقربين، وهم بنو هاشم، ومعهم نفر من بني المطلب، فقال بعد الحمد وشهادة التوحيد.

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعًا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانًا والسوء سوءًا، وإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا».

فتكلم القوم كلامًا لينًا غير عمه أبي لهب، فإنه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب، فإن سلمتموه إذن ذللتم، وإن منعتموه قتلتم، فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا، وقال أيضًا: امض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبدالمطلب.

على جبل الصفا:

وفي غضون ذلك نزل أيضًا قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فصعد رسول الله ﷺ ذات يوم على الصفا فعلا أعلاها حجرًا، ثم هتف: **«ياصباحاه»**. وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم.

ثم جعل ينادي بطون قريش، ويدعوهم قبائل قبائل: يابني فهر! يابني عدي! يابني فلان! يابني فلان! يابني عبد مناف! يابني عبد المطلب!

فلما سمعوا قالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فأسرع الناس إليه، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولًا لينظر ما هو؟

فلما اجتمعوا قال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ**»؟

قالوا: نعم. ما جربنا عليك كذبًا. ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله ـ أي يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم العدو ـ فخشي أن يسبقوه، فجعل ينادي: ياصباحاه**».

ثم دعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وبيَّن لهم أن هذه الكلمة هي ملاك الدنيا ونجاة الآخرة، ثم حذرهم وأنذرهم عذاب الله إن بقوا على شركهم، ولم يؤمنوا بما جاء به من عند الله، وأنه مع كونه رسولاً لا ينقذهم من العذاب ولا يغنيهم من الله شيئًا.

وعمَّ هذا الإنذار وخصَّ فقال: «**يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعاً، ولا أغني عنكم من الله شيئًا.**

يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار.

يامعشر بني قصي! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

يا بني هاشم! أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم، لا أملك لكم من الله شيئًا.

يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا صفية بنت عبد المطلب: عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا فاطمة بنت محمد رسول الله! سليني بما شئت، أنقذي نفسك من النار، لا أغني

عنك من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها - أي سأصلها حسب حقها -».

ولما أتمَّ هذا الإنذار انفضَّ الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أنهم أبدوا أي معارضة أو تأييد لما سمعوه، سوى ما ورد عن أبي لهب أنه واجه النبي ﷺ بالسوء، فقال: تبًّا لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١].

أما عامة قريش فكأنهم قد أصابتهم الدهشة والاستغراب حين فوجئوا بهذا الإنذار، ولم يستطيعوا أن يختاروا أي موقف تجاه ذلك، ولكنهم لما رجعوا إلى بيوتهم، واستقرت أنفسهم، وأفاقوا من دهشتهم، واطمأنوا، استكبروا في أنفسهم، وتناولوا هذه الدعوة والإنذار بالاستخفاف والاستهزاء، فكان النبي ﷺ إذا مر على ملأ منهم سخروا منه وقالوا: أهذا الذي بعث الله رسولًا؟ أهذا ابن أبي كبشة يُكَلَّم من السماء؟ وأمثال ذلك.

وأبو كبشة اسم لأحد أجداده ﷺ من جهة الأم، كان قد خالف دين قريش، واختار النصرانية، فلما خالفهم النبي ﷺ في الدين نسبوه إليه، وشَبَّهوه به، تعييرًا واحتقارًا له وطعنًا فيه.

واستمر النبي ﷺ في دعوته، وبدأ يجهر بها في نواديهم ومجامعهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويدعوهم إلى مادعت إليه الرسل: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩] وبدأ يعبد الله أمام أعينهم، فكان يصلي بفناء الكعبة نهارًا جهارًا وعلى رؤوس الأشهاد.

وقد نالت دعوته بعض القبول، ودخل عدد من الناس في دين الله واحدًا بعد واحد، وحصل بين هؤلاء المسلمين وبين من لم يسلم من أهل بيتهم التباغض والتباعد.

مشاورة قريش لكف الحجاج عن الدعوة:

واشمأزت قريش من كل ذلك، وساءهم ما رأوه، وماهي إلا أيام حتى اقترب موعد الحج، وأهمهم أمر الحجاج، فاجتمع نفر منهم إلى الوليد بن المغيرة ـ وكان ذا سن وشرف فيهم ـ فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضًا.

قالوا: أنت فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به.

قال: لا، بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا: نقول: كاهن.

قال: ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكهان ولا بسجعهم.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه. فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا بعقده.

قالوا: فماذا نقول؟

قال: والله إنَّ لقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة. وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرِفَ أنه باطل، وإنَّ أقربَ القول أن تقولوا: هو ساحر، وقوله سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا للموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه وذكروا له أمره ﷺ فعرف الناس أمره قبل أن يروه أو يسمعوا منه.

وجاءت أيام الحج فخرج النبي ﷺ إلى مجامع الحجاج ورحالهم ومنازلهم، ودعاهم إلى الإسلام، وقال لهم: **«ياأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»**. وتبعه أبو لهب يكذبه ويؤذيه، فصدرت العرب من ذلك الموسم وقد عرفوا أمر رسول الله ﷺ وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

سبل شتى لمواجهة الدعوة:

ولما انتهى الحج، وعادت قريش إلى بيوتهم، واطمأنوا كأنهم رأوا أن يعالجوا

هذه المشكلة التي نشأت لأجل قيام رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الله وحده، فكروا واستشاروا، ثم اختاروا سبلاً شتى لمواجهة هذه الدعوة والقضاء عليها، نذكرها فيما يلي بإيجاز.

أولًا: مواصلة السخرية والاستهزاء والإكثار منها :

والقصد من ذلك تخذيل رسول الله ﷺ والمسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فكانوا يتهمون رسول الله ﷺ بأنه رجل مسحور، شاعر مجنون، كاهن يأتيه الشيطان، ساحر كذاب، مفتر متقول، وغير ذلك من التهم والشتائم، وكانوا إذا رأوه يجيء ويذهب ينظرون إليه نظر الغضب والنقمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم:٥١] وكانوا إذا رأوه يتهكمون به، ويقولون: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦].

وإذا رأوا ضعفاء الصحابة قالوا: قد جاءكم ملوك الأرض: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام:٣٥] وكما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ○ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ○ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ○ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢].

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء، ومن الطعن والتضحيك حتى أثر ذلك في نفس النبي ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:٩٧] ثم ثبته الله تعالى، وبيَّن له ما يذهب بهذا الضيق، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ○ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٨، ٩٩] وقد بيَّن له قبل ذلك ما فيه التسلية، حيث قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ○ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:٩٥، ٩٦] وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالًا عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام:١٠].

ثانيًا: الحيلولة بين الناس وبين الاستماع إلى النبي ﷺ :

فقد قرروا أن يثيروا الشغب، ويرفعوا الضوضاء، ويطردوا الناس كلما رأوا النبي ﷺ يستعد، ليقوم بالدعوة إلى الله فيما بينهم. وأن لا يتركوا له فرصة ينتهزها لبيان ما يدعو إليه، وقد تواصوا بذلك فيما بينهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا

ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦] وقد ظلوا قائمين بذلك بكل شدة وصلابة، حتى إن أول قرآن تمكن النبي ﷺ من تلاوته في مجامعهم هو سورة النجم وذلك في رمضان في السنة الخامسة من النبوة.

وكانوا إذا سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن في صلاته - وأكثر ما كان يتلوه في صلاته بالليل - سبوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، حتى أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠].

وذهب النضر بن الحارث إلى الحيرة والشام، فتعلّم منهم قصصًا شعبية، كانوا يحكونها عن ملوكهم وأمرائهم مثل: رستم وإسفنديار، فلما رجع أخذ يعقد النوادي والمجالس، يقص هذه القصص ويصرف بها الناس عن الاستماع إلى النبي ﷺ وإذا سمع بمجلس جلس فيه رسول الله ﷺ للتذكير بالله، خلفه في ذلك المجلس، ويقص عليهم من تلك القصص، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟!

ثم تقدم خطوة أخرى، فاشترى جارية مغنية، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى تلك المغنية، ويقول: أطعميه واسقيه وغنيه. هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان:٦].

ثالثًا: إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة:

فقد أكثروا من ذلك وتفننوا فيه، فربما كانوا يقولون عن القرآن إنه: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف:٤٤] أي أحلام كاذبة يراها محمد ﷺ بالليل، فيتلوها بالنهار، وأحيانًا كانوا يقولون: «افتراه من عند نفسه» وأحيانًا كانوا يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣] وربما قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان:٤] أي: اشترك هو وزملاؤه في اختلاقه ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥] وأحيانًا قالوا: إن له جنًّا أو شيطانًا يتنزل عليه بالقرآن مثل ما ينزل الجن والشياطين على الكهان. قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢١،٢٢٢] أي إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطخ بالذنوب، وما جربتم عليّ كذبًا. ولا وجدتم فيّ فسقًا، فكيف تقولون إن

القرآن من تنزيل الشيطان؟

وأحيانًا كانوا يقولون عن النبي ﷺ إنه قد أصابه نوع من الجنون، فهو يتخيل المعاني ثم يصوغها في كلمات بديعة رائعة، كما يصوغ الشعراء، فهو شاعر وكلامه شعر، قال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ○ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ○ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٦] فهذه ثلاث خصائص يتصف بها الشعراء، ولا توجد واحدة منها في النبي ﷺ فالذين اتبعوه هداة، متقون، صالحون في دينهم، وخلقهم، وأفعالهم، وتصرفاتهم، ومعاملاتهم، ولا توجد عليهم مسحة من الغواية في أي شأن من شؤونهم. وهو لا يهيم في الأودية كلها كما يهيم الشعراء، بل يدعو إلى رب واحد، ودين واحد، وصراط واحد، وهو لا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول، فأين هو من الشعر والشعراء؟ وأين الشعر والشعراء منه؟.

رابعًا: النقاش والجدال:

وكانت ثلاث قضايا استغربها المشركون جدًّا، وكانت هي الأساس في الخلاف الذي حصل بينهم وبين المسلمين في أمر الدين، وهي: التوحيد، والرسالة. والبعث بعد الموت. فكانوا يناقشون في هذه القضايا، ويجادلون حولها.

فأما البعث بعد الموت فلم يكن عندهم في ذلك إلا التعجب والاستغراب، والاستبعاد العقلي فقط، فكانوا يقولون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ○ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦، ١٧] وكانوا يقولون: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٣] وكانوا يقولون: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ○ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ:٧، ٨] وقال قائلهم:

أمـوت ثـم بـعـث ثـم حـشـر
حـديـث خـرافـة يـا أم عـمـرو

وقد رد الله عليهم بأنواع من الردود، حاصلها أنهم يشاهدون في الدنيا أن الظالم يموت دون أن يلقى جزاء ظلمه، والمظلوم يموت دون أن يأخذ حقه من ظالمه، والمحسن الصالح يموت قبل أن يلقى جزاء إحسانه وصلاحه، والمسيء يموت قبل أن يعاقب على سيئاته، فإن لم يكن بعد الموت يوم يبعث فيه الناس، فيؤخذ من الظالم

للمظلوم، ويُجزَي المحسن الصالح، ويُعَاقَبُ المسيء الفاجر، لاستوى الفريقان، ولا يكون بينهما فرق، بل يصير الظالم والمسيء أسعد من المظلوم والمحسن التقي، وهذا غير معقول إطلاقًا، وليس من العدل في شيء، ولا يتصور من الله سبحانه أن يبني نظام خلقه على مثل هذا الظلم والفساد. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ○ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وأما الاستبعاد العقلي، فقال ردًا عليهم في ذلك: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] وقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وذكرهم ما هو معتاد لديهم، وهو أن الإعادة ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧] وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

وأما رسالة النبي ﷺ فكانت لهم حولها شبهات مع معرفتهم واعترافهم بصدق النبي ﷺ وأمانته وغاية صلاحه وتقواه، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن منصب النبوة والرسالة أعظم وأجلّ من أن يعطى لبشر، فالبشر لا يكون رسولًا، والرسول لا يكون بشرًا، حسب عقيدتهم، فلما أعلن رسول الله ﷺ عن نبوته ورسالته، ودعا إلى الإيمان به تحير المشركون وتعجبوا وقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ﴾ [الفرقان: ٧] قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقد أبطل الله عقيدتهم هذه، وقال - ردًا عليهم -: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ﴾ [الأنعام: ٩١] وقصّ عليهم قصص الأنبياء والرسل، وما جرى بينهم وبين قومهم من الحوار، وأن قومهم قالوا إنكارًا لرسالتهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ و ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١] فالأنبياء والرسل كلهم كانوا بشرًا، وأما أن يكون الرسول ملكًا فإن ذلك لا يفي بغرض الرسالة ومصلحتها، إذ البشر لا يستطيع أن يتأسى بالملائكة، ثم تبقى

الشبهة كما هي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

وحيث إن المشركين كانوا يعترفون أن إبراهيم، وإسماعيل وموسى - عليهم السلام - كانوا رسلًا وكانوا بشرًا، فإنهم لم يجدوا مجالًا للإصرار على شبهتهم هذه، ولكنهم أبدوا شبهة أخرى، قالوا: ألم يجد الله لحمل رسالته إلا هذا اليتيم المسكين؟ ما كان الله ليترك العظماء الكبار من أشراف قريش وثقيف، ويرسل هذا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣١،٣٢] يعني: أن الوحي والقرآن والنبوة والرسالة رحمة من الله، والله يعلم كيف يقسم رحمته، وأين يضعها، فمن يعطيها، ومن يحرمها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

فانتقلوا بعد ذلك إلى شبهة أخرى قالوا: إن من يكون رسولًا لملك من ملوك الدنيا يوفر له الملك أسباب الحشمة، والجاه من الخدم، والحشم، والضيعة، والمال، والأبّهة، والجلال، وغير ذلك، وهو يمشي في موكب من الحرس، والمرافقين أصحاب العز والشرف، فما بال محمد يدفع في الأسواق للقمة عيش يدَّعى إنه رسول الله؟: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٧،٨].

ومعلوم أن النبي ﷺ كان قد أرسل إلى جميع أنواع البشر: صغارهم، وكبارهم، وضعافهم، وأقويائهم، وأذنابهم، وأشرافهم، وعبيدهم، وأحرارهم، فلو حصل له ما تقدم من الأبهة، والجلال، ومواكبة الخدم، والحشم، والكبار، لم يكن يستفيد به ضعفاء الناس وصغارهم، وهم جمهور البشر، وإذن لفاتت مصلحة الرسالة، ولم تعد لها فائدة تذكر، ولذلك أجيب المشركون على طلبهم هذا بأن محمدًا ﷺ رسول، يعني يكفي لدحض شبهتكم هذه أنه رسول، والذي طلبتموه له من الحشمة والجاه والموكب والمال، ينافي تبليغ الرسالة في عامة الناس، بينما هم مقصودون بالرسالة.

فلما ردَّ على شبهتهم هذه تقدموا خطوة أخرى، وأخذوا يطالبون بالآيات عنادًا وتعجيزًا، فدار بينهم وبين النبي ﷺ نقاش وحوار، وسنأتي على شيء منه إن شاء الله.

وأما قضية التوحيد فكانت رأس القضايا وأصل الخلاف، وكان المشركون يقرون بتوحيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ في ذاته وصفاته وأفعاله، فكانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وهو خالق كل شيء، وهو المالك الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ومابينهما، وملكوت كل شيء، وهو الرازق الذي يرزق الناس والدواب والأنعام، ويرزق كل حي، وهو المدبر الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ويدبر أمر كل صغير وكبير حتى الذرة والنملة، وهو رب السماوات والأرض، وما بينهما ورب العرش العظيم، ورب كل شيء، سخر الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والجن والإنس والملائكة، كل له خاضعون، يجير من يشاء على من يشاء ولا يجار عليه أبدًا، يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

وهم بعد هذا الإقرار الصريح لتوحيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ في ذاته وصفاته وأفعاله كانوا يقولون: إن الله تعالى أعطى بعض عباده المقربين ـ كالأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين ـ شيئًا من التصرف في بعض أمور الكون، فهم يتصرفون فيه بإذنه مثل: هبة الأولاد، ودفع الكربات، وقضاء الحوائج، وشفاء المرضى، وأمثال ذلك، وأن الله إنما أعطاهم ذلك لقربهم من الله، ولجاههم عند الله، فهم لأجل أن الله منحهم هذا التصرف وهذا الخيار يقضون بعض حاجات العباد عن طريق الغيب، فيكشفون عنهم بعض الكربات، ويدفعون بعض البليات، ويقربون إلى الله من يرضون به، ويشفعون له عنده.

والمشركون على أساس زعمهم هذا جعلوا هؤلاء الأنبياء والأولياء والصالحين وسيلة فيما بينهم وبين الله، واخترعوا أعمالًا يتقربون بها إليهم، ويبتغون بها رضاهم، فكانوا يأتون بتلك الأعمال ثم يتضرعون إليهم، ويدعونهم لقضاء حوائجهم، ويستغيثون بهم في شدائدهم، ويستعيذون بهم في مخاوفهم.

أما الأعمال التي اخترعوها للتقرب إليهم فهي أنهم خصصوا لهؤلاء الأنبياء أو الأولياء والصالحين أماكن، وبنوا لهم فيها البيوت، ووضعوا فيها تماثيلهم التي نحتوها طبق صورهم الحقيقية أو الخيالية، وربما وجدوا قبور بعض الأولياء والصالحين حسب

زعمهم، فبنوا عليها البيوت دون أن ينحتوا لهم التماثيل، ثم كانوا يقصدون هذه التماثيل وتلك القبور، فكانوا يمسحونها ويتبركون بها، ويطوفون حولها، ويقومون لها بالإجلال والتعظيم، ويقدمون إليها النذور والقرابين، ليتقربوا بها إليهم، ويبتغوا بها من فضلهم، وكانوا ينذرون لهم مما كان يرزقهم الله من الحرث والزرع والطعام والشراب والدواب والأنعام والذهب والفضة والأمتعة والأموال.

فأما الحرث والزرع والطعام والشراب والذهب والفضة والأمتعة والأموال فكانوا يقدمونها إلى أماكن وقبور هؤلاء الصالحين، أو إلى تماثيلهم، بواسطة سدنة وحجاب كانوا يجاورون تلك القبور والبيوت، ولم يكن يقدم إليها شيء إلا بواسطتهم في معظم الأحوال.

وأما الدواب والأنعام فكان لهم فيها طرق، فربما كانوا يسيبونها باسم هؤلاء الأولياء والصالحين، من أصحاب القبور أو التماثيل تقربًا إليهم وإرضاءً لهم، فكانوا يقدسون هذه الدواب، ولا يتعرضون لها بسوء أبدًا، ترتع ما شاءت، وتتجول أين شاءت، وربما كانوا يذبحونها على أنصاب هؤلاء الأولياء - أي على قبورهم وأماكنهم المخصصة لهم - وربما كانوا يذبحونها في أي مكان آخر، ولكن كانوا يذكرون أسماءهم بدل اسم الله سبحانه وتعالى.

وكان من جملة أعمالهم أنهم كانوا يحتفلون بهؤلاء الأولياء والصالحين مرة أو مرتين في السنة، فكانوا يقصدون قبورهم وأماكنهم من كل جانب، فيجتمعون عندها في أيام خاصة، ويقيمون لها أعيادًا، يفعلون فيها كل ما تقدم من التبرك والمسح والطواف وتقديم النذور والقرابين وغير ذلك، وكان كالموسم يحضره الداني والقاصي، والشريف والوضيع، حتى يقدم كل أحد نذره، وينال بغيته.

كان المشركون يفعلون كل ذلك بهؤلاء الأولياء والصالحين تقربًا إليهم إرضاءً لهم، ليجعلوهم وسطاء بينهم وبين الله، وليتوسلوا بهم إلى الله، معتقدين إنهم يقربونهم إلى الله زلفى، ويشفعون لهم عند الله، ثم كانوا يدعونهم لقضاء حوائجهم ودفع كرباتهم، معتقدين أنهم يسمعون لما قالوا، ويستجيبون لما دعوا وطلب منهم، فيقضون حوائجهم، ويكشفون كرباتهم، إما بأنفسهم، وإما بشفاعتهم لذلك عند الله.

فكان هذا هو شركهم بالله، وعبادتهم لغير الله، واتخاذهم آلهة من دون الله، وجعلهم شركاء لله، وكان هؤلاء الأولياء والصالحون وأمثالهم هم آلهة المشركين.

فلما قام النبي ﷺ بالدعوة إلى توحيد الله، وخلع كل ما اتخذوه إلهًا من دون الله، شقَّ ذلك على المشركين، وأعظموه، وأنكروه وقالوا: إنها مؤامرة أريد بها غير ما يقال، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ○ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ○ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص:٥-٧].

ثم لما تقدمت الدعوة وقرر المشركون الدفاع عن شركهم، والدخول في النقاش والجدال ومناظرة المسلمين، ليكفُّوا بذلك إلى الله، ويبطلوا أثرها في المسلمين، أقيمت عليهم الحجة من عدة جوانب، فقيل لهم: من أين علمتم أن الله تعالى أعطى عباده المقربين التصرف في الكون، وأنهم يقدرون على ما تزعمون من قضاء الحوائج وكشف الكربات؟ هل اطَّلعتم على الغيب؟ أو وجدتم ذلك في كتاب ورثتموه من الأنبياء أو أهل العلم؟

قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور:٤١] وقال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤]. وقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

وكان من الطبيعي أن يعترف المشركون بأنهم لم يطَّلعوا على الغيب، ولا وجدوا ذلك في كتاب من كتب الأنبياء، ولا أخذوه من أهل العلم، فقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان:٢١] و﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

وبهذا الجواب تبين عجزهم وجهلهم معًا، فقيل لهم: إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، فاسمعوا منه سبحانه وتعالى ما يقوله ويخبر به عن حقيقة شركائكم هؤلاء يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤] أي إنهم لا يقدرون على شيء مما يختص بالله سبحانه وتعالى كما أنكم لا تقدرون عليه، فأنتم وهم سواء في العجز وعدم القدرة، ولذلك تحداهم بقوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣] أي

بقدر ما يكون من القشرة الرقيقة فوق النواة: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ○ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠، ٢١]

وقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ○ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف:١٩١، ١٩٢] وقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

ثم رتب على عجز هؤلاء الآلهة، وعدم قدرتهم على ما كانوا يزعمون، أن دعاءهم والرجاء منهم لغو وباطل لا فائدة فيه إطلاقًا، وذكر لذلك بعض الأمثلة الرائعة، وذلك مثلًا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

ثم دُعِيَّ المشركون إلى قليل من التفكير، وحيث إنهم كانوا يعترفون بأن الله تعالى هو خالق كل شيء، وأن آلهتهم لم يخلقوا شيئًا، ولا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً، بل هم أنفسهم مخلوقون لله، فقيل لهم: فكيف سوّيتم بين الله الخالق القادر وبين هؤلاء المخلوقين العجزة؟ كيف سوّيتم بينهما في العبادة والدعاء؟ فإنكم تعبدون الله وتعبدون هؤلاء، وتدعون الله وتدعون هؤلاء: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

فلما وجه إليهم هذا السؤال بهتوا، وذهبت عنهم حجتهم، فسكتوا وندموا، ثم تشبثوا بأمر باطل، قالوا: إن آباءنا كانوا من أعقل البشر، معروفين بذلك فيما بين الناس، قد اعترف بفضل عقولهم الداني والقاصي، وهم كلهم كانوا على هذا الدين، فكيف يمكن أن يكون هذا الدين ضلالًا وباطلًا؟ ولا سيما وآباء النبي ﷺ وآباء المسلمين أيضًا كانوا على هذا الدين.

فرد عليهم بأنهم ما كانوا مهتدين، ولم يعرفوا سبيل الحق، ولا سلكوه، ويستلزم هذا أنهم كانوا ضالين، لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون، وقد قيل لهم ذلك أحيانًا بالإشارة والكناية، وأحيانًا بالصراحة الكاملة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ○ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات:٦٩، ٧٠].

هذه من جهة، ومن جهة أخرى أخذ المشركون يخوِّفون النبي ﷺ والمسلمين من آلهتهم، يقولون: إنكم أسأتم الأدب إلى آلهتنا ببيان عجزهم، فهم سوف يغضبون عليكم، فتهلككم أو تخبطكم لأجل ذلك، وهذا كما كان الأولون يقولون لرسلهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

ورد على ذلك بتذكير المشركين، وإلزامهم بما كانوا يشاهدونه ليلًا ونهارًا، وهي أن هذه الآلهة لا تستطيع أن تتحرك من أماكنها، وتتقدم أو تتأخر شيئًا، أو تدفع عن نفسها شرًّا، فكيف تستطيع أن تضر المسلمين وتهلكهم؟: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وضرب لهم بمثل هذه المناسبة بعض الأمثال الصريحة، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] ومثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]. وقد بين بعض المسلمين عجزهم هذا بقوله:

أرب يبول الثعلبان برأسه
لقد ذل من بالت عليه الثعالب

فلما وصلت النوبة إلى مثل هذه المصارحة هاج المشركون وماجوا، وسبوا المسلمين حتى سبوا ربهم الله سبحانه وتعالى فأما المسلمون فقد نهاهم الله سبحانه وتعالى عن معاودة ما يسبب ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وأما المشركون فقد قرروا إحباط الدعوة، والصدِّ عن سبيل الله بالضغط والقوة والعنف، فقام كل كبير ورئيس بتعذيب من آمن من قبيلته، وذهب جمع منهم إلى أبي طالب، ليكُفَّ هو رسول الله ﷺ عن الدعوة إلى الله.

بقدر ما يكون من القشرة الرقيقة فوق النواة: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ○ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]

وقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ○ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢] وقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

ثم رتب على عجز هؤلاء الآلهة، وعدم قدرتهم على ما كانوا يزعمون، أن دعاءهم والرجاء منهم لغو وباطل لا فائدة فيه إطلاقًا، وذكر لذلك بعض الأمثلة الرائعة، وذلك مثلًا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

ثم دُعِيَّ المشركون إلى قليل من التفكير، وحيث إنهم كانوا يعترفون بأن الله تعالى هو خالق كل شيء، وأن آلهتهم لم يخلقوا شيئًا، ولا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً، بل هم أنفسهم مخلوقون لله، فقيل لهم: فكيف سوّيتم بين الله الخالق القادر وبين هؤلاء المخلوقين العجزة؟ كيف سوّيتم بينهما في العبادة والدعاء؟ فإنكم تعبدون الله وتعبدون هؤلاء، وتدعون الله وتدعون هؤلاء: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

فلما وجه إليهم هذا السؤال بهتوا، وذهبت عنهم حجتهم، فسكتوا وندموا، ثم تشبثوا بأمر باطل، قالوا: إن آباءنا كانوا من أعقل البشر، معروفين بذلك فيما بين الناس، قد اعترف بفضل عقولهم الداني والقاصي، وهم كلهم كانوا على هذا الدين، فكيف يمكن أن يكون هذا الدين ضلالًا وباطلًا؟ ولا سيما وآباء النبي ﷺ وآباء المسلمين أيضًا كانوا على هذا الدين.

فرد عليهم بأنهم ما كانوا مهتدين، ولم يعرفوا سبيل الحق، ولا سلكوه، ويستلزم هذا أنهم كانوا ضالين، لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون، وقد قيل لهم ذلك أحيانًا بالإشارة والكناية، وأحيانًا بالصراحة الكاملة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ○ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

تعذيب المسلمين:

فأما تعذيبهم المسلمين فقد أتوا فيه بأنواع تقشعر لها الجلود، وتتفطر منها القلوب.

* **كان بلال بن رباح** ـ رضي الله عنه ـ مملوكًا لأمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يجعل في عنقه حبلاً، ويدفعه إلى الصبيان، يلعبون به، وهو يقول: أحد أحد. وكان يخرج به في وقت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء - وهي الرمل أو الحجر الشديد الحرارة - ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفُر بمحمد وتعبد اللّات والعزى، فيقول: أحد، أحد.

ومر به أبو بكر - رضي الله عنه - يومًا وهو يُعَذَّبُ فاشتراه وأعتقه لله.

* **وكان عامر بن فهيرة** يُعذَّب حتى يفقد وعيه، ولا يدري ما يقول.

* وعُذب أبو فكيهة - واسمه أفلح - قيل: كان من الأزد، وكان مولى لبني عبدالدار، فكانوا يخرجونه في نصف النهار في حر شديد، وفي رجليه قيد من حديد، فيجردونه من الثياب، ويبطحونه في الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يُعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وكانوا مرة قد ربطوا رجليه بحبل، ثم جروه، وألقوه في الرمضاء، وخنقوه حتى ظنوا أنه قد مات، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله.

* **وكان خباب بن الأرت** ممن سبى في الجاهلية، فاشترته أم أنمار بنت سباع الخزاعية، وكان حدادًا، فلما أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتي بالحديدة المحماة، فتجعلها على ظهره، ليكفر بمحمد ﷺ، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وكان المشركون أيضًا يعذبونه، فيلوون عنقه، ويجذبون شعره، وقد ألقوه مرارًا على فحم النار، ثم وضعوا على صدره حجرًا ثقيلًا حتى لا يقوم.

* **وكانت زنيرة أمة رومية** أسلمت، فعذبت في الله، وأصيبت في بصرها حتى عميت. فقيل لها: أصابتك اللات والعزى. فقالت: لا والله ما أصابتني، وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فأصبحت من الغد، وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا بعض سحر محمد.

* **وأسلمت أم عبيس**: جارية لبني زهرة، فكان يعذبها مولاها: الأسود بن عبد يغوث، وكان من أشد أعداء رسول الله ﷺ ومن المستهزئين به.

* **وأسلمت جارية عمرو بن مؤمل** من بني عدي، فكان عمر بن الخطاب يعذبها، وهو يومئذ على الشرك، فكان يضربها حتى يفتر، ثم يدعها، ويقول: والله! ما أدعك إلا سآمة، فتقول: كذلك يفعل بك ربك.

* **وتذكر فيمن أسلمن وعذبن من الجواري**: النهدية، وابنتها وكانتا لامرأة من بني عبدالدار.

واشترى أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - هؤلاء الجواري، وأعتقهن كما أعتق بلالًا وعامر بن فهيرة، وأبا فكيهة. وقد عاتبه أبوه أبو قحافة، وقال: أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أعتقت رجالًا جلدًا لمنعوك، فقال: إني أريد وجه الله، فأنزل الله تعالى قرآنًا مدحه فيه وذم أعداءه، فقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ○ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ○ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٦] وهو أمية بن خلف، ومن كان على شاكلته: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ○ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ○ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ○ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ○ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١] وهو أبو بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - وعمن أعتقهم، وعن الصحابة أجمعين.

* **وعذب عمار بن ياسر وأمه وأبوه** - رضي الله عنهم - وكان حلفاء بني مخزوم، فكان بنو مخزوم - وعلى رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلى الأبطح، إذا حميت الرمضاء، فيعذبونهم بحرها، ويمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: «**صبرًا آل ياسر موعدكم الجنة، اللهم اغفر لآل ياسر**».

أما ياسر والد عمار - وهو ياسر بن عامر بن مالك العنسي المذحجي - فقد مات تحت العذاب، وأما أم عمار ـ وهي سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة المخزومي، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة ـ فطعنها أبو جهل في قبلها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام.

وأما عمار فثقل عليه العذاب، فإن المشركين تارة كانوا يلبسونه درعًا من حديد في يوم صائف، وتارة كانوا يضعون على صدره صخرًا أحمر ثقيلًا، وتارة كانوا يغطونه في

الماء، حتى قال بلسانه بعض ما يوافقهم، وقلبه مليء بالإيمان، فأنزل الله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل:١٠٦].

* **وعذب في الله مصعب بن عمير**، كان من أنعم الناس عيشًا، فلما دخل في الإسلام منعته أمه الطعام والشراب، وأخرجته من البيت، فتخشف جلده تخشف الحية.

* **وعذب صهيب بن سنان الرومي**، حتى فقد وعيه، ولا يدري ما يقول.

* **وعذب عثمان بن عفان**، كان عمه يلفه في حصير من ورق النخيل، ثم يدخنه من تحته.

* **وأوذي أبو بكر الصديق، وطلحة بن عبيدالله**، أخذهما نوفل بن خويلد العدوي وقيل: عثمان بن عبيد الله، أخو طلحة بن عبيدالله، فشدهما في حبل واحد، ليمنعهما عن الصلاة وعن الدين، فلم يجيباه، فلم يروعاه إلا وهم مطلقان يصليان، وسميا بالقرينين لكونهما قد شدا في حبل واحد.

وكان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم وله شرف ومنعة، أنبه، وأخزاه، وأوعده بإلحاق الخسارة الفادحة في المال والجاه، وإذا كان الرجل ضعيفًا ضربه وأغرى به. والحاصل أنهم لم يعملوا بأحد دخل في الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال.

كانت هذه الاعتداءات ضد ضعفاء المسلمين وعامتهم. أما من أسلم من الكبار والأشراف فإنهم كانوا يحسبون له حسابًا، ولم يكن يجترىء عليهم إلا أمثالهم من رؤساء القبائل وأشرافها، وذلك مع قدر كبير من الحيطة والحذر.

موقف المشركين من رسول الله ﷺ :

أما رسول الله ﷺ فكان له من الشهامة والشرف والوقار ماوقاه الله به كثيرًا من اعتداءات الناس، وقد كان يحوطه ويمنعه أبو طالب، وكان سيدًا مطاعًا معظَّمًا في قريش، لا يُسْتَهَان بذمته ولا تخفر، كان من ذروة بني عبد مناف، ولم تعرف له قريش بل العرب إلا الإجلال والتكريم، فاضطر المشركون بالنسبة للنبي ﷺ إلى اتخاذ خطوات سلمية، واختاروا سبيل المفاوضات مع عمه أبي طالب، ولكن مع نوع من أسلوب القسوة والتحدي.

بين قريش وأبي طالب :

فقد مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، وقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه.

فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقًا، وردهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ماهو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه.

إنذار قريش وتحديهم لأبي طالب :

ولم تصبر قريش طويلاً حين رأوا النبي ﷺ ماضيًا في عمله، ودعوته إلى الله، فقد أكثروا ذكره وتذامروا فيه، ثم مشوا إلى أبي طالب، وقالوا: يا أبا طالب! إن لك سنًّا، وشرفًا، ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله! لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا.

وعظم على أبي طالب هذا التحدي والإنذار، فدعا رسول الله ﷺ وذكر له ما قالوه، وقال له: أبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فلما رأى رسول الله ﷺ ضعفه قال: ياعم! والله! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته، ثم استعبر وبكى، وعادت إلى أبي طالب الرقة والثقة، فقال: اذهب يابن أخي! فقل ما أحببت، فو الله! لا أسلمك لشيء أبدًا.

اقتراح غريب من قريش، ورد طريف من أبي طالب :

ورأت قريش أن إنذارهم لم يُجدِ نفعًا، فالرسول ﷺ ماضٍ في عمله، وأبو طالب قائم بنصرته، وهذا يعني أنه مستعد لفراقهم وعداوتهم، ومنازلتهم في نصرة ابن أخيه محمد ﷺ، فلبثوا مليًّا يفكرون ويتشاورون، حتى وصلوا إلى اقتراح غريب، فقد جاءوا إلى أبي طالب، ومعهم عمارة بن الوليد سيد شبابهم، وأنهد فتى في قريش وأجمله، فقالوا: يا أبا طالب! خذ هذا الفتى، فلك عقله ونصره، واتخذه ولدًا، فهو لك، وأسلم

إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

قال أبو طالب: والله! لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله! ما لا يكون أبدًا.

اعتداءات على رسول الله ﷺ :

ولما فشلت قريش ويئسوا، ورأوا أن الإنذار والتحدي والمساومة لم تُجدِ نفعًا، بدأوا بالاعتداءات على ذات الرسول ﷺ ، وزادوا في تعذيب المسلمين والتنكيل بهم.

وحيث إن الرسول ﷺ كان معززًا محتشمًا محترمًا، فقد تولّى إيذاءه كبراء قريش ورؤساؤهم، ولم يجترئ على ذلك أذنابهم وعامتهم.

وكان النفر الذين يؤذونه في بيته أبا لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي - وكانوا جيرانه ﷺ - فكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي، وكان يطرحها في برمته إذا نصبت، وكانوا إذا طرحوا عليه ذلك يخرج به على العود، فيقف به على بابه ويقول: يابني عبد مناف! أي جوار هذا؟! ثم يلقيه في الطريق.

وكان أمية بن خلف إذا رآه همزه ولمزه. والهمز: الطعن والشتم علانية، أو كسر العينين والغمز بهما. واللمز: العيب والإغراء.

وكان أخوه أُبي بن خلف يتوعد النبي ﷺ يقول: يا محمد إن عندي العود، فرسًا أعلفه كل يوم فرقًا من ذرة أقتلك عليه حتى قال له رسول الله ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله - وقد قتله يوم أحد - وجاء أُبي بن خلف هذا يومًا بعظمٍ بالٍ رميم، ففته ونفخه في وجه رسول الله ﷺ.

وجلس عقبة بن أبي معيط إلى النبي ﷺ وسمع منه، فبلغ أُبيًا - وكان صديقه - فعاتبه، وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل.

أما أبو لهب فقد عاداه وآذاه من أول يوم ظهرت فيه الدعوة إلى الله، وكانت في عقد ابنيه عتبة وعتيبة ابنتا رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم، فقال لهما: رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا بنتي محمد، وقالت زوجته أيضًا: طلقاهما، فإنهما قد صبأتا، فطلقاهما.

وكانت زوجته هذه ـ وهي أم جميل أروى بنت حرب ـ أيضًا عدوة لدودة لرسول الله ﷺ ودعوته، فكانت تأتي بالأغصان وفيها الشوك، فتطرحها في سبيل رسول الله ﷺ بالليل حتى يعقر هو وأصحابه.

وسمعت بنزول: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]، فجاءت وفي يدها فهر ـ أي ملء الكف من الحجارة ـ وهي تبحث عن رسول الله ﷺ، وهو جالس مع أبي بكر عند الكعبة، فأخذ الله ببصرها، فلم تكن ترى إلا أبا بكر، فقالت: أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله! لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة ثم قالت:

مذممًا عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يارسول الله أما تراها رأتك، فقال: ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها.

وكان مما تؤذي به قريش أنهم كانوا يسمون رسول الله ﷺ مذممًا بدل محمد، يشتمون بذلك ويسبون، ولكن صرف الله ذلك عنه، حيث إنهم كانوا يشتمون مذممًا، وهو محمد.

وكان الأخنس بن شريق الثقفي أيضًا ينال من رسول الله ﷺ.

وأما أبو جهل فكأنه كان قد تحمل عبء الصد عن سبيل الله، وقد كان يؤذي النبي ﷺ بقوله، وينهاه عن الصلاة، ويفخر ويختال بما فعل، حتى شدد على رسول الله ﷺ وتوعده في يوم رآه يصلي، فانتهره رسول الله ﷺ وأخذه بخناقه، وهزه وقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة:٣٤،٣٥] فقال: أتوعدني يامحمد! والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا، وإني لأعز من مشي بين جبليها.

وقال لرفقته يومًا: يعفر محمد وجهه بين أيديكم؟ قالوا: نعم. فقال: واللات والعزى لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه خندقًا من نار وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا.

وحاز مثل هذه الشقاوة عقبة بن أبي معيط، فقد كان رسول الله ﷺ يصلي يومًا عند

البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم عقبة بن أبي معيط، فجاء به وانتظر، فلما سجد وضعه بين كتفيه، فجعلوا يضحكون، ويحيل (أي يميل) بعضهم على بعض، وهو ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة وطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**». فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سماهم رجلاً رجلاً: «**اللهم عليك بفلان وفلان**».. وقد قتلوا كلهم يوم بدر.

وكان عظماء المستهزئين برسول الله ﷺ خمسة: الوليد بن المغيرة المخزومي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، وأبو زمعة الأسود بن عبدالمطلب الأسدي، والحارث ابن قيس الخزاعي، والعاص بن وائل السهمي، وقد أخبر الله رسوله ﷺ أنه سَيُكفَي شرُّهم فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] ثم أنزل على كل منهم ما فيه عبرة وعظة.

فأما الوليد فكان قد أصابه قبل سنين خدش من سهم، ولم يكن شيئًا، فأشار جبريل إلى أثر ذلك الخدش فانتفض، فلم يزل يؤلمه ويؤذيه حتى مات بعد سنين.

وأما الأسود بن عبد يغوث فأشار جبريل إلى رأسه، فخرج فيه قروح، فمات منها، وقيل: أصابه سموم، وقيل: أشار جبريل إلى بطنه، فاستسقى بطنه، وانتفخ، حتى مات.

وأما الأسود بن عبدالمطلب فلما تضايق رسول الله ﷺ من أذاه دعا عليه، وقال: «**اللهم أعم بصره، وأثكله ولده**» فرماه جبريل بشوك في وجهه حتى ذهب بصره. ورمى ولده زمعة حتى مات.

وأما الحارث بن قيس، فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات منه.

وأما العاص بن وائل، فجلس على شبرقة، فدخلت شوكة لها من أخمص قدمه، وجرى سمها إلى رأسه حتى مات.

هذه صورة مصغرة لما كان يعانيه رسول الله ﷺ والمسلمون من قريش بعد إعلان الدعوة والجهر بها. وقد اتخذ رسول الله ﷺ خطوتين إزاء هذا الموقف المتأزم.

دار الأرقم :

الخطوة الأولى: أنه جعل دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركز الدعوة والعبادة، ومقر التربية، لأنها كانت في أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة، فكان يجتمع فيها مع صحابته سرًّا، فيتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة. وبهذا التدبير وقى أصحابه كثيرًا من الأحداث التي كان يخشى وقوعها لو اجتمع بهم جهرًا وعلانية، أما هو ﷺ فكان يعبد الله، ويدعو إليه جهرًا بين ظهراني المشركين، لا يصرفه عن ذلك ظلم، ولا عدوان، ولا سخرية، ولا استهزاء، وكان ذلك من حكمة الله حتى تبلُغ دعوته إلى من يؤمن ومن لا يؤمن، فلا تكون للناس على الله حجة بعد البلاغ، ولئلا يقول قائل يوم القيامة: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

الهجرة إلى الحبشة :

الخطوة الثانية: أنه ﷺ أشار على المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة، بعد أن تأكد أن النجاشي ملك عادل لا يُظلَمُ عنده أحد.

وفي رجب سنة ٥ من النبوة هاجر أول دفعة من المسلمين، وكانوا اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان الأموي ـ رضي الله عنه ـ ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ ، وهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم، ولوط عليهما السلام.

خرج هؤلاء الصحابة سرًّا في ظلام الليل قاصدين ميناء شعيبة جنوب جدة، وكان من قدر الله أنهم وجدوا سفينتين تجاريتين، فركبوهما حتى وصلوا إلى الحبشة.

أما قريش فلما علموا بخروجهم هاجوا وغضبوا، وأسرعوا في آثارهم حتى يلقوا عليهم القبض، ويردوهم إلى مكة، ليواصلوا التنكيل والتعذيب، ويصرفوهم عن دين الله، لكن المسلمين فاتوهم إلى البحر فرجعوا خائبين بعدما وصلوا إلى الساحل.

موافقة المشركين للمسلمين وسجودهم في سورة النجم:

وفي رمضان سنة خمس من النبوة أي بعد هجرة المسلمين بحوالي شهرين خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وحول الكعبة جمع كبير من قريش، فيهم ساداتهم وكبراؤهم، وكانت قد نزلت عليه سورة النجم، فقام فيهم، وأخذ يتلوها فجاءة، وكان

أروع كلام سمعوه قط، فاندهشوا لروعة هذا الكلام، وأخذ منهم كل مأخذ، فبقوا يستمعون إليه مبهوتين ساكتين حتى إذا تلا في خواتم السورة زواجر وقوارع طارت لها القلوب، وتلا في الأخير: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم:٦٢] وخرَّ ساجدًا سجد الجميع، ولم يملكوا أنفسهم.

روى البخاري عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم، فسجد بها، فما بقي أحد من القوم إلا سجد، فأخذ رجل من القوم كفًا من حصى أو تراب، فرفعه إلى وجهه، وقال: يكفيني هذا. فلقد رأيته بعد قُتِلَ كافرًا - وهو أمية بن خلف - قتل يوم بدر.

عودة المهاجرين إلى مكة:

وصل هذا الخبر إلى الحبشة، ولكن في صورة تختلف عن الواقع، فقد بَلَغَهم أن قريشًا أسلموا، فرجعوا فرحين مستبشرين إلى مكة، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار عرفوا جلية الأمر، فمنهم من رجع إلى الحبشة، ومنهم من دخل مكة سرًّا أو في جوار أحد من قريش.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

واشتد البلاء والعذاب على المسلمين من قريش ندمًا منهم على ما فرط منهم من السجود مع المسلمين، وانتقامًا لما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره للمهاجرين، ونظرًا إلى هذه الظروف القاسية أشار رسول الله ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى. فهاجر اثنان أو ثلاثة وثمانون رجلاً، وثماني عشرة امرأة، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من الأولى، لأن قريشًا كانوا متيقظين يتابعون حركات المسلمين، إلا أن المسلمين كانوا أكثر منهم تيقظًا، وأحسن منهم حكمة، وأحكم منهم خطوة، فقد فاتوهم إلى الحبشة رغم كل الجهود.

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة:

شق على المشركين أن أفلت منهم المسلمون، ووصلوا إلى مأمن يأمنون فيه على أنفسهم وإيمانهم، فأرسلوا رجلين من دهاتهم ليسترداهم إلى مكة، وهما: عمرو بن

العاص، وعبدالله بن ربيعة، وكانا إذ ذاك على الشرك.

ونزل الرجلان بالحبشة تحت خطة مدبرة، فاتصلا أولًا بالبطارقة، وساقا إليهم الهدايا، وذكرا لهم الهدف، ولقناهم الحجة، حتى وافقوهما، ثم حضرا إلى النجاشي، فقدما إليه الهدايا، ثم كلَّماه، فقالا:

أيها الملك: إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دينهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وأيدهما البطارقة فيما قالاه حسب الخطة.

ولكن النجاشي احتاط في الأمر، ورأى أن يسمع القضية من الطرفين حتى يتضح له الحق، فدعا المسلمين، وسألهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

فتكلم جعفر بن أبي طالب عن المسلمين، وقال: أيها الملك: كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه. فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ماحرَّم الله علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظْلَم عندك، أيها الملك!

فلما سمع النجاشي هذا، طلب من جعفر قراءة شيء من القرآن، فقرأ عليه صدرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١] فبكى النجاشي حتى اخضلت - أي ابتلّت - لحيته، وبكى الأساقفة حتى أخضلوا - أي بلوا - مصاحفهم، ثم قال النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة.

ثم خاطب مندوبي قريش وقال: انطلقا، فلا والله! لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون، فخرجا.

وفي اليوم الثاني احتال عمرو بن العاص حيلة أخرى، فقال للنجاشي: إنهم ـ أي المسلمين ـ يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا.

فدعاهم النجاشي وسألهم عن ذلك، فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به النبي ﷺ: هو عبدالله ورسوله، وروحه، وكلمته، ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشي عودًا من الأرض، ثم قال: والله! ماعدا ـ أي ما جاوز ـ عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. اذهبوا فأنتم شيوم ـ أي آمنون ـ بأرضي، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم. ما أحب أن لي دبرًا - أي جبلًا - من ذهب، وأني آذيت رجلًا منكم، ثم أمر برد الهدايا على مندوبي قريش، فخرجا مقبوحين، وأقام المسلمون بخير دار مع خير جار.

حيرة المشركين:

ولما منى المشركون بالخيبة والفشل في استرداد المسلمين من الحبشة استشاطوا غضباً، وكادوا يتميزون غيظًا، وينقضون على بقية المسلمين بطشًا، ولا سيما وقد كانوا يرون أن النبي ﷺ ماضٍ في دعوته، ولكنهم رأوا أن أبا طالب قائم بنصرته رغم التهديد والوعيد الشديد، فاحتاروا في أمرهم، ولم يدروا ماذا يفعلون؟ فربما غلبت عليهم الضراوة، فعادوا إلى التعذيب والتنكيل بالنبي ﷺ وبمن بقي معه من المسلمين. وربما فتحوا باب النقاش والجدال؛ وربما عرضوا الرغائب والمغريات، وربما حاولوا المساومة واللقاء في منتصف الطريق، وربما فكروا في قتل النبي ﷺ والقضاء على دعوة الإسلام. إلا أن شيئًا من ذلك لم يُجدِ لهم نفعًا، ولم يوصلهم إلى المراد، بل كانت نتيجة جهودهم الخيبة والخسران وفيما يلي نقدم صورة مصغرة لكل من ذلك.

التعذيب ومحاولة القتل:

كان من الطبيعي أن يعود المشركون إلى ضراوتهم بعد الفشل، وفعلًا عادوا إلى الشدة والبطش بالبقية الباقية من المسلمين، بل مدوا أيديهم إلى رسول الله ﷺ.

فمن ذلك أن عتيبة بن أبي لهب أتى النبي ﷺ وقال: هو يكفر بالذي: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٨، ٩] ثم تسلط عليه بالأذى، وشق قميصه، وتفل في وجهه ﷺ، إلا أن البزاق رجع على عتيبة، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم أرسل عليه كلبًا من كلابك**»، فخرج عتيبة في ركب إلى الشام، فلما نزلوا في الطريق طاف بهم الأسد، فقال: هو آكلي والله، كما دعا محمد عليّ، قتلني وهو بمكة وأنا بالشام، فلما ناموا جعلوه في وسطهم، ولكن جاء الأسد وأخذه برأسه من بين الإبل والناس، وقتله.

ومن ذلك أن عقبة بن أبي معيط وطيء برجله على رقبة النبي ﷺ وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان.

ويؤخذ من سياق الحوادث أن المشركين بعد فشلهم في شتى محاولاتهم لكف الدعوة أخذوا يفكرون بجد في قتل النبي ﷺ، ولو أدَّى ذلك إلى سفك الدماء. ومما يدل على ذلك أن أبا جهل قال يومًا لقريش: إن محمدًا قد أبى، إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله! لا نسلمك لشيء أبدًا، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا كما وصف، وجاء رسول الله ﷺ فقام يصلي، وغدت قريش في أنديتهم ينتظرون ما يفعله أبو جهل، وأقبل أبو جهل حتى دنا، ثم رجع منهزمًا، منتقعًا لونه، مرعوبًا، قد يبست يداه على حجره، حتى قذفه من يده. فقالت له قريش: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت لأفعل ما قلت البارحة، فعرض لي فحل من الإبل ما رأيت مثل هامته وقصرته وأنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني.

قال رسول الله ﷺ: «**ذاك جبريل، لو دنا لأخذه**».

ثم حدث ماهو أشد من ذلك وأنكى، وذلك أن قريشًا اجتمعوا يومًا في الحطيم،

وتكلَّموا في رسول الله ﷺ ، فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ وبدأ يطوف بالبيت، فلما مر بهم غمزوه، فَعُرِفَ ذلك في وجهه. ثم مر بهم الثانية، فغمزوه بمثلها، فعرف ذلك في وجهه، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها. فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش: أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح، فأخذت القوم كلمته، كأن على رؤوسهم طائرًا وقع، حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد.

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره، إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأخذوا بمجامع ردائه، وقالوا: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباءنا؟ قال: أنا ذاك، فانقضوا عليه، هذا يحثه، وهذا يلبله، وأقبل عقبة بن أبي معيط فلوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، وأتى الصريخ إلى أبي بكر: أدرك صاحبك، فجاء وأخذ بمنكبي عقبة ودفعه عن النبي ﷺ وأخذ يضرب هذا، ويجاهد هذا، وهو يقول: ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، فانصرفوا عن رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، وضربوه ضربًا لا يعرف وجهه من أنفه، وكانت له أربع غدائر فما يمسون منها شيئًا إلى رجع، فحملته بنو تيم في ثوب وأدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، فتكلَّم آخر النهار، فسأل عن رسول الله ﷺ فلاموه، وخرجوا من عنده، وعرض عليه الطعام والشراب فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يرى رسول الله ﷺ ، فلما هدأ الليل، وسكن الناس أوصلوه إلى رسول الله ﷺ وهو في دار الأرقم، فلما وجده بخير ساغ له الطعام والشراب.

وقد خرج أبو بكر - رضي الله عنه - يريد الهجرة إلى الحبشة بعدما اشتد عليه الأذى وتضايقت عليه سبل الحياة، ولما بلغ برك الغماد لقيه مالك بن الدغنة سيد القارة والأحابيش[1]، فسأله عن قصده، فأخبره، فقال: مثلك يا أبا بكر! لا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، فارجع واعبد ربك ببلدك، ثم رجعا إلى مكة، وأعلن ابن الدغنة في قريش عن جواره لأبي بكر، فلم ينكروا عليه، ولكن قالوا له: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ولا يستعلن، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا وضعفتنا، فلبث أبو بكر بذلك فترة، ثم بنى مسجدًا بفناء داره، واستعلن بصلاته وقراءته، فذكره ابن الدغنة بجواره.

(١) القارة: اسم قبيلة عظيمة، والأحابيش مجموعة قبائل تحالفوا عند جبل حبشي فسموا بذلك.

فرد عليه أبو بكر جواره، وقال: أرضى بجوار الله.

وكان رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، فكان المشركون يؤذونه لأجل ذلك.

وأثناء هذه الظروف القاسية التي كان يمر بها رسول الله ﷺ والمسلمون حدث ما أفضى إلى إسلام بطلين جليلين من أبطال قريش، طالما استراح المسلمون تحت ظل قوتهما، وهما: حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

إسلام حمزة - رضي الله عنه - :

أما إسلام حمزة فسببه أن أبا جهل مر يومًا برسول الله ﷺ - وهو عند الصفا - فنال منه وآذاه، ويقال إنه ضربه بحجر في رأسه ﷺ فشجه، ونزف منه الدم، ثم انصرف إلى نادي قريش عند الكعبة، وجلس معهم، وكانت مولاة لعبدالله بن جدعان تنظر ما حدث من مسكن لها على الصفا، وبعد قليل أقبل حمزة من الصيد متوشحًا قوسه، فأخبرته الخبر، فخرج حمزة يسعى حتى قام على أبي جهل وقال: يامصفر استه، تشتم ابن أخي، وأنا على دينه؟ ثم ضربه بالقوس، فشجه شجة منكرة. وثار الحيان: بنو مخزوم وبنو هاشم، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة - أي حمزة - فإني سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا.

وكان إسلام حمزة أنفة، كأن اللسان قد سبق إليه دون قصد، ثم شرح الله صدره للإسلام، وكان أعز فتى في قريش، وأقواهم شكيمة، حتى سُمِّي أسد الله، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة.

إسلام عمر - رضي الله عنه - :

وبعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة أسلم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان من أشد الناس قسوة على المسلمين قبل إسلامه، وفي ليلة سمع سرًّا بعض آيات القرآن، ورسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة، فوقع في قلبه أنه حق، ولكنه بقي على عناده، حتى خرج يومًا متوشحًا سيفه يريد أن يقتل النبي ﷺ ، فلقيه رجل، فقال: أين تعمد ياعمر!

قال: أريد أن أقتل محمدًا . قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة، وقد قتلت محمدًا ؟ قال عمر: ما أراك إلا قد صبوت؟ قال: أفلا أدلُّك على العجب ياعمر ؟ إن أختك وختنك قد صبوا، فمشى مغضبًا حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما صحيفة فيها طه، فلما سمع حس عمر توارى في البيت، وسترت أخت عمر الصحيفة، فلما دخل، قال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال: فلعلكما قد صبوتما ؟ فقال ختنه: أرأيت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه، فوطئه وطأً شديدًا، فجاءت أخته فرفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده فدمى وجهها، . فقالت وهي غضبى: ياعمر! إن كان الحق في غير دينك. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

ويئس عمر وندم واستحيا، وقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرؤه، فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم، فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب فقرأه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فقال: أسماء طيبة طاهرة، ثم قرأ طه حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه؟ دلُّوني على محمد.

وخرج خباب فقال: أبشر يا عمر! فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس - وكان قد دعا النبي ﷺ تلك الليلة: «**اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك، بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام**» - ثم ذكر له خباب أن رسول الله ﷺ في دار الأرقم التي في أصل الصفا . .

فخرج عمر حتى أتى الدار وضرب الباب، فأطلَّ رجل من صرير الباب فرآه متوشحًا السيف، فأخبر رسول الله ﷺ واستجمع القوم، فقال حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر. فقال: وعمر، افتحوا له الباب، فإن كان يريد الخير بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه، ثم خرج فأخذ بمجامع ثوب عمر وحمائل سيفه ـ وهو في الحجرة ـ فجبذه بشدة، وقال: أما تنتهي ياعمر! حتى ينزل الله بك من الخزي، والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ ثم قال: اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله،

وأنك رسول الله، فكبَّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد.

ردة فعل المشركين على إسلام عمر:

كان عمر - رضي الله عنه - ذا شكيمة لا يرام، فلما أسلم ذهب إلى أشد قريش عداوة لرسول الله ﷺ وإيذاء للمسلمين. وهو أبو جهل، فدق بابه، فخرج، وقال: أهلًا وسهلًا ما جاء بك؟ قال: جئتك لأخبرك أني آمنت بالله ورسوله محمد، فأغلق الباب في وجهه، وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به، وذهب عمر إلى خاله العاصي بن هاشم فأعلمه فدخل البيت.

وذهب إلى جميل بن معمر الجمحي - وكان أنقل قريش لحديث - فأخبره أنه أسلم، فنادى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبأ، فقال عمر: كذب، ولكني قد أسلمت، فثاروا إليه، فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم.

ولما رجع إلى بيته اجتمعوا وزحفوا إليه، يريدون قتله، حتى سال بهم الوادي كثرة، وجاء العاص بن وائل السهمي - من بني سهم، وكانوا حلفاء بني عدي قوم عمر - وعليه حلة حبرة، وقميص مكفوف بحرير، فقال: مالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت، قال: لا سبيل إليك، ثم خرج فوجد الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ قالوا: هذا ابن الخطاب قد صبأ، قال: لا سبيل إليه فرجعوا.

عزة الإسلام والمسلمين بإسلام عمر:

أما المسلمون فقد وجدوا عزة وقوة كبيرة بإسلام عمر، فقد كانوا قبل ذلك يصلون سرًّا، فلما أسلم عمر قال: يارسول الله! ألسنا على الحق وإن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى. قال: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجنَّ، فخرجوا به في صفين، حمزة في أحدهما وعمر في الآخر، لهم كديد ككديد الطحين، حتى دخلوا المسجد الحرام، فلما نظرت إليهما قريش أصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، ولذلك سمي الفاروق.

قال ابن مسعود: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر.

وقال صهيب: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت

حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به.

عرض الرغائب والمغريات:

ولما رأى المشركون قوة المسلمين وشوكتهم بعد إسلام حمزة وعمر - رضي الله عنهما - اجتمعوا للشورى بينهم، وليفكروا في أنسب خطوة يقومون بها في أمر رسول الله ﷺ والمسلمين فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمي - من بني عبد شمس بن عبد مناف، وكان سيدًا مطاعًا في قومه ـ: يامعشر قريش! ألا أقوم لمحمد فأكلِّمه، وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه إياها ويكفُّ عنا؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد! فقم إليه فكلِّمه. فذهب إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد وحده، فقال: يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت، من خيارنا حسبًا ونسبًا، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت أحلامهم، وعِبت آلهتهم ودينهم، وكفَّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**قل يا أبا الوليد! أسمع**».

فقال: يا ابن أخي! إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك. وإن كنت تريد به ملكًا ملَّكْناك علينا، وإن كان بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا من الجن لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**أو قد فرغت يا أبا الوليد!**»

قال: نعم.

قال: «**فاسمع مني**».

قال: أفعل.

فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ○ حمٓ ○ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ○ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ○ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ○ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ

﴿إِنَّا عَـٰمِلُونَ﴾ [فصلت:١ـ٥].

ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، وهو يستمع منه، وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، فلما بلغ رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] وضع عتبة يده على فم رسول الله ﷺ وناشده الله والرحم مخافة أن يقع ذلك، وقال: حسبك.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة سجد، ثم قال: **«سمعت يا أبا الوليد؟»**

قال: سمعت.

قال: **«فأنت وذاك»**.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ماوراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي، إني سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، والله! ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يامعشر قريش! أطيعوني واجعلوها لي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه. فوالله! ليكوننَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله! يا أبا الوليد!

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

مساومات وتنازلات:

ولما فشل المشركون في هذا الإغراء والترغيب، فكروا في المساومة في الدين، فقالوا له ﷺ: نعرض عليك خصلة واحدة لك فيها صلاح.

قال: «وماهي»؟

قالوا: تعبد آلهتنا سنة. ونعبد إلهك سنة، فإن كنا على الحق أخذت منه حظًّا، وإن كنت على الحق أخذنا منه حظًّا، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر السورة، وأنزل: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] وأنزل أيضًا: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦].

وكان المشركون حريصين على حسم الخلاف، آملين مارجاه عتبة بن ربيعة، فأبدوا مزيدًا من التنازل، ومالوا إلى قبول ما يعرضه رسول الله ﷺ ولكن اشترطوا بعض التعديل والتبديل فيما أوحى إليه، فقالوا: ﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:١٥] فأمره الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥] ونبهه الله على عظم هذا، فقال وهو يذكر بعض ما دار في خلد النبي ﷺ من الخواطر حول ذلك: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

وبهذه المواقف الصارمة تبيَّن للمشركين أن النبي ﷺ قائم بالدعوة إلى الدين، وليس بتاجر حتى يقبل المساومة أو التنازل في الثمن، فأرادوا التأكد من ذلك عن طريق أخرى. فأرسلوا إلى يهود يسألونهم عن أمر النبي ﷺ، فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث، فإن أخبر فهو نبي مرسل، وإلا فهو متقوِّل، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؟ فإن لهم حديثًا عجبًا، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ماكان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهي ؟

فسألت عظماء قريش رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت سورة الكهف فيها قصة أولئك الفتية، وهم أصحاب الكهف، وقصة ذلك الرجل الطواف، وهو ذو القرنين.

ونزل في سورة الإسراء الرد على سؤالهم عن الروح، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وكان هذا الاختبار يكفي لاقتناع قريش بأن محمدًا ﷺ رسول حقًّا، لو أرادوا الحق، ولكن أبى الظالمون إلا كفورًا.

وكأنهم لما اتضحت لهم الحقائق، وتبيَّن لهم الحق، أبدوا بعض المرونة، فقد أبدوا استعدادهم لاستماع ما يقوله النبي ﷺ عليهم يستجيبون ويقبلون، ولكن اشترطوا أن يخصص لهم مجلس لا يحضره ضعفاء المسلمين - وهم العبيد والمساكين الذين سبقوا إلى الإسلام - وذلك لأن هؤلاء الكفار الذين طلبوا بذلك كانوا سادات مكة وأشرافها،

فأبوا، واستنكفوا أن يجلسوا مع هؤلاء المساكين الذين كانوا أصحاب الإيمان والتقوى.

وكأن النبي ﷺ رغب في استجابة مطلبهم هذا بعض الرغبة رجاء أن يؤمنوا به، فنهاه الله عن ذلك، وأنزل قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

الاستعجال بالعذاب:

ربما كان النبي ﷺ أوعد المشركين بعذاب الله إن استمروا على مخالفته - كما سبق - فلما أبطأ العذاب طفقوا يستعجلون به على سبيل السخرية والعناد، وتظاهروا بأن هذا الوعيد لم يؤثر فيهم، ولن يتحقق أبدًا، فأنزل الله في ذلك آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. ومنها قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤] ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ○ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ○ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧] وغير ذلك من الآيات.

وكان من جملة مجادلة المشركين أنهم كانوا يطالبون بالآيات من المعجزات وخوارق العادات عنادًا وتعجيزًا، فأنزل الله في ذلك ما بيّن به سنته، وقطع به حجتهم. وسنمر على شيء من ذلك في الفصول القادمة إن شاء الله.

تلكم هي المحاولات التي واجه بها المشركون رسالة محمد ﷺ ودعوته، وقد مارسوها كلها جنبًا إلى جنب متنقلين من طور إلى طور، ومن دور إلى دور. فمن شدة إلى لين، ومن لين إلى شدة، ومن جدال إلى مساومة، ومن مساومة إلى جدال، ومن هجوم إلى ترغيب، ومن ترغيب إلى هجوم، كانوا يثورون ثم يخورون، يجادلون ثم يجاملون، ينازلون ثم يتنازلون، يوعدون ثم يرغبون، كأنهم يتقدمون ويتأخرون، لا يقر لهم قرار، ولا يعجبهم الفرار. وكان غرضهم من كل ذلك كف دعوة الإسلام ولم شعث الكفر، لكنهم بعد بذل كل الجهود عادوا خائبين خاسرين، ولم يبق أمامهم إلا خيار واحد، وهو السيف، والسيف لا يزيد الفرقة إلا شدة، ولا يفضي إلا إلى تناحر لعله

يستأصل شأفتهم، فاحتاروا ماذا يفعلون.

أما أبو طالب فإنه لما واجه مطالبتهم بتسليم النبي ﷺ إليهم ليقتلوه، ثم رأى في تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله ـ مثل ما فعله أبو جهل، وعقبة بن أبي معيط، وعمر بن الخطاب ـ جمع بني هاشم وبني المطلب ودعاهم إلى القيام بحفظ النبي ﷺ ، فأجابوه إلى ذلك كلهم مسلمهم وكافرهم، وتعاقدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة. إلا أبا لهب، فإنه فارقهم، وكان مع قريش.

المقاطعة العامة وفرض الحصار :

زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل، ووجدوا بني هاشم وبني المطلب مصممين على حفظ النبي ﷺ والقيام دونه كائنًا ما كان، فاجتمعوا في خيف بني كنانة ليدرسوا الموقف الراهن، ويقضوا فيه، فاستشاروا ثم استشاروا حتى وصلوا إلى حل غاشم تحالفوا عليه، وهو أنهم لا يناكحون بني هاشم وبني المطلب، ولا يبايعونهم، ولا يجالسونهم، ولا يخالطونهم، ولا يدخلون في بيوتهم، ولا يكلِّمونهم، ولا يقبلون منهم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل.

تحالفوا على هذا القرار، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة، وكان الذي كتبها بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده أو بعض أصابعه.

وانحاز بعد ذلك بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب، سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ـ إلا أبا لهب ـ وقطعت عنهم الميرة والمادة، ومنع التجار من مبايعتهم، فجهد القوم حتى أكلوا أوراق الشجر، والجلود، وواصلوا الضر والفاقة، حتى سمعت أصوات النساء والصبيان يتضاغون جوعًا، ولم يكن يصل إليهم شيء إلاَّ سرًّا، فكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحًا إلى عمته خديجة ـ رضي الله عنها ـ أما هم فكانوا لا يخرجون من الشعب إلا في الأشهر الحرم، فكانوا يشترون من العير التي تأتي من الخارج، إلا أن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في الثمن حتى لا يستطيعوا الشراء.

وكان رسول الله ﷺ على رغم كل ذلك مستمرًا في دعوته إلى الله ولا سيما في أيام الحج حينما كانت القبائل العربية تفد إلى مكة من كل صوب.

نقض الصحيفة وفك الحصار:

وبعد نحو ثلاث سنوات قدر الله أن ينتهي هذا العدوان، فألقى في قلوب خمسة من أشراف قريش أن يقوموا بنقض الصحيفة وفك الحصار، وأرسل الأرضة، فأكلت كل ما في الصحيفة من القطيعة والجور، ولم تترك إلا ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فأما أشراف قريش الخمسة فأولهم: هشام بن عمرو بن الحارث من بني عامر بن لؤي، ذهب هذا الرجل إلى زهير بن أبي أمية المخزومي - وهو ابن عاتكة عمة النبي ﷺ - ثم إلى المطعم بن عدي، ثم إلى أبي البختري بن هشام ثم إلى زمعة بن الأسود. فذكر كل واحد منهم بالقرابة والرحم، ولامهم على قبول الجور، وحضهم على نقض الصحيفة، فاجتمعوا عند خطم الحجون، واتفقوا على خطة يقومون بها لنقض الصحيفة.

وصباحًا حين قامت أندية قريش في المسجد الحرام جاء زهير وعليه حلة، فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة! نحن نأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى، لا يبيعون ولا يبتاعون، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة.

فقال أبو جهل: كذبت، والله لا تشق.

فقال زمعة: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت.

فقال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به.

وقال المطعم بن عديٍّ: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها وصدقه أيضًا هشام بن عمرو.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، وتُشُووِرَ فيه بغير هذا المكان.

وكان أبو طالب جالسًا في ناحية المسجد، جاء ليخبرهم أن النبي ﷺ أخبره أن الله سلط على صحيفتهم الأرضة، فأكلت ما فيها من جور وقطيعة وظلم، ولم تترك إلا ذكر الله، وقال بعد ما أخبرهم بذلك: فإن كان كاذبًا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظُلْمِنا. قالوا: أنصفت.

وقام المطعم على إثر رده على أبي جهل، ليشق الصحيفة، فوجدها قد أكلتها الأرضة، إلا «باسمك اللهم» وما فيها من اسم الله، فكان ما أخبر به النبي ﷺ آية من

آيات الله رآها المشركون بأعينهم، لكنهم لم يزالوا مسترسلين في الغي.

أما الحصار فقد انتهى بعد ذلك، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب.

وفد قريش بين يدي أبي طالب :

عادت الأمور بعد فك الحصار إلى ما كانت عليه من قبل، ولكن ما هي إلاَّ أشهر حتى لحق أبا طالب المرض. وأخذ يشتد ويزداد، وكان قد جاوز الثمانين، فشعرت قريش أنه لا قيام له من هذا المرض، فاستشاروا فيما بينهم وقالوا: انطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ على ابن أخيه وليعطه منا، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون إليه شيء، فتعيرنا به العرب. يقولون: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه، فانطلقوا ودخلوا عليه وطلبوا منه أن يكفَّ هو رسول الله ﷺ عن آلهتهم، وهم يدعونه وإلٰهه. فدعاه أبو طالب، وعرض عليه ما قاله القوم. فقال رسول الله ﷺ: ياعم! إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية، ففزعوا، وقالوا: كلمة واحدة؟ نعم! وأبيك عشرًا. فما هي؟ قال: لا إله إلا الله، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

عـام الحـزن

وفاة أبي طالب :

أما مرض أبي طالب فلم يزل يشتد به حتى حضرته الوفاة. ودخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال رسول الله ﷺ: **«أي عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»** فقالا: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزالا يكلِّمانَه حتى قال آخر ما قال: على ملة عبدالمطلب.

فقال النبي ﷺ: **«لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك»** فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وكانت وفاته في شهر رجب أو رمضان سنة عشر من النبوة، وذلك بعد الخروج من الشعب بستة أشهر، وقد كان عضدًا وحرزًا لرسول الله ﷺ، وحصنًا احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقي على ملة الأجداد فلم يفلح كل الفلاح.

قال العباس للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: **«هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»**.

خديجة إلى رحمة الله :

ولم يندمل جرح رسول الله ﷺ على وفاة أبي طالب حتى توفيت أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ وذلك في رمضان من نفس السنة العاشرة، بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين، أو بثلاثة أيام فقط. وكانت وزير صدق لرسول الله ﷺ على الإسلام، آزرته على إبلاغ الرسالة، وآسته بنفسها ومالها، وقاسمته الأذى والهموم. قال ﷺ: **«آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرم ولد غيرها»**.

وورد في فضائلها أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى النبي ﷺ فقال: يارسول الله! هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب.

وكان النبي ﷺ يذكرها دائمًا، ويترحم عليها، وتأخذ به الرأفة والرقة لها كلما ذكرها، وكان يذبح الشاة فيبعث في أصدقائها. لها مناقب جمة وفضائل كثيرة.

تراكم الأحزان:

واشتد البلاء على رسول الله ﷺ من قومه بعد موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقد تجرؤوا عليه، وكاشفوه بالأذى، وطفق النبي ﷺ يتأثر بشدة بكل ما يحدث، ولو كان أصغر وأهون مما سبق. حتى إن سفيهًا من سفهاء قريش نثر التراب على رأسه، فجعلت إحدى بناته تغسله وتبكي، وهو يقول لها: «**لا تبكي يابنية! فإن الله مانع أباك**»، ويقول بين ذلك: «**ما نالت قريش مني شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب**».

زواجه ﷺ بسودة ثم بعائشة - رضي الله عنهما -:

وفي شوال - بعد الشهر الذي توفيت فيه خديجة - تزوج رسول الله ﷺ بسودة بنت زمعة ـ رضي الله عنها ـ وكانت تحت ابن عمها: السكران بن عمرو - رضي الله عنه - وكانا من السابقين الأولين إلى الإسلام. وقد هاجرا إلى الحبشة، ثم رجعا إلى مكة، فتوفي بها السكران بن عمرو، فلما حلت تزوجها النبي ﷺ، وبعد أعوام وهبت نوبتها لعائشة.

أما زواجه بعائشة ـ رضي الله عنها - فكان أيضًا في شهر شوال ولكن بعد سودة بسنة، تزوجها بمكة وهي بنت ست سنين، ودخل بها في المدينة في شهر شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين، وكانت أحب أزواجه ﷺ إليه، وأفقه نساء الأمة، لها مناقب جمة وفضائل وافرة.

الرسول ﷺ في الطائف

وفي هذه الظروف قصد رسول الله ﷺ الطائف رجاء أن يستجيبوا لدعوته، أو يؤوه وينصروه، فخرج إليها ماشيًا على قدميه، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام حتى بلغ الطائف، ونزل على ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، فدعاهم إلى الإسلام وإلى نصرته ﷺ على تبليغه، فلم يستجيبوا له، بل ردوا عليه أسوأ رد، فتركهم وقصد الآخرين، ودعاهم إلى قبول الإسلام ونصرته، ولم يزل ينتقل من رئيس إلى رئيس، فلم يترك أحدًا من أشرافهم إلا وكلّمه، وقضى في ذلك عشرة أيام، لكن لم يجب له أحد، بل قالوا له: اخرج من بلدنا، وأغروا به صبيانهم وسفهاءهم وعبيدهم، فلما تهيّأ وخرج وقفوا له في صفين، وأخذوا يسبُّونه، ويشتمونه، ويرمونه بالحجارة، حتى أدموا عقبيه وقدميه ﷺ، وحتى اختضب نعلاه بالدم. وكان زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ يقيه بنفسه، ويدافع عنه، فأصابه شجاج في رأسه، واستمرت هذه السفاهة حتى وصل رسول الله ﷺ إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة على بعد ثلاثة أميال من الطائف، فدخل فيه، فلما دخل فيه انصرفوا عنه.

وجلس النبي ﷺ في الحائط تحت ظل حبلة من عنب، معتمدًا إلى جدار، وقد أثّر في نفسه مالاقاه، فدعا بالدعاء المشهور:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

ورآه ابنا ربيعة في هذا الحال فأخذتهما رقة، وأرسلا إليه بقطف من عنب مع مولى لهما نصراني اسمه عداس: فلما مد النبي ﷺ يده ليتناوله قال: **«بسم الله»** ثم أكل. فقال

عداس: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

فقال له النبي ﷺ: «**من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟**»

فقال: نصراني، من أهل نينوى.

فقال: «**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟**».

فقال: وما يدريك ما يونس بن متى؟

فقال له النبي ﷺ: «**ذاك أخي كان نبيًّا وأنا نبي**» وقرأ عليه قصة يونس - عليه السلام - من القرآن، فأسلم عداس على ما يقال.

ثم خرج رسول الله ﷺ من الحائط، وتقدم في طريقه إلى مكة، وهو كثيب حزين مهموم، حتى إذا بلغ قرن المنازل، أظلته سحابة فيها جبريل، ومعه ملك الجبال، فرفع ﷺ رأسه، فناداه جبريل، وقال: إن الله بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت. ثم سلَّم ملك الجبال وقال: يامحمد! ذلك، فما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ـ وهما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله ـ فقال ﷺ : «**بل أرجو أن يُخرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا**».

وأفاق رسول الله ﷺ من همه بمجيء هذا النصر، وتقدَّم في طريقه إلى مكة حتى نزل بنخلة، وأقام بها أيامًا، وأثناء إقامته بها صرف الله إليه نفرًا من الجن يستمعون القرآن، وهو قائم يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين، وقد آمنوا به، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزل بذلك القرآن: آيات من سورة الأحقاف، وآيات من سورة الجن.

وبعد أيام خرج رسول الله ﷺ من نخلة يريد مكة، وهو يرجو من الله الفرج والمخرج، ويخشى من قريش الشر والبطش، فأحب أن يحتاط لنفسه، فلما دنا من مكة مكث بحراء، وبعث رجلاً إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فاعتذر بأنه حليف، والحليف لا يجير، فأرسل إلى سهيل بن عمرو، فاعتذر بأنه من بني عامر بن لؤي، وهم لا يجيرون على بني كعب بن لؤي، فأرسل إلى المطعم بن عديٍّ، وهو من بني نوفل بن عبد مناف أخي هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ ، وعبد مناف أعز بطن في قريش، فقال المطعم: نعم. وتسلح هو وبنوه، ثم أرسل إلى رسول الله ﷺ ، فجاء ودخل المسجد

الحرام، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، ثم انصرف إلى بيته، والمطعم بن عدي وأولاده محدقون برسول الله ﷺ بالسلاح، وكان المطعم قد أعلن في قريش أنه أجار محمدًا، فقبلوا ذلك منه.

جدال المشركين وطلبهم الآيات

وكان من جملة جدال المشركين أنهم كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ الآيات تعجيزًا وعنادًا، وقد تكرر ذلك منهم مرارًا في أوقات مختلفة، فمن ذلك أنهم اجتمعوا مرة في المسجد الحرام، واستشاروا بينهم، ثم أرسلوا إلى النبي ﷺ أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلِّموك.

وحيث إن النبي ﷺ كان حريصًا على رشدهم غاية الحرص كما قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] فقد جاءهم سريعًا يرجو إسلامهم، فقالوا: إنك تخبرنا أن الرسل كانت لهم آيات، كانت لموسى عصا، ولثمود الناقة، وكان عيسى يحيي الموتى، فأتنا بآية كما أُرسِلَ الأولون.

وكانوا يظنون أن من خواص الرسل أنهم يقدرون على إحداث مثل هذه الخوارق والمعجزات متى شاؤوا، كما يقدر عامة الناس على أعمالهم الطبيعية.

فاقترحوا عليه ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، أو يسير عنهم الجبال، ويبسط لهم البلاد، ويجري فيها الأنهار، أو يبعث من مضى من آبائهم حتى يشهدوا بأنه رسول: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وقد أبدوا رغبتهم في الإسلام إذا أتى النبي ﷺ بما اقترحوه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام:١٠٩] فدعا الله أن يريهم ما طلبوه، ورجا إسلامهم، فجاء جبريل وخيَّره بين أن يريهم الله ما طلبوه، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، وبين أن يفتح لهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل باب التوبة والرحمة، فلما اختار النبي ﷺ هذا أنزل الله عليه جواب مقترحات المشركين فقال له: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

والمعنى قل: لست أقدر على إحداث هذه الخوارق والإتيان بالمعجزات، لأن القدرة على ذلك أمر يختص بالله سبحانه وتعالى، وهو منزه من أن يكون له شريك في قدرته، وإنما أنا بشر، كما أنكم بشر، فلست أقدر عليه كما أنكم لا تقدرون عليه، وإنما الذي امتزت به فيما بينكم هو أنني رسول، يُوحَى إلي، وأنتم لستم برسل، وليس يوحى إليكم، الذي طلبتموه من الآيات ليس في يدي ولا تحت تصرفي، وإنما هو إلى الله عز وجل إن شاء أظهرها لكم، ويؤيدني بها عليكم، وإن شاء أخَّرها عنكم، وفي ذلك مصلحتكم.

وقد أكَّد الله هذا المعنى في سورة الأنعام فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩] أي إن الأنبياء والرسل ليسوا بالذين يأتون بالخوارق والمعجزات، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي يأتي بها، وهو إنما يظهرها على أيدي الأنبياء والمرسلين تكريمًا لهم، وتأييدًا وإثباتًا لنبوتهم ورسالتهم.

ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى أنه لو أراهم وأظهر لهم ما طلبوه من الآيات لا يؤمنون به. مع كونهم قد أقسموا بالله جهد أيمانهم ليؤمنن به فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١].

وفي ثنايا مثل هذه الآيات أشار الله تعالى إلى سنة من سننه، وهي أن القوم إذا طلبوا آية معينة، ثم لم يؤمنوا بها إذا جاءتهم، فإنهم يهلكون ولا يمهلون، وسنة الله لا تتغير ولا تتبدل، وقد علم الله أن معظم قريش يؤمنون فيما بعد، فلذلك لم يأت لهم بما اقترحوه من الآيات الخاصة التي مضى ذكرها قريبًا.

شـق القمر:

وكأن قريشًا لما رأوا أن رسول الله ﷺ لم يجبهم إلى ما اقترحوه من الآيات الخاصة ظنوا أن طلب الآيات أحسن وسيلة لتعجيزه وإسكاته، ولإقناع عامة الناس بأنه متقوِّل، وليس برسول، فتقدموا خطوة أخرى، وقرروا أن يطلبوا منه آية بغير تعيين،

ليتبين للناس عجزه، فلا يؤمنوا به، فجاؤوا إليه، وقالوا له: هل من آية نعرف بها أنك رسول الله ؟

فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يريهم آية، فأراهم القمر قد انشق فرقتين: فرقة فوق الجبل - أي جبل أبي قبيس - وفرقة دونه، حتى رأوا حراء بينهما، فقال رسول الله ﷺ: **«اشهدوا»**.

ورأت قريش هذه الآية جهارًا بوضوح، ولوقت طويل، فسقط في أيديهم وبهتوا، لكنهم لم يؤمنوا، بل قالوا: هذا سحر ابن أبي كبشة، لقد سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان قد سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فانتظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فجاء السفار فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأيناه، ولكن قريشًا مع ذلك أصروا على كفرهم واتبعوا أهواءهم..

وكأن انشقاق القمر كان كالتمهيد لما هو أكبر وأهم حدثًا من ذلك، وهو الإسراء والمعراج، فإن رؤية القمر هكذا منشقًّا بعين اليقين تُسهِّل على الذِّهن قبول إمكان الإسراء والمعراج. والله أعلم.

الإسـراء والمعـراج

المراد بالإسراء توجه النبي ﷺ ليلًا من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، والمراد بالمعراج صعوده ﷺ إلى العالم العلوي، وكان ذلك بجسده الشريف وروحه الأطهر.

والإسراء مذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

أما المعراج فقيل: هو مذكور في سورة النجم من آياتها السابعة إلى الثامنة عشرة، وقيل: المذكور في هذه الآيات غير المعراج.

واختلف في وقت الإسراء والمعراج، فقيل: في السنة التي بعث فيها النبي ﷺ وقيل: سنة خمس من النبوة، وقيل: في ٢٧ رجب سنة عشرة من النبوة، وقيل: في ١٧ رمضان سنة اثنتي عشرة من النبوة، وقيل: في المحرم، وقيل: في ١٧ ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة.

أما تفصيل القصة فملخص الروايات الصحيحة: أن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء بالبراق ـ وهو دابة فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه - والنبي ﷺ بالمسجد الحرام، فركبه حتى أتى بيت المقدس ومعه جبريل، فربطه بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخل المسجد، فصلى فيه ركعتين أمَّ فيهما الأنبياء، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاختار اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة، هديتَ وهديت أمتك. أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل، ففتح له فرأى هنالك آدم أبا البشر فسلم عليه، فرد عليه السلام، ورحب به، وأقر بنبوته، وعن يمينه أسودة إذا نظر إليهم ضحك - وهي أرواح السعداء - وعن يساره أسودة إذا نظر إليهم بكى - وهي أرواح الأشقياء -.

ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له جبريل ففتح فرأى فيها ابني الخالة يحيى

ابن زكريا، وعيسى ابن مريم - عليهما السلام - فسلَّم عليهما، فردا عليه ورحبا به وأقرا بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة فرأى فيها يوسف - عليه السلام - وكان قد أعطي شطر الحسن فسلم عليه فرد عليه ورحب به وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس - عليه السلام - فسلم عليه، فرد عليه ورحب به وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران - عليه السلام - فسلم عليه فرد عليه ورحب به وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقي فيها موسى بن عمران - عليه السلام - فسلم عليه فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلامًا بُعِثَ من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي.

ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقي فيها إبراهيم - عليه السلام - فسلَّم عليه فرد عليه ورحب به وأقر بنبوته، وكان مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وهو بيت يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم رُفِعَ إلى سدرة المنتهى، فإذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال - أي الجرار الكبيرة - ثم غشيها فراش من ذهب، وغشيها من أمر الله ما غشيها، فتغيَّرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.

ثم عُرِجَ به إلى الجبار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فرجع حتى مر على موسى فقال: بم أمرك ربك؟ قال: بخمسين صلاة قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فالتفت إلى جبريل فأشار أن نعم إن شئت، فرجع فوضع عنه عشرًا ثم مر بموسى فسأله فأخبره، فأشار عليه بسؤال التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل حتى جعلها خمسًا ثم مر بموسى فأشار بالرجوع وسؤال التخفيف وقال: والله لقد راودت بني إسرائيل على أدنى من هذا فضعفوا عنه وتركوه فقال ﷺ: «قد استحييت من ربي، ولكني أرضى وأسلم» فلما بَعُدَ نُودِيَ أن قد

أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، هي خمس وهن خمسون، لا يبدل القول لدي، ثم رجع - عليه السلام - من ليلته إلى مكة المكرمة، فلما أصبح في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهم عليه، فمنهم من صفق، ومنهم من وضع يده على رأسه تعجبًا وإنكارًا وسعى رجال إلى أبي بكر الصديق، وأخبروه الخبر فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق. قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك، أصدقه على خبر السماء في غدوة أو روحة فسمي «الصديق».

وقام الكفَّار يمتحنونه، فسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، ولم يكن رآه قبل ذلك. فجلَّاه الله له حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، يصفه لهم بابًا بابًا وموضعًا موضعًا، فلم يستطيعوا أن يردوا عليه، بل قالوا: أما النعت فوالله لقد أصاب.

وسألوه عن عير لهم قادمة من الشام، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ووقت قدومها، وعن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال. ولكن أبى الظالمون إلا كفورًا.

وصبيحة يوم الإسراء جاء جبريل وعلَّمَ رسول الله ﷺ كيفية الصلوات الخمس وأوقاتها، وكانت الصلاة قبل ذلك ركعتين في الصباح، وركعتين في المساء.

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

كان من دأب رسول الله ﷺ منذ أمره الله بالجهر بالدعوة أنه كان يخرج في موسم الحج وأيام أسواق العرب إلى منازل القبائل، فيدعوهم إلى الإسلام.

وأشهر أسواق العرب في الجاهلية وأقربها إلى مكة ثلاثة: عُكاظ ومجنة وذو المجاز، وعُكاظ قرية بين نخلة والطائف، كانوا يقيمون بها السوق من أول شهر ذي القعدة إلى عشرين منه، ثم ينتقلون منها إلى مجنة، فيقيمون بها السوق إلى نهاية شهر ذي القعدة، وهي موضع في وادي مر الظهران أسفل مكة، وأما ذو المجاز فهو خلف جبل عرفة - أي: خلف جبل الرحمة - وكانوا يقيمون هناك السوق من أول ذي الحجة إلى الثامن منه، ثم يتفرغون لأداء مناسك الحج.

وممن أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، وعرض عليهم نفسه ليؤوه وينصروه: بنو عامر بن صعصعة، وبنو محارب بن خصفة، وبنو فزارة، وغسان، ومرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، فلم يستجب له منهم أحد، ولكنهم اختلفوا في أساليب ردودهم، فمنهم من ردَّ عليه ردًّا جميلًا، ومنهم من اشترط لنفسه أن تكون له الرئاسة بعده، ومنهم من قال: أسرتك وعشيرتك أعلم بك، حيث لم يتبعوك، ومنهم من رد عليه ردًّا قبيحًا، وكان بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب أقبحهم ردًّا.

المؤمنون من غير أهل مكة:

وقدَّر الله أن يؤمن رجال من غير أهل مكة في الزمن الذي كانت الدعوة تمر فيه بأصعب مراحلها في مكة، فكانوا كجذوة أمل أضاءت في ظلام اليأس فمنهم:

١- سويد بن الصامت: كان شاعرًا لبيبًا، من سكان يثرب، يسمى بالكامل، لشرفه وشعره. أتى مكة حاجًّا أو معتمرًا. فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فعرض هو على رسول الله ﷺ حكمة لقمان، فعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فأسلم، وقال: إن هذا قول حسن، قُتِلَ في وقعة بين الأوس والخزرج قبل يوم بعاث.

٢ـ إياس بن معاذ: كان غلامًا حدثًا من سكان يثرب، قدم مكة في أوائل سنة ١١ من النبوة، في وفد من الأوس كانوا يلتمسون الحلف من قريش على الخزرج، فجاءهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس: هذا والله! خير مما جئتم له، فرمى أبو الحيسر ـ أحد أعضاء الوفد ـ تراب البطحاء في وجه إياس، وقال: دعنا عنك، لقد جئنا لغير هذا، فسكت، ولم يلبث بعد رجوعهم إلى يثرب أن هلك، وكان يُهلّل ويكبر ويحمد ويسبح عند موته، ولا يشك قومه أنه مات مسلمًا.

٣ـ أبو ذر الغفاري: بلغ إليه خبر مبعث النبي ﷺ بسبب إسلام سويد بن الصامت وإياس بن معاذ، فأرسل أخاه إلى مكة ليأتي بالخبر، فذهب ورجع، ولم يشفه، فخرج بنفسه حتى نزل بمكة في المسجد الحرام، وبقي فيه نحو شهر، يشرب ماء زمزم، وهو طعامه وشرابه، ولا يسأل عن النبي ﷺ أحدًا خوفًا على نفسه، ثم استتبعه علي - رضي الله عنه - حتى دخل به على النبي ﷺ ، فطلب منه أبو ذر أن يعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم مكانه، ثم جاء إلى المسجد الحرام وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فانقض عليه قريش، وضربوه ليموت، فأنقذه العباس، فلما أصبح الغد قال مثل ما قال بالأمس، وضربوه مثل ما ضربوه بالأمس، وأنقذه العباس كما أنقذه بالأمس.

ورجع أبو ذر إلى مساكن قومه بني غفار، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليها.

٤ـ طفيل بن عمرو الدوسي: كان شاعرًا لبيبًا، رئيس قبيلته دوس، في ناحية اليمن. قدم مكة سنة ١١ من النبوة، فاستقبله أهل مكة. وحذروه من النبي ﷺ حتى حشا أذنه الكرسف حين جاء إلى المسجد الحرام، كي لا يسمع منه ﷺ شيئًا، وكان ﷺ قائمًا يصلي عند الكعبة، فوقع في أذنه منه شيء، فاستحسنه، فقال في نفسه: إني لبيب وشاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل مايقول، فإن كان حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته.

فلما انصرف النبي ﷺ إلى بيته تبعه حتى دخل بيته، وذكر قصته، وطلب منه ﷺ أن يعرض عليه أمره، فعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن فأسلم وشهد شهادة الحق،

وقال: إني مطاع في قومي، وراجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية، فدعا له، فلما قرب من قومه استنار وجهه كالمصباح، فدعا الله أن يجعله في غير وجهه، فتحول النور إلى سوطه. فلما دخل على قومه دعاهم إلى الإسلام، فأسلم أبوه وزوجته، وأبطأ القوم، ولكنه لما هاجر إلى المدينة بعد الحديبية كان معه سبعون أو ثمانون بيتًا من قومه.

٥ـ **ضماد الأزدي**: من أزد شنوءة من اليمن، كان يرقي من الجنون والجن والشياطين، فجاء مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمدًا مجنون، فجاء ليرقيه، فقال النبي ﷺ: إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فاستعاد ضماد هذه الكلمات ثلاث مرات، ثم قال: سمعت قول الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، لقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه.

الإسلام في المدينة:

٦- ستة سعداء من أهل يثرب كلهم من الخزرج وهم:

أسعد بن زرارة

عوف بن الحارث بن رفاعة (عوف بن عفراء).

رافع بن مالك بن العجلان.

قطبة بن عامر بن حديدة.

عقبة بن عامر بن نابي.

جابر بن عبدالله بن رئاب.

جاء هؤلاء للحج في جملة من جاء سنة ١١ من النبوة، وكان أهل يثرب يسمعون من اليهود حينما ينالون منهم في الحرب ونحوها: أن نبيًا سيبعث الآن، قد أظل زمان بعثته، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كانوا بعقبة منى مر بهم رسول الله ﷺ ليلاً، وهم يتكلمون، فلما سمع الصوت عمدهم حتى لحقهم، وقال: من أنتم؟ قالوا: نفر من

الخزرج. قال: موالي اليهود؟ - أي حلفاؤهم - قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلِّمكم؟ قالوا: بلى! فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام، وتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله، إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ووعدوه القيام بالدعوة إلى دينه، والمقابلة في الحج القادم.

بيعة العقبة الأولى

فلما كان حج العام المقبل ـ سنة (١٢) من النبوة ـ قدم اثنا عشر رجلًا، منهم عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس، فأما العشرة من الخزرج فخمسة منهم هم الذين جاؤوا في العام الماضي غير جابر بن عبدالله بن رئاب وخمسة آخرون هم:

معاذ بن الحارث (معاذ ابن عفراء).

ذكوان بن عبد القيس.

عبادة بن الصامت.

يزيد بن ثعلبة.

العباس بن عبادة بن نضلة.

وأما الاثنان من الأوس فهما:

أبو الهيثم بن التيهان.

عويم بن ساعدة.

اجتمع هؤلاء برسول الله ﷺ بعقبة منى، فعلَّمهم الإسلام، وقال لهم: تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا، فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا، فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، فبايعوه على ذلك.

دعوة الإسلام في يثرب:

فلما رجعوا إلى يثرب بعث معهم مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ ليقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين، ونزل مصعب بن عمير على أبي أمامة أسعد بن زرارة، ونشطا في نشر الإسلام، وبينما هما في بستان إذ قال رئيس الأوس سعد بن معاذ لابن عمه أسيد ابن حضير: ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا

فتزجرهما، فأخذ أسيد حربته، وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه، قد جاءك فاصدق الله فيه.

وجاء أسيد فوقف عليهما وقال: ماجاء بكما إلينا؟ تُسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكرهه، فقال: أنصفت، وركز حربته وجلس، فكلَّمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن، فاستحسن أسيد دين الإسلام واعتنقه، وشهد شهادة الحق.

ثم رجع أسيد، واحتال ليرسل إليهما سعد بن معاذ، فقال له: كلَّمتُ الرجلين فوالله! ما رأيت بهما بأسًا. وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، ثم قال: وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، لأنه ابن خالتك، فيريدون أن يخفروك.

فغضب سعد، وقام إليهما متغيظًا، ففعل معه مصعب مثل ما فعل مع أسيد، فهداه الله للإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، ثم رجع إلى قومه، فقال: يابني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، إلا رجل واحد اسمه الأصيرم، تأخَّر إسلامه إلى يوم أحد، ثم أسلم وقُتِلَ شهيدًا في سبيل الله قبل أن يسجد لله سجدة.

وعاد مصعب بن عمير إلى مكة قبل حلول موعد الحج يحمل بشائر مثل هذا الفوز.

بيعة العقبة الثانية

وفي موسم الحج سنة (١٣) من النبوة قدم كثير من أهل يثرب من المسلمين والمشركين، وقد قرر المسلمون أن لا يتركوا رسول الله ﷺ بمكة يطوف في جبالها، ويطرد ويخاف، فاتصلوا به سرًا، واتفقوا على عقد اجتماع سري في أوسط أيام التشريق ليلًا في الشعب عند جمرة العقبة.

فلما جاء الموعد ناموا في رحالهم مع قومهم، حتى إذا مضى ثلث الليل الأول أخذوا يتسللون، فيخرج الرجل والرجلان حتى اجتمعوا عند العقبة، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً، اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومعهم امرأتان: نسيبة بنت كعب من بني النجار، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة، وجاءهم رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب. كان على دين قومه، ولكن أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له.

وكان العباس أول من تكلَّم، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ لا يزال في عزٍّ من قومه، ومنعة في بلده، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإلا فمن الآن فدعوه.

فأجاب المتكلم عنهم ـ وهو البراء بن معرور ـ وقال: نريد الوفاء والصدق، وبذل الأرواح دون رسول الله ﷺ ، فتكلَّم يارسول الله! فخذ لنفسك، ولربك ما أحببت.

فتكلَّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله، ورغَّبَ في الإسلام، واشترط لربه:

١- أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئًا.

واشترط لنفسه ولربه أيضًا أنهم قالوا له: عَلَامَ نبايعك؟ فقال:

٢- على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

٣- وعلى النفقة في العسر واليسر.

٤- وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥- وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم.

٦- وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة.

٧- وفي رواية عن عبادة: (بايعناه) على أن لا ننازع الأمر أهله.

فأخذ بيده ﷺ البراء بن معرور وقال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع عنه أزرنا. فبايعنا، فنحن والله! أبناء الحرب وأهل الحلقة - أي السلاح - ورثناها كابرًا عن كابر..

فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان قائلاً: يارسول الله! إن بيننا وبين الرجال حبالًا ـ أي عهودًا وروابط ـ وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

وفي هذه اللحظة الحاسمة تقدم العباس بن عبادة بن نضلة وقال: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلًا أسلمتموه فمن الآن، فإنه خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له على نهكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يارسول الله؟

قال: الجنة.

قالوا: ابسط يدك.

فبسط يده. فقاموا ليبايعوه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة، وقال: رويدًا يا أهل يثرب! إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله.

قالوا: يا أسعد! أمط عنا يدك، فو الله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها، فقاموا إليه

رجلًا رجلًا وبايعوه. وكان أسعد بن زرارة هو أول المبايعين على أرجح الأقوال. وقيل: بل أبو الهيثم بن التيهان، وقيل: بل البراء بن معرور، أما بيعة المرأتين فكانت قولًا بدون مصافحة.

اثنا عشر نقيبا :

وبعد البيعة طلب منهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا اثني عشر نقيبًا يكونون عليهم. ويكفلون المسئولية عنهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس. أما من الخزرج فهم:

١- سعد بن عبادة بن دليم.

٢- أسعد بن زرارة بن عدس.

٣- سعد بن الربيع بن عمرو.

٤- عبدالله بن رواحة بن ثعلبة.

٥- رافع بن مالك بن العجلان.

٦- البراء بن معرور بن صخر.

٧- عبدالله بن عمرو بن حرام.

٨- عبادة بن الصامت بن قيس.

٩- المنذر بن عمرو بن خنيس.

* وأما من الأوس فهم:

١٠- أسيد بن حضير بن سماك.

١١- سعد بن خيثمة بن الحارث.

١٢- رفاعة بن عبدالمنذر بن زبير - وقيل: أبو الهيثم بن التيهان.

فلما تم اختيارهم قال لهم رسول الله ﷺ: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي، قالوا: نعم.

هذه هي بيعة العقبة الثانية، وكانت حقًا أعظم بيعة وأهمها في حياة الرسول ﷺ، تغير بها مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ.

ولما تمت البيعة وكاد الناس ينفضون اكتشفها أحد الشياطين، وصاح بأنفذ صوت

سمع قط، يا أهل الأخاشب - المنازل - هل لكم في محمد، والصباة معه. قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله ﷺ أما والله يا عدو الله لأتفرغنَّ لك، وأمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم فرجعوا وناموا حتى أصبحوا.

وصباحًا جاءت قريش إلى خيام أهل يثرب، ليقدموا الاحتجاج إليهم، فقال المشركون: هذا خبر باطل، ما كان من شيء، وسكت المسلمون، فصدقت قريش المشركين ورجعوا خائبين.

وأخيرًا تأكد لدى قريش أن الخبر صحيح، فأسرع فرسانهم في طلب أهل يثرب، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو عند أذاخر، فأما المنذر فأعجز القوم هربًا، وأما سعد فأخذوه وربطوه وضربوه وجروا شعره حتى أدخلوه مكة، فخلصه المطعم بن عديٍّ والحارث بن حرب. إذ كان يجير لهما قوافلهما بالمدينة، وأراد الأنصار أن يكروا إلى مكة إذ طلع عليهم سعد قادمًا، فرحلوا إلى المدينة سالمين.

هجرة المسلمين إلى المدينة

بعد هذه البيعة - بيعة العقبة الثانية - بدأت هجرة عامة المسلمين إلى المدينة، بينما كان بعض الصحابة قد هاجر قبلها، وقد أُرِيَ رسول الله ﷺ دار هجرة المسلمين وأخبرهم بها، قال: «**رأيت أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي - أي ظني - إلى اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب**» وفي رواية: «**أُرِيتُ دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرتين، فإما أن يكون هجر أو يثرب**».

وأول من هاجر أبو سلمة المخزومي زوج أم سلمة، خرج مع زوجته وابنه، فمنعها قومها منه، وانتزع آل أبي سلمة ولده منها، فانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، وذلك قبل بيعة العقبة بنحو سنة، ثم أطلقوا زوجته بعد نحو سنة فلحقت به.

وهاجر بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة، وزوجته ليلى بنت أبي حثمة، وعبدالله ابن أم مكتوم، فلما تمت البيعة تتابع المسلمون في الهجرة، وكانوا يتسللون خفية، خشية قريش، حتى هاجر عمر بن الخطاب، فخرج علنًا، وتحدَّى قريشًا، فلم يجترىء أحد على الوقوف في وجهه، وقدم المدينة في عشرين من الصحابة.

وهاجر المسلمون كلهم إلى المدينة، ورجع إليها عامة من كان بأرض الحبشة، ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر، وعلي وصهيب وزيد بن حارثة، وقليل من المستضعفين الذين لم يقدروا على الهجرة، وتجهز أبو بكر للهجرة، فقال رسول الله ﷺ : على رَسْلِك، فإني أرجو أن يؤذن لي، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه عليه ليصحبه، وعلف راحلتين - كانتا عنده - ورق السمر، استعدادًا لذلك.

قريش في دار الندوة وقرارهم بقتل النبي ﷺ

وجن جنون قريش لما رأوا أن المسلمين وجدوا دار حفظ ومنعة، ورأوا في هجرتهم واجتماعهم بالمدينة خطرًا على دينهم وكيانهم وتجارتهم، فاجتمعوا في دار الندوة صباح يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة (١٤) من النبوة، ليدرسوا خطة تفيد التخلص من هذا الخطر. خاصة وأن صاحب الدعوة ﷺ لا يزال في مكة، ويُخْشَى أن يخرج منها في عشية أو ضحاها، وقد حضر الاجتماع وجوه بارزة من سادات قريش. وحضره أيضًا إبليس في صورة شيخ جليل من أهل نجد بعد أن استأذنهم.

وطرحت القضية على المجتمعين، فقال أبو الأسود نخرجه من أرضنا، ونصلح أمرنا، ولا نبالي أين ذهب.

فقال الشيخ النجدي: إنكم ترون حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال، فإذا خرج فلا غرو أن يحل على حي من العرب فتجتمع حوله الجموع فيطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد. أروا فيه رأيًا غير هذا.

قال أبو البختري: احبسوه وأغلقوا عليه الباب، حتى يدركه ما أدركه الشعراء قبله من الموت.

قال الشيخ النجدي: والله لئن حبستموه ليخرجنَّ أمره إلى أصحابه، وهم يفضلونه على الآباء والأبناء، فأوشكوا أن يثبوا عليكم، وينزعوه منكم، ثم يكاثروكم به، حتى يغلبوا على أمركم، فانظروا في غير هذا الرأي.

قال الطاغية أبو جهل: إن لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد. نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ونعطي كلًّا منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه ويضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم، فيرضون بالدية فنعطيها لهم.

قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل: هذا الرأي لا أرى غيره.

وأقره المجتمعون هذا الرأي، وانفضوا، وأخذوا يستعدون ويرتبون أنفسهم لتنفيذ هذا القرار.

بين تدبير قريش وتدبير الله سبحانه وتعالى

ومن طبيعة مثل هذا الاجتماع السرية للغاية، وأن لا يبدو على السطح الظاهر أي حركة تخالف اليوميات، وتغاير العادات المستمرة، حتى لا يشم أحد رائحة التآمر والخطر، ولا يدور في خلد أحد أن هناك غموضًا ينبيء عن الشر، وكان هذا مكرًا من قريش، ولكنهم ماكروا بذلك الله سبحانه وتعالى، فخيبهم من حيث لا يشعرون، فقد نزل جبريل وأخبر النبي ﷺ بمؤامرة قريش، وأذن له في الهجرة، وحدد له وقت الخروج، وبيّن له خطة الرد على مكر قريش فقال: «لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه».

وخرج رسول الله ﷺ في نحر الظهيرة ـ حين يستريح الناس في بيوتهم ـ إلى بيت أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وأبرم معه أمور الهجرة، فجهزا الراحلتين أحث الجهاز، واستأجرا عبدالله بن أريقط الليثي ـ وكان على دين قريش ـ ليكون دليلًا لهما في الطريق، وكان هاديًا ماهرًا بالطرق، وواعداه جبل ثور بعد ثلاث ليال، ثم استمر رسول الله ﷺ في أعماله اليومية حسب المعتاد، حتى لم يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة أو لأي أمر آخر اتقاءً مما قررته قريش.

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام في أوائل الليل بعد صلاة العشاء، ويخرج في النصف الأخير من الليل إلى المسجد الحرام، يصلي فيه صلاة التهجد ـ قيام الليل ـ فأضجع عليًا ـ رضي الله عنه ـ على فراشه تلك الليلة، وأخبره بأنه لا يصيبه مكروه، فلما نام عامة الناس، وهدأ الليل جاء المتآمرون سرًّا إلى بيت رسول الله ﷺ وطوّقوه، ورأوا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ نائمًا على فراشه ﷺ متسجيًا ببرده الحضرمي الأخضر، فظنوه محمدًا ﷺ فأخذوا يختالون زهوًا، ويرصدونه حتى إذا قام وخرج يثبوا عليه.

وكان هذا جواب مكرهم من الله سبحانه وتعالى، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

هجرة النبي ﷺ

خروجه ﷺ من البيت :

وخرج رسول الله ﷺ من بيته وهم مطوقون به، فذر تراب البطحاء على رؤوسهم، وهو يتلو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩]. فأخذ الله بأبصارهم فلم يشعروا به ﷺ ، ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر، ومن خوخة في داره خرجا حتى لحقا بغار ثور قبل بزوغ الفجر، على بعد نحو خمسة أميال في اتجاه اليمن.

ثلاث ليال في الغار :

ولما انتهيا إلى الغار دخله أبو بكر أولًا حتى إذا كان فيه شيء يصيبه هو دون رسول الله ﷺ فكسحه، ووجد فيه ثقوبًا فسدها بشق إزاره، وبقي جحر أو جحران ألقمهما رجليه، ثم دخل رسول الله ﷺ ، فنام في حجره، ولُدِغَ أبو بكر في رجله، ولكنه لم يتحرك لمكان رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجهه ﷺ، فاستيقظ وسأل فقال: لُدِغْتُ، فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ فذهب الألم.

وكمنا في الغار ثلاث ليال، وكان عبدالله بن أبي بكر يبيت عندهما، وكان شابًا فطنًا ذكيًا، فيخرج من عندهما حتى يصبح في قريش كأنه بات بمكة، وكان يسمع مكائد قريش وأخبارهم فكان يأتيهما بها حين يختلط الظلام.

وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى الغنم، فكان يأتيهما بها حين تذهب ساعة من الليل. فيبيتان في لبنها، ثم ينعق بها في غلس، ويتبع بها أثر عبدالله بن أبي بكر ليعفي عليه.

أما قريش فبقيت فتيانها منتظرين قيام رسول الله ﷺ وخروجه حتى أصبحوا، فلما أصبحوا قام علي من فراش رسول الله ﷺ، فسقط في أيديهم، وسألوه عن رسول الله ﷺ فقال: لا علم لي به، فضربوه وسحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة، ولكن بدون

جدوى. ثم جاؤوا إلى بيت أبي بكر، وسألوا ابنته أسماء عنه فقالت: لا أدري، فلطمها الخبيث أبو جهل لطمة طرح منها قرطها، ثم أرسلوا الطلب في كل جهة، وجعلوا مائة ناقة عن كل واحد منهما لمن يأتي بهما حيين أو ميتين.

وقد وصلوا في الطلب إلى باب الغار بحيث لو طأطأ أحدهم رأسه، ونظر إلى قدميه لرآهما، حتى اشتد حزن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ﷺ فقال: **«ماظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا»**.

في الطريق إلى المدينة:

وفي ليلة الإثنين غرة ربيع الأول سنة (١هـ) جاء الدليل عبدالله بن أريقط الليثي بالراحلتين إلى جبل ثور حسب الموعد، فارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر، وصحبهما عامر بن فهيرة، وسلك بهما الدليل في اتجاه الجنوب نحو اليمن حتى أُبْعِد، ثم اتجه إلى الغرب نحو ساحل البحر الأحمر، ثم اتجه إلى الشمال على مقربة من الساحل، وسلك طريقًا لا يسلكه الناس إلا نادرًا.

وواصلوا السير تلك الليلة، ثم النهار إلى نصفه، حتى خلا الطريق، فاستراح النبي ﷺ تحت ظل صخرة، واستكشف أبو بكر ما حوله، وجاء راعٍ فاستحلب منه أبو بكر، فلما استيقظ النبي ﷺ سقاه حتى رضي، ثم ارتحلوا.

وفي اليوم الثاني مرا بخيمتي أم معبد، وكانت بالمشلل في ناحية قديد على بعد نحو ١٣٠ كيلومترًا من مكة، فسألاها هل عندها شيء؟ فاعتذرت عن القِرَى، وأخبرت أن الشاء عازب - أي بعيدة المرعى والكلأ - وكانت في جانب الخيمة شاة خلَّفها الجهد عن قطيع الغنم، ولم تكن فيها قطرة من لبن، فاستأذن رسول الله ﷺ ليحلبها، فلما حلبها درت باللبن، حتى امتلأ منه إناء كبير يحمله الرهط بمشقة، فسقاه أم معبد حتى رويت، ثم سقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، ثم حلب فيه ثانيًا، حتى ملأ الإناء، وتركه عندها وارتحلوا.

وجاء زوجها فتعجب حين رأى اللبن، وسألها عنه، فأخبرته الخبر، ووصفت النبي ﷺ من مفرقه إلى قدمه ومن كلامه إلى أطواره وصفًا دقيقًا جدًّا، فقال أبو معبد: هذا والله! صاحب قريش، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلَنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلًا.

وفي اليوم الثالث سمع أهل مكة صوتًا بدأ من أسفلها ومر حتى خرج من أعلاها، وتبعوه فلم يروا شخصه يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به
وأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم
به من فعال لا تجارى وسؤدد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم
ومقعدها للمؤمنين بمرصد

ثم لما جاوزا قديدًا تبعهما سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، على فرس له، طمعًا في جائزة قريش، فلما دنا منهم عثرت به فرسه حتى خر عنها، ثم قام واستقسم بالأزلام: يضرهم أم لا؟ فخرج الذي يكره، ولكنه عصا الأزلام وركب حتى إذا دنا منهم بحيث يسمع قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت - وأبو بكر يكثر الالتفات - ساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغتا الركبتين، وخر عنها، ثم زجرها فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة صار لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسم بالأزلام فخرج الذي يكره، وداخله رعب عظيم، وعلم أن أمر رسول الله ﷺ سيظهر فناداهم بالأمان، فوقفوا حتى جاءهم، فأخبر النبي ﷺ بما قررته قريش، وما يريد بهما الناس، وعرض عليه الزاد والمتاع، فلم يأخذ منه شيئًا، وطلب منه أن يخفي أمره عن الناس، واستكتبه سراقة كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتبه في أديم، ورجع سراقة فقال لمن وجده في الطلب: قد استبرأت لكم الخبر، قد كفيتم ما ههنا حتى أرجعهم.

وفي الطريق لقيه بريدة بن الحصيب الأسلمي - رضي الله عنه - في سبعين راكبًا فأسلم هو ومن معه، وصلوا خلفه صلاة العشاء الآخرة.

ولقيهما في بطن ريم ـ اسم وادٍ ـ الزبير بن العوام في ركب من المسلمين كانوا قافلين من الشام، فكساهما الزبير ثيابًا بياضًا.

النزول بقباء:

وفي يوم الإثنين الثامن من شهر ربيع الأول سنة (١٤) من النبوة ـ وهي السنة الأولى من الهجرة ـ نزل رسول الله ﷺ بقباء.

وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله ﷺ يخرجون كل غداة إلى الحرة، حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد طول الانتظار، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب! هذا جدكم - أي حظكم - الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، وسمعت فيهم الوجبة والتكبير فرحاً بقدوم رسول الله ﷺ، وخرجوا للقائه بظهر الحرة. فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء.

ولما نزل بقباء جلس صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر - رضي الله عنه - ظنًّا منه أنه هو الرسول ﷺ - لظهور الشيب في شعره - حتى أصابت رسول الله ﷺ الشمس، فظلَّل عليه أبو بكر بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ.

ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم وقيل: على سعد بن خيثمة، ومكث بها أربعة أيام، أسس أثناءها مسجد قباء، وصلى فيه، فلما كان اليوم الخامس ـ يوم الجمعة ـ ركب بأمر الله، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى أخواله بني النجار، فجاؤوا متقلدين السيوف، فسار نحو المدينة، وهم حوله، وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في بطن الوادي، وهم مائة رجل.

الدخول في المدينة:

ثم اتجه نحو المدينة، وقد زحف الناس للاستقبال، وارتجت البيوت والسكك بالتحميد والتقديس، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

أيـــهـــا الــــمــــبــــعــــوث فــــيــــنـــــا
جـــئـــت بـــالأمـــر الـــمـــطـــاع

وكان رسول الله ﷺ لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام ناقته يقولون: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة، فلما وصلت الناقة إلى موضع المسجد النبوي بركت، فلم ينزل عنها حتى نهضت، وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول فنزل عنها، فجعل الناس يكلِّمونه في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ فأدخل رحله في بيته. فجعل رسول الله ﷺ يقول: المرء مع رحله، وأخذ أسعد بن زرارة بزمام راحلته فكانت عنده.

وسابق سراة الأنصار في استضافة رسول الله ﷺ، فكانت الجِفَانَ تأتيه منهم كل ليلة، فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع منها.

هجرة علي ولحوقه برسول الله ﷺ:

ومكث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بمكة بعد النبي ﷺ ثلاثًا، وأدَّى ودائع كانت عند رسول الله ﷺ لأهل مكة، ثم خرج ماشيًا على قدميه حتى لحق برسول الله ﷺ بقباء، ونزل على كلثوم بن الهدم.

هجرة أهل البيت:

ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أرسل زيد بن حارثة، وأبا رافع إلى مكة، فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتي النبي ﷺ وبأم المؤمنين سودة، وأم أيمن، وأسامة بن زيد. وخرج معهم عبدالله بن أبي بكر بعيال أبي بكر: أم رومان، وأسماء، وعائشة، ـ رضي الله عنهم وعنهن أجمعين ـ وذلك بعد ستة أشهر من هجرة رسول الله ﷺ.

هجرة صهيب:

وهاجر صهيب بعد رسول الله ﷺ، ولما أراد الهجرة حجزه المشركون، فتخلَّى عن أمواله لهم ـ وكانت كثيرة ـ فخلُّوا سبيله، فلما وصل المدينة، وقصَّ على النبي ﷺ

قصته قال: ربح البيع أبا يحيى! وأبو يحيى كنية صهيب ـ رضي الله عنه ـ.

المستضعفون:

وحبس المشركون بعض المسلمين عن الهجرة، وعذَّبوهم وفتنوهم عن دينهم. منهم الوليد بن الوليد، وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص، فكان رسول الله ﷺ يدعو لهم في الصلوات، ويدعو على من حبسهم من كفار قريش، وهذا أصل القنوت، وبعد حين قام بعض المسلمين بعمل بطولي جريء، أخرجهم بذلك من قيد الكفار، فهاجروا إلى المدينة.

مناخ المدينة:

ولما نزل المهاجرون بالمدينة أصابهم هم وحزن، لفراقهم أرضهم، وديارهم التي نشأوا بها، وترعرعوا فيها، فأخذوا يذكرون تلك الأرض ويحنون إليها، وزاد ذلك شدة أن المدينة كانت من أوبأ أرض الله، فلما نزلوا بها أصابتهم حمى وأنواع من المرض، فدعا النبي ﷺ ربه عزّ وجل وقال: **«اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة» وأجاب الله دعاءه ﷺ فاستراح المسلمون من الأمراض، وأحبوا المدينة.**

أعمال رسول الله ﷺ في المدينة المنورة

ولما استقر النبي ﷺ بالمدينة المنورة بدأ يُنسِّق الأمور دينيًا ودنيويًا بجانب استمراره في الدعوة إلى الله.

المسجد النبوي :

وأول خطوة اتخذها في هذا السبيل هو بناء المسجد النبوي، واشترى لذلك الأرض التي بركت بها ناقته، وكانت لغلامين يتيمين، وكانت مائة ذراع في مائة ذراع تقريبًا، وفيها قبور المشركين، وخرب ونخل وشجرة من غرقد فنبشت القبور، وسويت الخرب، وقطعت الشجرة والنخل، وصفت في قبلة المسجد، وجعل الأساس قريبًا من ثلاثة أذرع، وأقيمت الحيطان من اللّبن والطين، وجعلت عضادتا الباب من الحجارة. والسقف من الجريد، والعمد من الجذوع، وفرشت الأرض بالرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وكانت القبلة في الشمال إلى بيت المقدس. وكان الرسول ﷺ ينقل الحجارة واللبن مع المهاجرين والأنصار ويرتجز ويرتجزون، فيزيدهم ذلك نشاطًا.

وبنى بجانب المسجد حجرتين بالحجارة واللبن، وسقفهما بالجريد والجذوع، إحداهما لسودة بنت زمعة، والثانية لعائشة ـ رضي الله عنهما ـ ولم يكن إذ ذاك متزوجًا غيرهما، وقد بنى بعائشة - رضي الله عنها - بعد قدومها قريبًا في شوال سنة (١هـ).

الأذان :

وبدأ المسلمون يحضرون للصلوات الخمس في جماعة، ويتحينون أوقاتها، فيتعجل بعضهم ويتأخر البعض، فاستشار النبي ﷺ والمسلمون في علامة يعرفون بها حضور الصلاة، فأشار بعضهم برفع النار، وبعضهم بالنفخ في البوق، وبعضهم بضرب الناقوس، فقال عمر - رضي الله عنه - أو لا تبعثون رجلًا ينادي بـ«الصلاة جامعة» فقبل رسول الله ﷺ هذا الرأي وعمل به، ثم إن عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري ـ رضي

الله عنه ـ رأى الأذان في المنام فجاء وأخبر النبي ﷺ فقال: إنها لرؤيا حق، وأمره أن يلقي على بلال حتى ينادي بها، لأنه أندى صوتًا منه، فأذَّن بلال، وسمع صوته عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فجاء يجرر رداءه وقال: والله لقد رأيت مثله، فتأكد بذلك الرؤيا، وصار الأذان أحد شعار الإسلام منذ ذلك اليوم.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كان من سجايا الأنصار، وكرمهم أنهم كانوا يتنافسون في إنزال المهاجرين واستضافتهم في بيوتهم، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ثم زاد النبي ﷺ هذا الحب والإيثار قوة بعقد المؤاخاة بينهم وبين المهاجرين، فجعل كل أنصاري ونزيله أخوين، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، فآخى بينهم على المؤاساة، وأنهم يتوارثون فيما بينهم بعد الموت، دون ذوي الأرحام، ثم نسخ التوارث وبقيت المؤاخاة، وكانت قد عقدت في دار أنس بن مالك رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

وكان من حب الأنصار لإخوانهم المهاجرين، أنهم عرضوا نخيلهم على النبي ﷺ ليقسم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، فأبى. فقالوا: إذن تكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة، فقبل ذلك.

وكان سعد بن الربيع أكثر الناس مالًا، فقال لأخيه المهاجر عبدالرحمن بن عوف: أقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال عبدالرحمن: بارك الله في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلُّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، وما هي إلا أيام حتى اكتسب مالًا، وتزوج امرأة من الأنصار.

تأسيس المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية:

كانت هذه المؤاخاة ربطًا بين فرد من المهاجرين وبين فرد من الأنصار، وحيث إن

المسلمين صاروا ـ بعد اجتماعهم بالمدينة ـ أمة مستقلة فقد كانوا في حاجة إلى تنظيم اجتماعي، وإلى تعريف بالواجبات والحقوق الاجتماعية، وإلى إبراز النقاط التي تجعلهم أمة واحدة مستقلة عن الآخرين.

وكانت في المدينة طائفتان أخريان سوى المسلمين، تختلفان عنهم في العقيدة والدين، والمصالح والحاجات، والعواطف والميول. وهم المشركون واليهود، فعقد النبي ﷺ فيما بين المسلمين ميثاقًا، وفيما بينهم وبين المشركين وفيما بينهم وبين اليهود ميثاقًا آخر، وكتب بذلك كتابًا قرر فيه:

١- أن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس.

٢- وأن أداء ديتهم وفداء أسيرهم بين المؤمنين يكون حسب العرف السابق وأنهم ينصرون المؤمنين في الفداء والدية.

٣- وأنهم يقومون ضد المفسد والباغي والظالم كيدٍ واحدة، ولو كان ولد أحدهم.

٤- وأنه لا يقتل مؤمن مؤمنًا بكافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

٥- وأن ذمة الله واحدة، فيجير عليهم أدناهم.

٦- وأن من تبع المسلمين من اليهود فله النصر والأسوة.

٧- وأن سلم المسلمين واحدة.

٨- وأن من قتل مؤمنًا قصدًا يُقتَصُّ منه، إلا أن يرضى ولي المقتول، ويجب على المؤمنين أن يقوموا ضد القاتل.

٩- وأنه لا يحلُّ لمؤمن أن ينصر محدثًا أو يؤويه.

١٠- وأنهم إذا اختلفوا في شيء، فإن مرده إلى الله ورسوله.

زيادة على هذا الميثاق بين النبي ﷺ للمسلمين حق الأخوة الإسلامية في أوقات ومناسبات شتى، وحضهم على التعاون والتناصر، والتعاضد والتكاتف، والمؤاساة وإسداء الخير. حتى سمت هذه الأخوة إلى أعلى قمة عرفها التاريخ.

وأما المشركون فكانوا على وشك الانهيار، حيث أسلمت أغلبيتهم مع ساداتهم

وكبرائهم، فلم يكن في استطاعتهم الوقوف في وجه المسلمين، فأخذ النبي ﷺ عليهم: «أنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن» وبذلك انتهى ما كان يخشى منهم.

وأما اليهود فقد تم الاتفاق بينهم وبين النبي ﷺ على الأمور الآتية:

١- أنهم أمة مع المؤمنين، ولهم دينهم وللمسلمين دينهم، وعليهم نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٢- وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وعلى من دهم يثرب كل يدافع عن جهته.

٣- وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٤- وأن المرء لا يؤخذ بإثم حليفه.

٥- وأن النصر للمظلوم.

٦- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٧- وأن يثرب حرام لأهل هذه الصحيفة.

٨- وأن ما يكون بينهم من حدث أو اشتجار فإن مرده إلى الله ورسوله.

٩- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

١٠- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

وبهذا الميثاق انتظم المسلمون والمشركون واليهود من سكان يثرب في كيان واحد، وأصبحت المدينة وضواحيها دولة ذات استقلال وسيادة، والكلمة النافذة فيها للمسلمين. ورئيسها رسول الله ﷺ.

ونشط رسول الله ﷺ وتبعه المسلمون في الدعوة إلى الله، فكان يحضر مجالس المسلمين وغير المسلمين، يتلو عليهم آيات الله، ويدعوهم إلى الله، ويزكي من آمن منهم بالله، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

استفزازات قريش

مكائد قريش :

وبينما كان النبي ﷺ يرتب أمور المدينة وينظم جوانب الحياة فيها، ويرجو أن يجد فيها هو والمسلمون مكانًا آمنًا يعملون فيه بدينهم بغير معارضة أو استفزاز إذ فوجئوا بمكائد قريش تريد القضاء عليهم.

فمنها أنهم كتبوا إلى مشركي يثرب يحرضونهم على قتال المسلمين، وإخراجهم عن المدينة، ويهددونهم بقتل مقاتلتهم واستباحة نسائهم إن لم يفعلوا ذلك. وفعلًا قام مشركو يثرب لينفذوا ذلك، ولكن أتاهم رسول الله ﷺ، فوعظهم ونصحهم، فكفوا عما أرادوا من القتال وتفرقوا.

ومنها أن سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ رئيس الأوس، ذهب إلى مكة معتمرًا، فطاف بالبيت، ومعه أبو صفوان أمية بن خلف، فلقيهما أبو جهل، فلما عرف سعدًا هدده وتوعده، وقال: تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم الصباة، أما والله! لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، وكان هذا إعلانًا عن صد المسلمين عن المسجد الحرام. وعن قتلهم إذا وجدوا في حدود قريش.

وكانت لقريش صلة بيهود يثرب، وكانت اليهود - كما أُثِرَ في الإنجيل عن المسيح عليه السلام - حيات، أولاد الأفاعي، فكانوا يقومون بنبش الأحقاد والضغائن القديمة بين الأوس والخزرج، ويحرشونهم، ويحاولون إثارة القلق، والاضطراب فيما بينهم.

وهكذا أحاط الخطر بالمسلمين في المدينة من الداخل والخارج، ووصل الأمر إلى أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يكونوا يبيتون إلا ومعهم السلاح، ولم يكونوا يصبحون إلا فيه، وكانوا يحرسون رسول الله ﷺ حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] فقال ﷺ: **«يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل»**.

مشروعية القتال :

وفي هذه الظروف الخطيرة أنزل الله تعالى الإذن بقتال قريش، ثم تطور هذا الإذن

مع تغير الظروف حتى وصل إلى مرحلة الوجوب، وجاوز قريشًا إلى غيرهم، ولا بأس أن نبين تلك المراحل بإيجاز قبل أن ندخل في ذكر الأحداث.

١ـ المرحلة الأولى: اعتبار مشركي قريش محاربين، لأنهم بدؤوا بالعدوان، فحق للمسلمين أن يقاتلوهم، ويصادروا أموالهم، دون غيرهم من بقية مشركي العرب.

٢ـ قتال كل من تمالأ من مشركي العرب مع قريش، واتحد معهم. وكذلك كل من تفرد بالاعتداء على المسلمين من غير قريش.

٣ـ قتال من خان أو تحيز للمشركين من اليهود الذين كان لهم عقد وميثاق مع رسول الله ﷺ، ونبذ ميثاقهم إليهم على سواء.

٤ـ قتال من بادأ بعداوة المسلمين من أهل الكتاب، كالنصارى، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

٥ـ الكف عمن دخل في الإسلام مشركًا كان أو يهوديًا أو نصرانيًا أو غير ذلك، فلا يتعرض لنفسه وماله إلا بحق الإسلام وحسابه على الله.

السرايا والغزوات:

تقدم أن رسول الله ﷺ والمسلمين كانوا آخذين بالحيطة والحذر من بداية أمرهم، وذلك بالحراسة والبيات مع السلاح، فلما نزل الإذن بالقتال أخذ رسول الله ﷺ يرتب البعوث والدوريات العسكرية، ويؤمر عليها أحدًا من أصحابه، وهي المسماة بالسرية، وربما خرج فيها بنفسه، وهي المسماة بالغزوة، وكان المقصود منها:

١ـ استكشاف حركات العدو، وتأمين أطراف المدينة، حتى لا يؤخذ المسلمون على غِرَّة.

٢ـ الضغط على قريش بالتعرض لقوافلهم، حتى يشعروا بالخطر على تجارتهم وأموالهم وأنفسهم، فإما أن يفيقوا عن غيهم، ويسالموا المسلمين، ويتركوهم على حريتهم في نشر الإسلام والعمل به ـ وهذا غاية ما كان يتمناه المسلمون ـ أو يختاروا طريق الحرب والقتال، فيخسروا أولًا طريق تجارتهم، لأنها كانت

تمر بأطراف المدينة، ويلقوا ثانياً جزاء شرهم وعدوانهم بإذن الله ونصره لعباده المؤمنين، وهذا الذي وقعت الإشارة إليه في كلام الله سبحانه وتعالى مرارًا.

٣ـ عقد مواثيق التحالف، أو عدم الاعتداء مع قبائل أخرى.

٤ـ إبلاغ رسالة الله، ونشر دعوة الإسلام قولًا وعملًا.

وأول سرية بعثها رسول الله ﷺ سرية تسمى بسيف[1] البحر، بعثها في رمضان في السنة الأولى من الهجرة، وأمَّرَ عليها عمه حمزة بن عبدالمطلب، وكان قوامها ثلاثين رجلًا من المهاجرين، وقد واصلوا سيرهم حتى بلغوا إلى سيف البحر ـ أي ساحل البحر الأحمر ـ من ناحية العيص، واعترضوا عيرًا لقريش، قادمة من الشام، عليها أبو جهل، في ثلاثمائة رجل، فاصطف الفريقان، وكاد يقع القتال، لكن توسط مجدي ابن عمرو الجهني، فانصرف الفريقان.

كانت هذه السرية أول عمل عسكري في تاريخ الإسلام، وكان لواؤها أبيض، وهو أول لواء عُقِدَ في تاريخ الإسلام، وحمل اللواء أبو مرثد كناز بن حصين الغنوي.

ثم تتابعت البعوث والسرايا فأرسل في شوال عبيدة بن الحارث في ستين رجلاً من المهاجرين إلى بطن رابغ، فلقي أبا سفيان وهو في مائتي رجل، فوقع الترامي دون القتال.

ثم أرسل في ذي القعدة سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلًا من المهاجرين إلى الخرار، قريبًا من رابغ فلم يلق كيدًا.

ثم خرج رسول الله ﷺ بنفسه إلى الأبواء أو ودان، في صفر سنة (٢هـ) في سبعين رجلًا من المهاجرين. فلم يلق أحدًا، وعقد ميثاق الأمان والتناصر مع عمرو بن مخشى الضمري، وكانت أول غزوة خرج لها رسول الله ﷺ.

ثم خرج إلى بواط من ناحية رضوى، في ربيع الأول سنة (٢هـ) في مائتين من المهاجرين، فلم يلق أحدًا.

وفي نفس الشهر أغار كرز بن جابر الفهري على مراعي المدينة، وساق بعض

(١) السيف، بكسر السين معناه: الساحل.

المواشي، فخرج ﷺ في طلبه إلى سفوان من ناحية بدر، في سبعين رجلًا من المهاجرين، ولكن كرزًا أفلت ونجح في الفرار، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

ثم خرج في جمادى الأولى أو الآخرة سنة (٢هـ) إلى ذي العشيرة في مائة وخمسين، أو في مائتين من المهاجرين، يعترض عيرًا لقريش ذاهبة إلى الشام، ولكنها فاتته قبل أيام. وعقد ميثاق عدم العدوان مع بني مدلج.

ثم بعث في شهر رجب سنة (٢هـ) عبدالله بن جحش الأسدي إلى نخلة، بين مكة والطائف، في اثني عشر رجلًا من المهاجرين، ليأتوا بخبر عير لقريش، لكنهم هجموا عليها، فقتلوا رجلاً، وأسروا اثنين، وساقوا العير، وغضب رسول الله ﷺ على ذلك، ولم يرض به، فأطلق الأسيرين وأدّى دية المقتول.

وكان الحادث في آخر يوم من رجب، فأثار المشركون ضجة بأن المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام. فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ [البقرة:٢١٧].

وفي شعبان سنة (٢هـ) حوّل الله القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وكان ذلك مما يحبه رسول الله ﷺ وينتظره، وقد انكشف بذلك بعض المخادعين من المنافقين واليهود الذين دخلوا في الإسلام زورًا، فارتدوا وتطهرت صفوف المسلمين منهم.

تلك هي التحركات العسكرية التي قام بها رسول الله ﷺ والمسلمون لحفظ أمن المدينة وأطرافها، ولإشعار قريش بسوء عاقبتها إن لم تكف عن شرِّها، ولكنها ازدادت في العلو والاستكبار، فلاقت جزاء أمرها في بدر، وكان عاقبة أمرها خسرًا.

غزوة بـدر الكـبرى

وهي أول معركة فاصلة بين قريش والمسلمين، وسببها أن رسول الله ﷺ كان بالمرصاد للعير التي فاتته إلى الشام حينما خرج إلى ذي العشيرة، وأرسل لها رجلين إلى الحوراء من أرض الشام ليأتيا بخبرها، فلما مرت بهما العير أسرعا إلى المدينة، فندب لها رسول الله ﷺ المسلمين، ولم يعزم عليهم الخروج، فانتدب (٣١٣) رجلاً ـ وقيل (٣١٤) وقيل (٣١٧) رجلًا ـ (٨٢) أو (٨٣) أو (٨٦) من المهاجرين و(٦١) من الأوس و(١٧٠) من الخزرج، ولم يتخذ هؤلاء أهبتهم الكاملة، فلم يكن معهم إلا فرسان وسبعون بعيرًا فقط.

وعقد رسول الله ﷺ لواء أبيض دفعه لمصعب بن عمير، وكان للمهاجرين علم يحمله علي بن أبي طالب، وللأنصار علم يحمله سعد بن معاذ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم أرسل مكانه من الروحاء أبا لبابة بن عبدالمنذر.

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة يريد بدرًا، وهو موضع على بعد (١٥٥) كيلومترًا جنوب غربي المدينة، تحيط به جبال شواهق من كل جانب، وليس فيه إلا ثلاثة منافذ، منفذ في الجنوب، وهو العدوة القصوى، ومنفذ في الشمال وهو العدوة الدنيا، ومنفذ في الشرق قريبًا من منفذ الشمال يدخل منه أهل المدينة، وكان طريق القوافل الرئيسي بين مكة والشام يمر من داخل هذا المحيط. وكان فيه المساكن والآبار والنخيل، فكانت تنزل القوافل، وتقيم فيه ساعات وأيامًا. فكان من السهل جدًّا أن يسد المسلمون هذه المنافذ بعد ما تنزل العير في هذا المحيط، فتضطر إلى الاستسلام، ولكن من لوازم هذا التدبير أن لا يشعر أهل العير بخروج المسلمين إطلاقًا، حتى ينزلوا ببدر على غرة، ولذلك سلك رسول الله ﷺ أول ما سلك طريقًا آخر غير طريق بدر ثم تأنّى في التقدم إلى جهة بدر.

أما العير فكان قوامها ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار، وكان رئيسها أبا سفيان، ومعه نحو أربعين رجلًا فقط، وكان أبو سفيان في غاية التيقظ

والحذر، يسأل كل غادٍ ورائحٍ عن تحركات المسلمين، حتى علم بخروج المسلمين من المدينة، وهو على بعد غير قليل من بدر، فحول اتجاه العير إلى الغرب ليسلك طريق الساحل، ويترك طريق بدر إطلاقًا، واستأجر رجلًا يخبر أهل مكة بخروج المسلمين بأسرع ما يمكن، فلما بلغهم النذير استعدوا سراعًا، وأوعبوا في الخروج. فلم يتخلف من كبرائهم إلا أبو لهب، وحشدوا من حولهم من القبائل ولم يتخلف من بطون قريش إلا بنو عدي.

ولما وصل هذا الجيش إلى الجحفة بلغتهم رسالة أبي سفيان يخبرهم بنجاته، ويطلب منهم العودة إلى مكة، وَهَمَّ الناس بالرجوع، ولكن أبى ذلك أبو جهل استكبارًا ونخوة، فلم يرجع إلا بنو زهرة، أشار عليهم بذلك حليفهم ورئيسهم الأخنس بن شريق الثقفي، وكانوا ثلاثمائة، أما البقية، وهم ألف، فواصلوا سيرهم حتى نزلوا قريبًا من العدوة القصوى، خارج بدر، في ميدان فسيح، وراء الجبال المحيطة ببدر.

أما رسول الله ﷺ فقد علم بخروج أهل مكة، وهو في الطريق، فاستشار المسلمين، فقام أبو بكر فتكلَّم وأحسن، ثم قام عمر فتكلَّم وأحسن، ثم قام المقداد فقال: والله! يارسول الله! لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فأشرق وجه رسول الله ﷺ وسُرَّ بذلك.

ثم قال: أشيروا علي أيها المسلمون، فقام سعد بن معاذ رئيس الأنصار وقال: كأنك تعرض بنا يارسول الله! فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فَسِر بنا على بركة الله، وقال فيما قال: والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك، فَسُرَّ رسول الله ﷺ ، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم.

ثم تقدم إلى بدر فوصلها في نفس الليلة التي وصل فيها المشركون، فنزل في داخل ميدان بدر قريبًا من العدوة الدنيا، فأشار عليه الحباب بن المنذر أن يتقدم فينزل على

أقرب ماء من العدو، حتى يصنع المسلمون حياضًا يجمعون فيها الماء لأنفسهم، ويغورون الآبار فيبقى العدو ولا ماء له، ففعل.

وبنى المسلمون عريشًا يكون مقر قيادته ﷺ، وعينوا له حُرَّاسًا من شباب الأنصار تحت قيادة سعد بن معاذ.

ثم عبأ رسول الله ﷺ الجيش، وتجوَّل في ميدان القتال، وهو يشير بيده ويقول: «**هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان، غدًا إن شاء الله**». ثم بات يصلي إلي جذع شجرة، وبات المسلمون مستريحين تغمرهم الثقة، وكان الله قد أنزل المطر كما قال: ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ**﴾ [الأنفال: ١١].

وفي الصباح ـ وهو صباح يوم الجمعة ١٧ من شهر رمضان سنة (٢هـ) تراآى الجمعان، فدعا رسول الله ﷺ : «**اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم احنهم الغداة**». ثم عدل الصفوف، وأمرهم أن لا يبدؤوا بالقتال حتى يأتيهم أمره، وقال: إذا أكثبوكم ـ أي اقتربوا منكم ـ فارموهم، واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم، ثم رجع إلى العريش، ومعه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فابتهل إلى الله سبحانه وتعالى ودعاه، وناشده، حتى قال: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد أبدًا، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً**». وبالغ في التضرع والابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فردَّه عليه الصديق وقال: حسبك يارسول الله! ألححت على ربك.

أما المشركون فاستفتح منهم أبو جهل فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه فاحنه الغداة، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم.

المبارزة والقتال:

ثم تقدم ثلاثة من خيرة فرسان المشركين: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وبارزوا المسلمين، فخرج ثلاثة من شباب الأنصار، فقال المشركون: نريد بني عمنا، فخرج عبيدة بن الحارث، وحمزة، وعلي، فقتل حمزة شيبة، وقتل علي الوليد، واختلفت ضربتان بين عبيدة وعتبة، وأثخن كل واحد منهما الآخر، ثم كرَّ علي وحمزة

على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله، فمات بعد أربعة أو خمسة أيام بالصفراء راجعًا إلى المدينة.

واستاء المشركون بنتيجة المبارزة، واستشاطوا غضبًا، فهجموا على صفوف المسلمين بعنف، وشدوا عليهم شدة رجل واحد. والمسلمون ثابتون في أماكنهم يدافعون عن أنفسهم، ويقولون: أحد. أحد.

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، ثم رفع رأسه وقال: «**أبشر أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع**» - أي على أطرافه الغبار - وكان الله قد أمد المسلمين يومئذ بألف من الملائكة مردفين.

ثم تقدم رسول الله ﷺ يثب في الدرع ويتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] وأخذ حفنة من الحصباء، ورمى بها وجوه المشركين وهو يقول: «**شاهت الوجوه**» فما من مشرك إلا وأصاب عينيه ومنخريه من تلك الحفنة، وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالهجوم على المشركين، وقال: «**شدُّوا**». وحرضهم على القتال، فشد المسلمون وهم على نشاطهم، وقد زادهم تحمسًا وجود رسول الله ﷺ فيما بين أظهرهم، يقاتل قدامهم، فأخذوا يقلبون الصفوف، ويقطعون الأعناق، ونصرهم الملائكة فكانوا يضربون فوق أعناق المشركين، ويضربون منهم كل بنان، فكان يندر رأس الرجل لا يدري من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدري من قطعها حتى نزلت الهزيمة بالمشركين فلاذوا بالفرار، وأخذ المسلمون يطاردونهم فيقتلون فريقًا ويأسرون فريقًا.

وكان إبليس قد حضر في صورة سراقة بن مالك بن جعشم تأييدًا للمشركين، وتحريضًا لهم على قتال المسلمين، فلما رأى الملائكة وما يفعلون نكص على عقبيه وفر إلى البحر الأحمر وألقى نفسه فيه.

مقتل أبي جهل:

وكان أبو جهل في عصابة جعلت سيوفها ورماحها حوله مثل السياج، وكان في صفوف المسلمين حول عبدالرحمن بن عوف شابان من الأنصار لم يأمن عبدالرحمن

مكانهما، إذ قال له أحدهما سرًّا من صاحبه: ياعم أرني أبا جهل قال: وما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يَسُبُّ رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. وقال الآخر: مثل ذلك. فلما تصدعت الصفوف رآه عبدالرحمن يتجول فأراهما فابتداره بالسيف حتى قتلاه ضرب أحدهما ساقه، فطاحت رجله كما تطير النوى حين تدق، وأثخنه الآخر حتى تركه وبه رمق، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فقال: **«أيكما قتله؟»** فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: **«هل مسحتما سيفيكما؟»** فقالا: لا، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: **«كلاكما قتله»**، وهما معاذ ومعوذ ابنا عفراء، وقد استشهد معوذ في نفس الغزوة، وبقي معاذ إلى زمن عثمان. وأعطاه رسول الله ﷺ سلب أبي جهل.

وبعد انتهاء المعركة خرج الناس في طلبه، فوجده عبدالله بن مسعود وبه رمق، فوضع رجله على عنقه وأخذ لحيته ليحتز رأسه وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ هل فوق رجل قتلتموه؟ وقال: فلو غير أكار قتلني، ثم قال: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال لله ولرسوله. قال أبو جهل: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يارويعي الغنم! وقطع عبدالله بن مسعود رأسه، ثم جاء به إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: **«الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وقال: هذا فِرعون هذه الأمة»**.

يوم الفرقان :

كانت هذه المعركة معركة بين الكفر والإيمان، قاتل فيها الرجل عمه وأباه، وابنه وأخاه، وخاله وأدناه، قتل فيها عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خاله العاص بن هشام، وواجه فيها أبو بكر ابنه عبدالرحمن، وأسر فيها المسلمون العباس، وهو عم رسول الله ﷺ، وهكذا انقطعت فيها صلة القرابة، وأعلى الله فيها كلمة الإيمان على كلمة الكفر، وفرّق بين الحق والباطل، فسُمِّي ذلك اليوم بيوم الفرقان، وهو يوم بدر، اليوم السابع عشر من شهر رمضان.

قتلى الفريقين :

قتل في هذه المعركة أربعة عشر رجلًا من المسلمين، ستة من المهاجرين، وثمانية

من الأنصار، ودفنوا في ساحة بدر، ومقابرهم لا تزال معروفة.

أما المشركون فقتل منهم سبعون، وأُسِرَ سبعون، ومعظمهم كانوا من الصناديد، وقد سحبت جثث أربع وعشرين من صناديدهم وقذفت في قليب ـ بئر ـ خبيث مخبث في بدر.

وأقام رسول الله ﷺ في بدر ثلاثة أيام، فلما استعدَّ للرجوع جاء القليب وقام على شفته، وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: **«يافلان بن فلان! ويا فلان بن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟»**

فقال له عمر: يارسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها. قال: **«ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون»**.

خبر المعركة في مكة والمدينة:

وصل نبأ الهزيمة إلى مكة بفلول المشركين، فكبتهم الله وأخزاهم، حتى نهوا عن النياحة على القتلى، كيلا يشمت بهم المسلمون، وكان الأسود بن المطلب قُتِل له ثلاثة بنين. فكان يحب أن ينوح، فسمع ليلًا صوت نائحة، فظن الإذن، وبعث غلامه، فجاء وأخبر أنها تبكي على بعير أضلته، فلم يتمالك أن قال:

أتـبـكـي أن يـضـل لـهـا بـعـيـر
ويـمـنـعـهـا مـن الـنـوم الـسـهـود
لا تـبـكـي عـلـى بـكـر ولـكـن
عـلـى بـدر تـقـاصـرت الـجـدود

وذلك في أبيات ندب فيها أبناءه:

أما أهل المدينة فقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ بشيرين: عبدالله بن رواحة إلى العالية، وزيد بن حارثة إلى السافلة، وكان اليهود قد أرجفوا في المدينة بدعايات كاذبة، فلما وصل نبأ الفتح عمت الفرحة والسرور، واهتزت المدينة تهليلًا وتكبيرًا، وتقدم رؤوس المسلمين إلى طريق بدر يهنئون رسول الله ﷺ.

الرسول ﷺ إلى المدينة:

وتقدم الرسول ﷺ إلى المدينة متوجًا بنصر الله، ومعه الغنائم والأسارى، فلما

وصل قريبًا من الصفراء نزل حُكمُ الغنيمة، فأخذ منها الخمس، وقسَّمها سويًّا بين الغزاة. فلما حل بالصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث، فضرب عنقه علي بن أبي طالب، ولما حل بعرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط، فقتله عاصم بن ثابت الأنصاري، وقيل: علي بن أبي طالب.

أما رؤوس المسلمين الذين خرجوا لتهنئته فلقوه ﷺ بالروحاء، ثم رافقوه يشيعونه إلى المدينة، فدخل فيها مظفرًا منصورًا قد خافه كل عدو، وأسلم بشر كثير، وتظاهر عبدالله بن أُبي وزملاؤه بالإسلام.

قضية الأسارى:

ولما استقر رسول الله ﷺ استشار في الأسارى، فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم، وأشار عمر بقتلهم، فقرر رسول الله ﷺ أخذ الفدية، وكانت من أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألف درهم، ومن كان منهم يقرأ ويكتب فجعل فديته أن يُعلِّم عشرة غلمان من المسلمين، وأحسن إلى بعض الأسارى فأطلقهم بغير فدية.

وبعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء زوجها أبي العاص بمال فيه قلادة لها، كانت عند خديجة فأدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، فاستأذن الصحابة في إطلاقه بغير فدية، ففعلوا، فأطلقه بعد أن اشترط عليه أن يخلِّي سبيل زينب، فخلَّاها فهاجرت إلى المدينة.

وفاة ابنته ﷺ رقية وزواج ابنته أم كلثوم بعثمان:

وكانت رقية بنت النبي ﷺ مريضة حين خرج لغزوة بدر، وكانت تحت عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فأمره أن يتخلف عليها ليمرضها، وله أجر من حضر بدرًا ونصيبه، وخلف عليها أيضًا أسامة بن زيد، فتوفيت قبل رجوعه ﷺ، قال أسامة: أتانا الخبر ـ أي بشارة الفتح ـ حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ.

ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة واطمأن بها، زوَّج عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ابنته الأخرى: أم كلثوم. فلذلك سمي عثمان - رضي الله عنه - بذي النورين، وقد بقيت معه حتى توفيت في شعبان سنة تسع من الهجرة، ودفنت بالبقيع.

ساء المشركين ومن معهم ما أكرم الله به المسلمين من النصر والفتح، فأخذوا يدبرون مكائد يضرون بها المسلمين، وينتقمون منهم، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم، وأيَّد المؤمنين بفضله.

تحشد بنو سليم لغزو المدينة بعد أسبوع من رجوع المسلمين من غزوة بدر، أو في المحرم سنة (٣هـ). فداهمهم المسلمون في منازلهم، وأصابوا غنائم، ورجعوا إلى المدينة سالمين، ثم تآمر عمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية على اغتيال النبي ﷺ، وجاء عمير لذلك إلى المدينة، فألقى عليه القبض، وأخبره النبي ﷺ بما تآمر عليه فأسلم.

غزوة بني قينقاع :

ثم كاشف يهود بني قينقاع بالشر والعداوة، فنصحهم رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد! لا يغرنَّك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال. إنَّك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وصبر رسول الله ﷺ على هذا الجواب، فازدادت جرأتهم، حتى أثاروا في سوقهم فتنة قتل فيها رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فحاصرهم رسول الله ﷺ يوم السبت للنصف من شوال سنة (٢هـ) واستسلموا بعد خمسة عشر يومًا لهلال ذي القعدة، فأجلاهم إلى أذرعات الشام، حيث مات أكثرهم بعد قليل.

غزوة السويق :

ونذر أبو سفيان بعد غزوة بدر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو النبي ﷺ فخرج في مائتي راكب، وأغار بالعريض في ناحية المدينة، فقطعوا أسوارًا من النخيل، وأحرقوها، وقتلوا رجلين وفروا.

وأتى الخبر رسول الله ﷺ فطاردهم، ولكنهم أفلتوا وطرحوا أثناء فرارهم كثيرًا من السويق والأزواد ليتخففوا، وبلغ المسلمون في مطاردتهم إلى قرقرة الكدر، ولكنهم فاتوا، وحمل المسلمون السويق، فسميت بغزوة السويق وبغزوة قرقرة الكدر.

قتل كعب بن الأشرف :

كان كعب من أثرياء اليهود وشعرائهم، ومن أشد أعداء المسلمين، فكان يهجو

رسول الله ﷺ وأصحابه، ويشبب بنسائهم. ويمدح أعداءهم ويحرضهم عليهم، ونزل بعد بدر على قريش، فأغراهم على حرب المسلمين. وأنشد لهم في ذلك أبياتًا، وقال أنتم أهدى منهم سبيلًا، ولم يعتبر بما حل ببني قينقاع، فقال رسول الله ﷺ من لكعب بن الأشرف؟ فانتدب له محمد بن مسلمة وعباد بن بشر وأبو نائلة والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر، وأميرهم محمد بن مسلمة وقد استأذن النبي ﷺ أن يقول شيئًا.

ثم أتى كعبًا وقال: إن هذا الرجل - إشارة إلى - النبي ﷺ قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا، أي أوقعنا في المشقة والعناء.

فاستبشر كعب وقال: والله! لتملنه. فاستقرضه محمد بن مسلمة طعامًا أو تمرًا، واتفق معه على أنه يرهنه السلاح.

وجاءه أبو نائلة فتحاور معه بمثل حوار محمد بن مسلمة، وقال: إن معي أصحابًا على مثل رأيي أريد أن آتيك بهم فتبيعهم، وتحسن إليهم، فقبل ذلك منه.

وفي الليلة الرابعة عشرة من شهر ربيع الأول سنة (٣هـ) جاءه المذكورون ومعهم السلاح، فنادوه فقام لينزل، وكان في حصنه، وكان حديث عهد بعرس، فقالت له زوجته: أين تخرج هذه الساعة؟ أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم، فلم يبال بقولها، ولما نزل ورأى السلاح لم يستنكر، لما سبق بينهم وبينه من العهد.

وأخذوا يمشون ليتنزهوا، ومدح أبو نائلة رائحة عطره، واستأذنه ليشم رأسه فأذن له في زهو وخيلاء، فشمه وأدخل فيه يده وأشم أصحابه، ثم استأذنه ثانيًا وفعل مثل ما فعل، ثم ثالثًا أيضًا فلما استمكن من رأسه في المرة الثالثة قال: دونكم عدو الله فاختلفت عليه السيوف دون جدوى. فوضع ابن مسلمة معولًا في ثنته، وتحامل عليه حتى بلغ العانة، فصاح صيحة أفزعت من حوله، وسقط قتيلًا، وأوقدت النيران على الحصون، لكن رجع المسلمون بسلام وقد خمدت نار الفتنة التي طالما أقلقت المسلمين، وكمنت أفاعي اليهود في أجحارهم لفترة من الزمان.

سرية القردة:

وفي جمادي الآخرة سنة (٣هـ) أرسلت قريش عيرًا لهم إلى الشام عن طريق العراق، لتخترق نجدًا إلى الشام، ولا تمر بقرب المدينة، وكان يقودها صفوان بن

أمية، وعلم بذلك رسول الله ﷺ ، فأرسل زيد بن حارثة في مائة راكب، فدهمها زيد وهي تنزل على ماء في نجد يسمى بقردة، فاستولى على العير بكل ما فيها، وفر رجال العير بأجمعهم، وأُسِرَ الدليل فرات بن حيان فأسلم. وقُدِّرت الغنيمة بمائة ألف، وكانت أوجع ضربة تلقتها قريش بعد غزوة بدر.

غـزوة أحـد

بينما كانت قريش تستعد للانتقام من المسلمين بما أصيبت به في غزوة بدر إذا بهم يتلقون ضربة أخرى في القردة، فازدادوا غضبًا على غضب، فأسرعوا في الاستعداد وفتحوا باب التطوع، وحشدوا الأحابيش وخصصوا الشعراء للإغراء والتحريض حتى تجهز جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، في ثلاثة آلاف بعير ومائتي فرس، وسبعمائة درع، ومعه عدد من النسوة للتحريض وبث روح البسالة والحماس، وكان قائده العام أبا سفيان، وحامل لوائه أبطال بني عبد الدار.

تحرك هذا الجيش في غيظه وغضبه حتى بلغ إلى ضواحي المدينة، وألقى رحله في ميدان فسيح على شفير وادي قناة قريبًا من جبل عينين وأُحد، وذلك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة (٣هـ).

ونقل الخبر إلى رسول الله ﷺ قبل نزول الجيش بنحو أسبوع، فشكل دوريات عسكرية تحسبًا للطوارىء، وحفظًا للمدينة، فلما وصل الجيش استشار المسلمين حول خطة الدفاع، وكان رأيه ﷺ أن يتحصن المسلمون بالمدينة، فيقاتل الرجال على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، ووافقه رأس المنافقين عبدالله بن أُبي، وكأنه قصد الجلوس في البيت دون أن يُتّهم بالتخلف، ولكن تحمس الشباب، وألحوا على المجالدة بالسيوف في مكان مكشوف، فقبل رأيهم، وقسّم الجيش إلى ثلاث كتائب. كتيبة للمهاجرين، وحمل لواءها مصعب بن عمير، وأخرى للأوس، وحمل لواءها أسيد بن حضير، وثالثة للخزرج، وحمل لواءها الحباب بن المنذر.

واتجه بعد صلاة العصر إلى جبل أُحد فلما بلغ موضع الشيخين استعرض الجيش فَرَدَّ الصغار، وأجاز رافع بن خديج على صغره، لأنه كان ماهرًا في رمي السهام، فقال سمرة بن جندب أنا أقوى منه، أنا أصرعه، فأمرهما بالمصارعة، فصرع سمرة رافعًا، فأجازه أيضًا.

وفي موضع الشيخين صلى المغرب والعشاء، ثم بات هناك. وعيَّن خمسين رجلًا

لحراسة المعسكر، فلما كان في آخر الليل ارتحل قبل الفجر، فصلاها بالشوط، وهناك تمرد عبدالله بن أُبي، فرجع مع ثلاثمائة من أصحابه، وسرى لأجل ذلك الضعف والاضطراب في بني سلمة وبني حارثة، وكادتا ترجعان، ولكن ثبتهما الله، وكان أولًا مجموع عدد المسلمين ألفًا فبقي سبعمائة.

وتقدم رسول الله ﷺ نحو جبل أُحد من طريق قصير يترك العدو في جانب الغرب، حتى نزل بالشعب عند منفذ الوادي جاعلًا ظهره إلى هضاب أُحد، وبذلك صار العدو حائلاً بين المسلمين وبين المدينة.

وهناك عبأ الجيش، وعيَّن خمسين رجلًا من الرماة على جبل عينين ـ وهو الذي يُعْرَف بجبل الرماة ـ بقيادة عبدالله بن جبير الأنصاري، وأمرهم أن يدفعوا الخيل، ويحموا ظهور المسلمين. وأكَّد لهم أن لا يتركوا مكانهم حتى يأتي أمره، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا.

وعبأ المشركون جيشهم، وتقدموا إلى ساحة القتال، تحرضهم نسوتهم، وهن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف ويثرن الأبطال. وينشدن الأبيات:

إن تـــقـــبـــلـــوا نـــعـــانـــق
ونـــفـــرش الـــنـــمـــارق
أو تـــدبـــروا نـــفـــارق
فـــراق غـــيـــر وامـــق

ويذكرن أصحاب اللواء بواجبهم قائلات:

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار ضربًا بكل بتار

المبـارزة والقتـال:

وتقارب الجيشان، فطلع طلحة بن أبي طلحة العبدري حامل لواء المشركين وأشجع فرسان قريش، ودعا إلى المبارزة وهو على بعير، فتقدم إليه الزبير بن العوام - رضي الله عنه - ووثب وثبة الليث حتى صار معه على جمله ثم أخذه واقتحم به الأرض، وذبحه بسيفه، فكبَّر النبي ﷺ وكبر المسلمون.

ثم انفجر القتال في كل نقطة وحاول خالد بن الوليد ـ وهو على فرسان المشركين ـ

ثلاث مرات ليبلغ إلى ظهور المسلمين، ولكن رشقه الرماة بسهامهم حتى ردوه.

وركز المسلمون هجومهم على حملة لواء المشركين، حتى قتلوهم عن آخرهم وكانوا أحد عشر مقاتلًا، فبقي اللواء ساقطًا، وشدد المسلمون هجومهم على بقية النقاط حتى هدوا الصفوف هدًّا، وحسوا المشركين حسًّا، وأبلى أبو دجانة وحمزة - رضي الله عنهما - في ذلك بلاءً حسنًا.

وأثناء هذا التقدم والانتصار قُتِلَ حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله ـ رضي الله عنه ـ قتله وحشي بن حرب، وكان عبدًا حبشيًّا ماهرًا في قذف الحربة، وقد وعده مولاه جبير ابن مطعم بالعتق إذا قُتِلَ حمزة، لأن حمزة هو الذي قتل عمه طعيمة بن عدي في بدر، فاختبأ وحشي وراء صخرة يرصد حمزة، وبينما حمزة يضرب رأس سباع بن عرفطة - رجل من المشركين - صوب وحشي إليه الحربة، وقذفها وهو على غرة، فوقعت في أحشائه، وخرجت من بين رجليه فسقط ولم يستطع النهوض حتى قضى نحبه ـ رضي الله عنه ـ.

ووقعت الهزيمة بالمشركين حتى لاذوا بالفرار، وفرت النسوة المحرضات، وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السلاح، ويأخذون الغنائم، وحينئذ أخطأ الرماة، فنزل منهم أربعون رجلًا ليصيبوا من الغنيمة، على رغم ما كان لهم من الأمر المؤكد بالبقاء في أماكنهم، وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة، فانقضَّ على العشرة الباقية بجبل الرماة حتى قتلهم، واستدار هذا الجبل حتى وصل إلى ظهور المسلمين وبدأ بتطويقهم، وصاح فرسانه صيحة عرفها المشركون فانقلبوا، ورفعت لواءهم إحدى نسائهم فالتفوا حوله وثبتوا، وبذلك وقع المسلمون بين شقي الرحى.

هجوم المشركين على رسول الله ﷺ وإشاعة مقتله :

وكان رسول الله ﷺ في مؤخرة المسلمين، ومعه سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين، فلما رأى فرسان خالد تطلع من وراء الجبل نادى أصحابه بأعلى صوت: إليّ عباد الله! وسمع صوته المشركون ـ ولعلهم كانوا أقرب إليه من المسلمين ـ فأسرعت مجموعة منهم نحو الصوت، وهاجمت رسول الله ﷺ هجومًا شديدًا، وحاولت القضاء عليه قبل أن يصل إليه المسلمون، فقال ﷺ: **«من يردهم عنا وله الجنة؟ أو هو رفيقي في الجنة»**، فتقدم رجل من الأنصار فدفعهم، وقاتلهم حتى قُتِل، ثم رهقوه فأعاد قوله: فتقدم

رجل آخر فدفعهم، وقاتلهم حتى قُتل، ثم الثالث، ثم الرابع، وهكذا حتى قُتلَ السبعة.

ولما سقط السابع لم يبق حول رسول الله ﷺ إلا القرشيان طلحة بن عبيدالله وسعد ابن أبي وقاص، فركز المشركون حملتهم على رسول الله ﷺ حتى أصابته حجارة وقع لأجلها على شقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وجرحت شفته السفلى، وهشمت البيضة على رأسه، فشجت جبهته ورأسه. وضُرِبَ بالسيف على وجنته فدخلت فيها حلقتان من حلق المغفر، وضُرِبَ أيضًا بالسيف على عاتقه ضربة عنيفة اشتكى لأجلها أكثر من شهر، وكان قد لبس درعين فلم يتهتكا.

وقع كل هذا على رغم دفاع القرشيين الدفاع المستميت، فقد رمى سعد بن أبي وقاص حتى نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: «**ارم فداك أبي وأمي**»، وقاتل طلحة بن عبيدالله وحده قتال مجموع من سبق، حتى أصابه خمسة وثلاثون أو تسعة وثلاثون جرحًا، ووقى بيده النبي ﷺ فأصيبت أصابعه حتى شلت، ولما أصيبت أصابعه قال: حس. فقال النبي ﷺ «**لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون**».

وخلال هذه الساعة الحرجة نزل جبريل وميكائيل فقاتلا عنه أشد القتال، وفاء إليه ﷺ عدد من المسلمين فدافعوا عنه أشد الدفاع، وكان أولهم أبا بكر الصديق، ومعه أبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهما - وتقدم أبو بكر لينزع حلقة المغفر عن وجه رسول الله ﷺ فألح عليه أبو عبيدة حتى نزعها هو فسقطت إحدى ثنيتيه، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت الثنية الأخرى، ثم أقبلا على طلحة بن عبيدالله فعالجاه وهو جريح.

وأثناء ذلك وصل إلى رسول الله ﷺ أبو دجانة ومصعب بن عمير وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهم، وتضاعف عدد المشركين أيضًا، واشتدت هجماتهم، وقام المسلمون ببطولات نادرة، فمنهم من يرمي، ومنهم من يدافع، ومنهم من يقاتل، ومنهم من يقي السهام على جسده.

وكان اللواء بيد مصعب بن عمير، فضربوا على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذه بيده اليسرى، فضربوا عليها حتى قطعت، فبرك عليه بصدره وعنقه حتى قتل، وكان الذي قتله هو عبدالله بن قمئة، فلما قتله ظن أنه قتل رسول الله ﷺ؛ لأن مصعبًا كان يشبهه ﷺ، فانصرف ابن قمئة وصاح: إن محمدًا قد قتل، وشاع الخبر بسرعة، وبإشاعته

تخفف هجوم المشركين، إذ ظنوا أنهم أصابوا الهدف، وبلغوا ما أرادوا.

موقف عامة المسلمين بعد التطويق :

ولما رأى المسلمون بداية عملية التطويق تشتتوا وارتبكوا، ولم يصلوا إلى موقف موحد، فمنهم من فرَّ إلى الجنوب حتى بلغ المدينة المنورة، ومنهم من فرَّ إلى شِعب أُحد ولاذ بالمعسكر، ومنهم من قصد رسول الله ﷺ وأسرع إليه، فدافع عنه كما تقدم. وبقي معظم المسلمين في دائرة التطويق، ثابتين في أماكنهم، يدفعون المطوقين ويقاتلونهم، وحيث لم يكن بينهم من يقودهم بنظام فقد حصل في صفوفهم خبط وإرباك: رجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، حتى قتل اليمان والد حذيفة بأيدي المسلمين أنفسهم، فلما سمعوا خبر مقتل النبي ﷺ طار صواب طائفة منهم، وخارت عزائمهم، واستكانوا، حتى تركوا القتال، وتشجع آخرون وقالوا: موتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ .

وبينما هم كذلك إذ رأى كعب بن مالك رسول الله ﷺ وهو يشق الطريق إليهم، فعرفه بعينيه، إذ كان وجهه تحت حلق المغفر والبيضة، فنادى كعب بصوت عال: يامعشر المسلمين!! أبشروا، هذا رسول الله ﷺ ، فبدأ المسلمون يرجعون إليه، حتى تجمع حوله ثلاثون رجلًا من أصحابه، فشق بهم الطريق بين المشركين، ونجح في إنقاذ جيشه المطوق، وسحبه إلى شِعب الجبل. وقد حاول المشركون عرقلة هذا الانسحاب، ولكنهم فشلوا تمامًا، وقُتِل منهم اثنان أثناء هذه المحاولة.

وبهذه الخطة الحكيمة نجا المسلمون، ولكن بعد أن دفعوا الثمن غاليًا لما ارتكبه الرماة من الخطأ ومخالفة أمر رسول الله ﷺ.

في الشعب :

وبعدما خرج المسلمون من دائرة التطويق، ونجحوا في التمكن من الشعب حصل بينهم وبين المشركين بعض المناوشات الخفيفة الفردية، ولم يجترىء المشركون على التقدم والمواجهة العامة، وإنما بقوا في الساحة قليلًا، مثّلوا خلاله القتلى، فقطعوا آذانهم وأنوفهم وفروجهم، وبقروا بطونهم، وبقرت هند بنت عتبة عن بطن حمزة حتى

أخرجت كبده، ولاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، واتُخِذَت من الآذان والأنوف قلائد وخلاخيل.

وجاء أُبي بن خلف متغطرسًا إلى الشعب يزعم أنه يقتل رسول الله ﷺ، فطعنه رسول الله ﷺ بحربة في ترقوته، في فرجة بين الدرع والبيضة، فتدحرج عن فرسه مرارًا، ورجع إلى قريش وهو يخور خوار الثور، فلما بلغ سرف ـ قريبًا من مكة ـ مات لأجله.

ثم جاء رجال من المشركين يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد، وعلوا في بعض جوانب الجبل، فقاتلهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ورهط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل، وتفيد بعض الروايات أن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قتل ثلاثة منهم.

وبلغ عدد قتلى المشركين اثنين وعشرين وقيل: سبعة وثلاثين، أما المسلمون فقد قُتِلَ منهم سبعون: (٤١) من الخزرج، و(٢٤) من الأوس، و(٤) من المهاجرين، وواحد من اليهود، وقيل غير ذلك.

وبعد المحاولة الأخيرة الفاشلة من أبي سفيان وخالد بن الوليد أخذ المشركون يستعدون للعودة إلى مكة.

أما رسول الله ﷺ فإنه لما تمكن من الشعب واطمأن فيه، جاءه علي ـ رضي الله عنه ـ بماء من المهراس ـ وهو ماء بأُحد ـ ليشرب منه النبي ﷺ، فوجد له ريحًا فلم يشرب منه، بل غسل به الوجه، وصبه على الرأس، فأخذ الدم ينزف من الجرح، ولا ينقطع، فأحرقت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ قطعة من حصير، وألصقته، فاستمسك الدم، وجاء محمد بن مسلمة بماء سائغ فشرب منه، ودعا له بخير، وصلى الظهر قاعدًا، وصلى المسلمون معه قعودًا.

وجاءت نسوة من المهاجرين والأنصار، فيهن عائشة، وأم أيمن، وأم سليم، وأم سليط، فكن يملأن القرب بالماء، ويسقين الجرحى، ـ رضي الله عنهن أجمعين ـ.

حوار وقرار:

ولما استعد المشركون للرجوع تمامًا أشرف أبو سفيان على الجبل، ونادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن

الخطاب؟ فلم يجيبوه، وكان النبي ﷺ هو الذي نهاهم عن الإجابة، فقال أبو سفيان: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: ياعدو الله! إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوؤك.

فقال أبو سفيان: قد كان فيكم مثلة، لم آمر بها ولم تسؤني، ثم قال: اعل هبل، فعلمهم النبي ﷺ الجواب، فأجابوه: الله أعلى وأجل.

ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم.

فعلمهم النبي ﷺ الجواب فأجابوه: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال، يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

فقال عمر - رضي الله عنه -: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

قال أبو سفيان: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذن وخسرنا ثم دعاه أبو سفيان وقال: أنشدك الله يا عمر! أقتلنا محمدًا؟

قال عمر - رضي الله عنه -: لا وإنه ليستمع كلامك الآن.

قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة، وأبر.

ثم نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام القابل.

فأمر رسول الله ﷺ أحد أصحابه أن يقول: نعم هو بيننا وبينك موعد.

رجوع المشركين وقيام المسلمين بتفقد الجرحى ودفن الشهداء :

ثم رجع أبو سفيان إلى جيشه، وأخذ الجيش في الارتحال، وقد ركب الإبل وجعل الخيل بالجنب، وكان هذا دليل قصدهم لمكة، وكان من فضل الله على المسلمين، إذ لم يكن بين المشركين وبين المدينة من يمنعهم عن الدخول فيها، ولكن صرفهم الله الذي يحول بين المرء وقلبه.

فنزل المسلمون إلى ساحة القتال يتفقدون الجرحىٰ والقتلىٰ، وقد نقل بعضهم بعض الشهداء إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بردِّهم إلى مضاجعهم، ودفنهم في ثيابهم، بغير غسل ولا صلاة، وقد دفن الاثنين والثلاثة في قبر واحد، وربما جمع بين الرجلين في ثوب واحد، وجعل بينهما الإذخر، وقدم في اللحد من كان أكثر حفظًا للقرآن، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة.

ووجدوا نعش حنظلة بن أبي عامر في ناحية فوق الأرض، يقطر منه الماء، فقال النبي ﷺ: «**إن الملائكة تغسِّله**»، وكان من قصته أنه كان حديث عهد بعرس، وكان معها إذ سمع المنادي ينادي للحرب، فتركها وخرج إلى ساحة القتال، وقاتل حتى قُتِلَ، وهو جنب، فغسَّلَته الملائكة فَسُمِّي غسيل الملائكة.

وكفن حمزة في برد إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه، فجعلوا على رجليه الإذخر، وكذلك مصعب بن عمير.

إلى المدينة وفي المدينة :

ولما فرغ رسول الله ﷺ والمسلمون من دفن الشهداء، والدعاء لهم، رجعوا إلى المدينة، وقد خرجت نسوة قُتِل أقاربهن، فلقين رسول الله ﷺ في الطريق، فعزاهن ودعا لهن، وجاءت امرأة من بني دينار قُتِل زوجها وأخوها وأبوها، فلما نعوا لها سألت عن رسول الله ﷺ ، فقالوا لها: إنه بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه، فأشاروا لها، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل: أي صغيرة.

وبات المسلمون في حالة الطوارىء، يحرسون المدينة، ويحرسون رسول الله ﷺ، وهم منهكون من الجرح والتعب، والحزن والألم، ورأى رسول الله ﷺ أنه لابد من متابعة حركات العدو حتى يناجزه في الميدان لو حاول العودة إلى المدينة.

غـزوة حمراء الأسد :

فلما أصبح نادىٰ في المسلمين أن يخرجوا للقاء العدو، ولا يخرج إلا من شهد القتال بأُحد، فقالوا: سمعًا وطاعة، وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة، وعسكروا هناك.

أما المشركون فكانوا نازلين بالروحاء، على بعد ستة وثلاثين ميلًا من المدينة، يفكرون ويتشاورون في العودة إليها، ويتأسفون على ما فاتهم من الفرصة الصالحة.

وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي من المناصحين لرسول الله ﷺ ، فجاءه بحمراء الأسد، وعزَّاه على ما أصابه في أُحُد، فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبا سفيان ويخذله، فلحقهم بالروحاء، وقد أجمعوا ليعودوا إلى المدينة، فخوَّفهم أشد التخويف، وقال:

إن محمدًا خرج في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، ولا أرى أن ترتحلوا حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة.

فلما سمعوا هذا خارت عزائمهم، وانهارت معنوياتهم، واكتفى أبو سفيان بحرب أعصاب دعائية، إذ كلف من يقول للمسلمين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] حتى لا يطارده المسلمون، وعجَّل الارتحال إلى مكة.

أما المسلمون فلم يؤثر فيهم هذا الإنذار، بل: ﴿... فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وبقوا في حمراء الأسد إلى يوم الأربعاء، ثم رجعوا إلى المدينة: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

أحداث وغزوات

كان لما أصاب المسلمين بأُحُد أثر سيء على سمعتهم، إذ تجرأ الأعداء، وكاشفوهم بالنزال، ووقعت عدة أحداث لم يكن بعضها في صالح المسلمين، ونكتفي هنا بذكر الأهم منها فقط.

حادث الرجيع:

قدم رجال من عضل وقارة إلى رسول الله ﷺ، وذكروا له أن فيهم إسلامًا، وطلبوا منه أن يبعث إليهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث عشرة من أصحابه، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت، فلما كانوا بالرجيع غدروا بهم، واستصرخوا عليهم بني لحيان من هذيل، فلحقهم قريب من مائة رام، وأحاطوا بهم، وهم في مكان مرتفع، فأعطوهم العهد إن نزلوا أن لا يقتلوهم، فأبىٰ عاصم النزول، وقاتل مع أصحابه، فَقُتلَ منهم سبعة، وبقي ثلاثة، فأعطاهم الكفار العهد مرة أخرى، فنزلوا، فغدروا بهم، وربطوهم، فقال أحد الثلاثة، هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم فقتلوه، وانطلقوا بالاثنين الآخرين إلى مكة، وهما خبيب بن عديٍّ، وزيد بن الدثنة، فباعوهما، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر بن نوفل يوم بدر، فاشترته بنته أو أخوه، وسجنوه فترة ثم خرجوا به إلى التنعيم ليقتلوه، فصلى ركعتين، ثم دعا عليهم، ثم قال فيما قال:

ولست أبالي حين أُقْتَلَ مسلمًا
على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

فقال له أبو سفيان: أيسُرُّك أن محمدًا عندنا نضرب عنقه، وإنك لفي أهلك؟ فقال: والله ما يسرني أني في أهلي، وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، ثم قتله عقبة بن الحارث بن عامر بأبيه.

وأما زيد بن الدثنة فكان قتل أمية بن محرث يوم بدر، فابتاعه ابنه صفوان بن أمية،

وقتله بأبيه، وقد نسب إليه ما تقدم من قول أبي سفيان وردَّ خبيب عليه

وبعثت قريش ليؤتى بجزء من جسد عاصم، فبعث الله الزنابير فحمته منهم، وكان عاصم قد عهد الله أن لا يمسه مشرك، ولا يمس هو مشركًا في حياته، فحفظه الله بعد وفاته.

مأساة بئر معونة :

وفي نفس أيام حادثة الرجيع حدثت مأساة أخرى أشد منها، وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك، المدعو بملاعب الأسنة، قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فلم يسلم، ولم يبعد، ولكنه أبدىٰ رجاءه أن أهل نجد يجيبونه إلى الإسلام إذا بعث إليهم الدعاة، وقال: أنا جار لهم، فبعث إليهم رسول الله ﷺ سبعين داعيًا من قراء الصحابة، فنزلوا على بئر معونة، وذهب حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلًا فطعنه من خلفه حتى أنفذ الرمح، فقال حرام: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

واستنفر عدو الله بني عامر فلم يجيبوه، لجوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته بطون منها: رعل وذكوان وعصية، فأحاطوا بالصحابة، وقتلوهم عن آخرهم، ولم ينج إلا كعب بن زيد، وعمرو بن أمية الضمري، فأما كعب بن زيد فكان جريحًا، وظنوه قتيلًا، فارتث من بين القتلى، فعاش حتى قُتِلَ يوم الخندق، وأما عمرو بن أمية الضمري، فكان مع المنذر بن عقبة في السرح، فلما رأيا الطير تحوم على الموقعة عرفا الحادث، فنزل المنذر، وقاتل حتى قُتلَ، وأُسِرَ عمرو بن أمية، فأخبر عامر بن الطفيل أنه من مضر، فجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية إلى المدينة، فلما كان بالقرقرة من الطريق وجد رجلين من بني كلاب، ظنهما من العدو فقتلهما، وكان لهما عهد من رسول الله ﷺ فلما قدم المدينة وأخبر رسول الله ﷺ قال: قتلت قتيلين لأدينهما.

وقد حزن رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا على ما حدث بالرجيع وببئر معونة، وكان الحادثان في شهر واحد ـ شهر صفر سنة (٤هـ) ـ ويقال: إن خبر الحادثين وصل إليه ﷺ في ليلة واحدة، فدعا على هؤلاء القتلة ثلاثين صباحًا في صلاة الفجر، حتى أنزل الله عن الشهداء: أبلغوا عنا قومنا: أنا لقينا ربنا، فرضي عنا، ورضينا عنه. فترك القنوت.

غـزوة بني النضـير

تآمر بنو النضير مؤامرة أخبث من عضل وقارة، ومن الغادرين بأصحاب بئر معونة. فقد طلبوا من رسول الله ﷺ أن يجتمع بهم في موضع يسمعون منه القرآن والإسلام، ويناقشونه، ويؤمنون به إن اقتنعوا، فتم الاتفاق على ذلك، وقرر هؤلاء الأشرار فيما بينهم أن يأتي كل رجل منهم بخنجر تحت ثيابه، فيغتالون النبي ﷺ بغتة وعلى غرة. فوصل الخبر إلى رسول الله ﷺ فقرر إجلاءهم.

وقيل: لما رجع عمرو بن أمية الضمري ـ رضي الله عنه ـ وأُخْبِرَ بقتل رجلين من بني كلاب، ذهب النبي ﷺ إلى بني النضير في نفر من الصحابة، ليعينوه في ديتهما حسب الميثاق، فقالوا نفعل يا أبا القاسم! اجلس ههنا، حتى نقضي حاجتك، فجلس إلى جنب جدار ينتظر، وخلا بعضهم ببعض، وركبهم الشيطان، فقالوا أيكم يأخذ هذه الرحى ويصعد، فيلقيها على رأسه؟ فانبعث أشقاهم عمرو بن جحاش، ونزل جبريل يخبر النبي ﷺ بما أرادوا، فقام مسرعًا وتوجه إلى المدينة، ثم لحقه أصحابه، فأخبرهم بالمؤامرة وقرر إجلاءهم.

ثم بعث إليهم محمد بن مسلمة يقول لهم: اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشرًا، فمن وُجِدَ بعده يُضرب عنقه، فتجهزوا أيامًا للرحيل، ثم أرسل إليهم رئيس المنافقين عبدالله بن أُبي: أن اثبتوا ولا تخرجوا، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصونكم، ويموتون دونكم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١] وينصركم قريظة وغطفان، فشعروا بالقوة وامتنعوا، وقالوا لرسول الله ﷺ : إنا لا نخرج، فاصنع ما بدا لك.

فكبَّر رسول الله ﷺ وكبَّر أصحابه، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى اللواء عليًّا، وسار إليهم، حتى فرض عليهم الحصار، فالتجأوا إلى حصونهم، وأخذوا يرمون المسلمين بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم، فأمر النبي ﷺ بقطعها وتحريقها، فانهارت عزائمهم، وألقىٰ الله الرعب في قلوبهم، فاستسلموا بعد ست ليال، وقيل: بعد خمس عشرة ليلة، على أنهم يخرجون من المدينة، واعتزلتهم

قريظة، وخانهم رأس المنافقين وحُلفاؤهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

وسمح لهم رسول الله ﷺ بأن يحملوا معهم ما يشاؤون من الأمتعة والأموال إلا السلاح، فحملوا ما استطاعوا، حتى قلعوا من بيوتهم الأبواب والشبابيك، والأوتاد وجذوع السقف، وحملوها فيما حملوه، وهذا الذي قال الله عنه: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] ونزل أكثرهم وأكابرهم بخيبر، ونزلت طائفة منهم بالشام.

وقسَّم رسول الله ﷺ أرضهم وديارهم بين المهاجرين الأولين خاصة، وأعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف من الأنصار لفقرهما، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ويجعل ما بقي في السلاح والخيول عدة في سبيل الله، وقد وجد عندهم من السلاح خمسين درعًا، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفًا.

غـزوة بـدر الموعـد:

ذكرنا أن أبا سفيان كان قد تواعد في أُحد على حرب في العام القادم، فلما دخل شهر شعبان من سنة (٤هـ) خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حسب الموعد، وأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان، وكان معه ألف وخمسمائة مقاتل، وعشرة أفراس، وأعطى اللواء علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبدالله بن رواحة.

أما أبو سفيان فإنه خرج في ألفي مقاتل، وخمسين فرسًا، حتى انتهى إلى مر الظهران، ونزل على مجنة - ماء مشهور في تلك الناحية - وكان قد أخذه الرعب منذ خروجه، فقال لأصحابه: لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وهذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا فرجعوا ولم يبدوا أي معارضة.

وقد باع المسلمون أيام إقامتهم ببدر ما كان معهم من أموال التجارة، وربحوا درهمين بدرهم، ثم رجعوا وقد هابهم كل عدو، وساد الأمن في كل جانب، حتى مضى أكثر من سنة ولم يجترىء الأعداء على أن يحركوا ساكنًا، واستطاع رسول الله ﷺ بفضل هذا الأمن أن يتفرغ لتأمين أقصى الحدود، حتى خرج لتأديب قُطَّاع الطرق إلى دومة الجندل في ربيع الأول سنة (٥هـ) فبسط الأمن والسلام في كل جانب.

غـزوة الأحـزاب

كاد رسول الله ﷺ والمسلمون يتفرغون لنشر دينهم، وإصلاح أحوالهم، بعد أن ساد الهدوء بفضل ما اتخذه رسول الله ﷺ من الخطط الحكيمة، فلم يحصل بعد غزوة بني النضير أي مواجهة تذكر، لفترة تجاوز سنة ونصف سنة، ولكن تلك هي اليهود - الذين سماهم المسيح عليه السلام: حيات وأولاد الأفاعي - لم يرقهم أن يستريح المسلمون، فهم بعد ما استقروا بخيبر، واطمأنوا بها أخذوا يدبرون المؤامرات، ويتحركون وراء الستار، حتى نجحوا في جلب جيش عرمرم من قبائل العرب ضد أهل المدينة.

يقول أهل السير: إن عشرين رجلًا من ساداتهم وزعمائهم خرجوا إلى قريش، يحرضونهم على غزو المدينة، ووعدوهم بالنصر، فأجابت لهم قريش، ثم ذهبوا إلى غطفان، فأجابوا، ثم طافوا في القبائل فأجاب عدد منها، ثم حركوا هؤلاء القوم جميعًا تحت خطة منسقة حتى يصل الجميع إلى أطراف المدينة في زمن واحد.

الشورى وحفر الخندق:

وبلغ خبر تجمعهم وتحركهم إلى المدينة، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، فأشار سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ بحفر الخندق، فاستحسنوه واتفقوا عليه.

وحيث إن المدينة تحيط به اللابات أي الحرات ـ وهي الحجارة السود ـ من الشرق والغرب والجنوب، ولا تصلح لدخول العساكر إلا جهة الشمال فإن رسول الله ﷺ اختار في تلك الجهة أضيق مكان بين الحرة الشرقية والغربية - وهو نحو ميل - فوصل الحرتين بحفر الخندق في هذا المكان، وبدأ هذا الخندق في جهة المغرب من شمال جبل سلع، ووصله في الشرق برأس ممتد من حجارة الحرة الشرقية عند أطم الشيخين.

وقد وكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا أربعين ذراعًا، واشترك معهم رسول الله ﷺ في حفر الخندق ونقل التراب، وكان يرتجزون فيجيب، ويرتجز فيجيبون، وقد كابدوا أثناء حفره أنواعًا من المشقة، ولا سيما شدة البرد، وشدة الجوع، وكان يؤتي

لهم بملء كف من الشعير، فيصنع بدسم يفوح منها الريح، فيأكلونه، وهو يصعب مروره على الحلق، وشكوا إلى رسول الله ﷺ الجوع، وأروه على بطونهم حجرًا حجرًا كانوا قد ربطوه، فأراهم على بطنه حجرين.

وقد وقعت أثناء الحفر بعض الآيات، رأى جابر شدة الجوع في رسول الله ﷺ فلم يصبر، فذبح بهيمة له، وطحنت امرأته صاعاً من شعير، ثم دعا رسول الله ﷺ سرًّا، في نفر من أصحابه، فقام رسول الله ﷺ بجميع أهل الخندق، وهم ألف، فأكلوا وشبعوا وما زالت البرمة تغط، والعجين يخبز، وذهبت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر لأبيه وخاله، فبدده رسول الله ﷺ فوق ثوب، ودعا أهل الخندق، فأكلوا ورجعوا، والتمر يسقط من أطراف الثوب.

وعرضت لجابر وأصحابه أثناء الحفر كدية شديدة، فنزل رسول الله ﷺ وضربها بالمعول، فعادت كثيبًا أهيل، أي رملًا لا يتماسك، وعرضت لبراء وأصحابه صخرة، فنزل رسول الله ﷺ وقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة بالمعول فقطع قطعة، وخرج منها ضوء، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، وإني لأنظر إلى قصورها الحمراء الساعة. ثم ضرب الثانية، وبشر بفتح فارس، ثم الثالثة، وبشر بفتح اليمن وانقطعت الصخرة.

بين طرفي الخندق:

وأقبلت قريش ومن تبعهم في أربعة آلاف، ومعهم ثلاثمائة فرس، وألف بعير، يرأسهم أبو سفيان، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، فنزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة. وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف، فنزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد، وكان قدوم هذا الجيش العرمرم إلى أسوار المدينة بلاء شديدًا ومخيفًا جدًّا كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ○ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١٠، ١١] فثبت الله المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢] أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ

وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢].

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وجعل النساء والذراري في الآطام، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع وتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار.

وبعد أن استقر المشركون وتهيأوا تقدموا نحو المدينة، فلما اقتربوا من المسلمين فوجئوا بخندق عريض يحول بينهم وبين المسلمين، فبهتوا، وقال أبو سفيان: تلك مكيدة ما عرفتها العرب، فأخذوا يدورون حوله في طيش وغضب، يطلبون نقطة يعبرون منها، والمسلمون يرشقونهم بالنبل، حتى لا يقتربوا منه، فيتمكنوا من الاقتحام، أو من إهالة التراب وبناء الطريق عليه.

واضطر المشركون إلى فرض الحصار على المدينة، بينما لم يكونوا مستعدين له، إذ لم يكن ذلك في حسابهم عند الخروج، فأخذوا يخرجون في النهار يحاولون عبور الخندق، والمسلمون يجابهون لهم على طول الخط، يناضلون ويرامون بالحجارة، وقد كثف المشركون جهودهم مرارًا، وأداموها طول النهار، واضطر المسلمون إلى الاستمرار في الدفاع، حتى فاتت منهم ومن رسول الله ﷺ الصلوات، ولم يتمكنوا من أدائها إلا بعد غروب الشمس، أو قريبًا من ذلك، ولم تكن صلاة الخوف قد شرعت حينذاك.

وفي أحد الأيام خرج نفر من فوارس المشركين فيهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وغيرهم، فقصدوا مكانًا ضيقًا من الخندق، واقتحموه، وجالت بهم خيلهم في الساحة التي بين الخندق وجبل سلع، فخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فحال بينهم وبين المكان الذي اقتحموا منه الخندق، فدعا عمرو بن عبد ود إلى المبارزة، وكان جريئًا فاتكًا، فأغضبه علي حتى نزل من الفرس، فتجاولا وتصاولا حتى قتله علي، وانهزم الباقون وقد ملأهم الرعب، حتى ترك عكرمة رمحه، وسقط نوفل بن عبدالله في الخندق فقتله المسلمون.

وأصيب أثناء المراماة عدد قليل من الطرفين، وبلغ عدد قتلى المشركين عشرة، وقتلى المسلمين ستة.

وأصيب سعد بن معاذ بسهم قطع أكحله، فدعا الله أن يبقيه إن كان قد بقي من حرب قريش شيء، وإلا فيجعل موته في هذا الجرح، ثم قال: في دعائه: ولا تمتني حتى تقر عيني من قريظة.

غدر بني قريظة وأثره على سير الغزوة :

وكانت قريظة في عهد مع رسول الله ﷺ - وقد سبق ذكره - فجاء حيي بن أخطب سيد بني النضير، أثناء هذه الغزوة، إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة، فحسَّن له الغدر، وأغراه على نقض العهد، فنقض كعب العهد، وقام إلى جانب قريش والمشركين.

وكانت قريظة في جنوب المدينة، والمسلمون في شمالها، ولم يكن من يحول بين قريظة وبين نساء المسلمين وذراريهم، فكان الخطر عليهم شديدًا، وبلغ الخبر رسول الله ﷺ فأرسل مسلمة بن أسلم في مائتين، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة، لحراسة ذراري المسلمين، وأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في رجال من الأنصار يستجلون له الخبر، فوجدوا اليهود على أخبث ما يكونون، فقد جاهروا بالسَّبِّ والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فرجعوا وقالوا لرسول الله ﷺ: عضل وقارة: «يعني أن قريظة على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع».

وتفطن الناس، فاشتد خوفهم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١٠، ١١] ونجم النفاق حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وقال آخرون: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢] وقالت طائفة منهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾، وأراد فريق منهم الفرار فاستأذنوا النبي ﷺ وقالوا محتالين: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ وما هي بعورة.

قلق رسول الله ﷺ حين بلغه غدرهم، فتقنع بالثوب واضطجع، ومكث هكذا طويلاً، ثم نهض وقال: الله أكبر، وبشر المسلمين بالفتح والنصر.

وأراد أن يرسل إلى عيينة بن حصن، ليصالحه على ثلث ثمار المدينة، وينسحب هو

بغطفان، فأبى ذلك سيدا الأنصار: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وقالا: كنا نحن وهؤلاء على الشرك، ولم يطمعوا أن يأكلوا منها ثمرة، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله! لا نعطيهم إلا السيف، فصوب رأيهما.

تخاذل الأطراف ونهاية الغزوة:

ولله في خلقه شؤون، فقد جاء أثناء هذه الظروف القاسية نعيم بن مسعود الأشجعي، وهو من غطفان، وكان صديقًا لقريش واليهود، فقال: يارسول الله! إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال: أنت رجل واحد، وماذا عسى أن تفعل، ولكن خذِّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة.

فذهب نعيم إلى قريظة، فلما رأوه أكرموه، فقال: تعرفون ودي لكم، وخاصة ما بيني وبينكم، وإني محدثكم حديثًا فاكتموه عني، قالوا: نعم، قال: قد رأيتم ماوقع لبني قينقاع، والنضير، وقد ظاهرتم قريشًا وغطفان، وهم ليسوا مثلكم، فالبلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وأما بلدهم وأموالهم ونساؤهم فبعيدة، فهم إن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم، وتركوكم ومحمدًا ينتقم منكم كيف يشاء، قالوا: فما العمل؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن.

قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم توجه نعيم إلى قريش واجتمع برؤسائهم، وقال: تعلمون ودي لكم ونصحي إليكم، قالوا: نعم، قال: فإني محدثكم حديثًا فاكتموه عني، قالوا: نفعل، قال: فإن يهود قد ندموا على نقضهم عهد محمد، وخافوا أن ترجعوا وتتركوهم معه، فراسلوه أن يأخذوا منكم رهائن، ويدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فرضي بذلك، فاحذروهم. وإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، وقال لهم مثل ذلك.

وبهذا التدبير الحكيم تشككت النفوس وتشققت، وأرسل أبو سفيان وفدًا إلى قريظة يدعوهم إلى القتال غدًا، فقالوا: إن اليوم يوم السبت، ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدي فيه، ثم إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن منكم، لكي لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم، فقالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، وأرسلت قريش إلى اليهود

تقول لهم: لا نرهنكم أحدًا، واخرجوا للقتال، فقالوا: صدقكم والله نعيم، فخارت عزائم الفريقين وتخاذلوا.

أما المسلمون فكانوا يدعون: (اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا) وابتهل رسول الله ﷺ إلى ربه عز وجل: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**» فأرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا من الملائكة، فزلزلوهم وقذفوا في قلوبهم الرعب، وكفأت الريح قدورهم، وقلعت خيامهم، وضربهم البرد القارس حتى لم يقر لهم قرار، وبدؤوا يتهيأون للرحيل.

وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة - رضي الله عنه - إليهم ليأتي بخبرهم، فذهب ودخل بينهم، ثم رجع ولم يجد مس البرد، بل كأنه كان في حمام - الذي يغتسلون فيه بالماء الحميم أي الحار - فلما رجع أخبر برحيل القوم ونام، فلم أصبح المسلمون رأوا ساحة القتال من جهة الكفار ليس فيها داع ولا مجيب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

كانت بداية هذه الغزوة في شوال سنة (٥هـ) ونهايتها بعد نحو شهر في ذي القعدة، وكانت أكبر محاولة قام بها أعداء الإسلام لضرب المدينة، وللقضاء عليها، وعلى الإسلام والمسلمين، ولكن الله خيَّبهم، وردَّ كيدهم في نحورهم، وكان فشلهم بمجموع هذه القوات يعني أن الطوائف الصغيرة والمتفرقة أولى أن لا تجترىء على التوجه إلى المدينة، وقد أخبر بذلك النبي ﷺ فقال: «**الآن نغزوهم، لا يغزونا، نحن نسير إليهم**».

غزوة بني قريظة

ورجع رسول الله ﷺ من الخندق، ونزع السلاح والثياب، وبينما هو يغتسل في بيت أم سلمة جاءه جبريل - عليه السلام - وأمره بالنهوض إلى بني قريظة، وقال: إني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، ثم سار في موكبه من الملائكة.

أما رسول الله ﷺ فأعلن في الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلينَّ العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطىٰ الراية لعلي بن أبي طالب، وقدَّمه في جماعة إليهم، فلما رأوه سَبُّوا الرسول ﷺ وقالوا قبيحًا، وبادر المسلمون في الخروج، وأدركت بعضهم العصر في الطريق فمنهم من صلى، ومنهم من أخَّر حتى وصل إلى بني قريظة، وخرج رسول الله ﷺ في موكب المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبارهم اسمها: «أنا».

وألقىٰ الله في قلوبهم الرعب، فتحصنوا في حصونهم، ولم يجترئوا على القتال، وحاصرهم المسلمون بشدة، فلما طال عليهم الحصار أرادوا أن يستشيروا بعض حلفائهم من المسلمين، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة ليستشيروه، فأرسله، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه - يريد أنه الذبح - ثم تنبه أنه بإشارته هذه خان الله ورسوله، فمضى على وجهه، حتى أتى المسجد النبوي، وربط نفسه بسارية من سواريه، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره قال: **«أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، أما إذ فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه»**.

ومع طول الحصار انهارت معنويات بني قريظة، حتى نزلوا بعد خمس وعشرين ليلة على حكم رسول الله ﷺ ، فاعتقل الرجال، وجعل النساء والذراري بمعزل عنهم في ناحية، وطلب حلفاؤهم الأوس أن يحسن إليهم، كما فعل ببني قينقاع حلفاء

الخزرج، فقال: «**ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟**» قالوا: بلى. قال: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**» قالوا: قد رضينا.

وكان سعد في المدينة للجرح الذي أصابه أثناء غزوة الخندق، فجاؤوا به راكبًا على حمار، فلما قرب من رسول الله ﷺ قال: «**قوموا إلى سَيدِكم**» فقاموا إليه، وأحاطوا به من جانبيه، يقولون: ياسعد! أحسن في مواليك، وهو ساكت لا يجيب، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فلما سمعوا ذلك رجع بعضهم إلى المدينة، ونعى إليهم القوم.

ولما نزل سعد، وأُخبر بنزول قريظة على حكمه، حكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسَّم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات**». وقد كان هذا الحكم أيضًا طِبقًا لشريعة اليهود، بل أرفق وأرحم من حكم شريعتهم.

وعلى إثر هذا القضاء الذي قضى به سعد بن معاذ أُتى ببني قريظة إلى المدينة، فحبسوا في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم ذهب بهم إلى هذه الخنادق أرسالًا أرسالًا، وضربت أعناقهم فيها، وكانوا أربعمائة، وقيل: ما بين الستمائة إلى السبعمائة.

وقتل معهم حيي بن أخطب سيد بني النضير، وكان من زعماء اليهود العشرين الذين حرضوا قريشًا وغطفان على غزوة الأحزاب، ثم كان قد جاء إلى قريظة، وأغراهم على نقض العهد، حتى غدروا بالمسلمين في أحرج ساعة من حياتهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن يكون معهم، يصيبه ما يصيبهم، فكان معهم في حصونهم أثناء الحصار والاستسلام حتى قتل.

وقد أسلم نفر من بني قريظة قبل النزول فلم يتعرض لهم، واستوهب بعضهم، فتركوا وأسلموا، وقتلت امرأة من نسائهم، لأنها كانت قد طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته، وجمع السلاح والأموال فكانت ألفًا وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وخمسمائة ترس وحجفة، وأثاثًا كثيرًا، وآنية وجمالًا وشياهًا، فخمس كل ذلك مع النخل والسبي، فأعطى للراجل سهمًا، وللفارس ثلاثة أسهم، سهمًا لنفسه،

وسهمين لفرسه.

وأرسلت السبايا إلى نجد فابتيع بها السلاح، واصطفى النبي ﷺ منها ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خناقة، فيقال: إنه تسرى بها، ويقال: أعتقها وتزوجها، فتوفيت بعد حجة الوداع.

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة سعد بن معاذ، وكان في خيمة في المسجد النبوي، ليعوده النبي ﷺ من قريب، فمرت عليه شاة فانتقض جرحه، وانفجر من لبته، فسال الدم الغزير حتى توفي لأجله، وحملت جنازته الملائكة مع المسلمين، واهتز لموته عرش الرحمن.

ومضى على أبي لبابة ست ليال تأتيه امرأته فتحله للصلاة، ثم يعود فيربط نفسه بالجذع، ثم نزلت توبته في بيت أم سلمة - رضي الله عنها - فبشرته بها، فثار الناس ليطلقوه فأبى حتى يطلقه رسول الله ﷺ، ففعل حين مر به لصلاة الصبح.

وقد قام المسلمون بعد غزوة بني قريظة بعدة أعمال عسكرية أهمها ما يأتي:

مقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق:

هو تاجر أهل الحجاز، ورئيس يهود خيبر، وأحد كبار المحركين والمؤلبين للأحزاب على أهل المدينة، فلما تفرغ المسلمون من الأحزاب وقريظة انتدب لقتله خمسة من رجال الخزرج، ليحوزوا شرفًا مثل شرف الأوس حين قتلوا كعب بن الأشرف.

ووصل هؤلاء إلى حصنه في جهة خيبر حين غربت الشمس، فقال قائدهم عبدالله ابن عتيك: مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب، لعلي أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته، فهتف به البواب: يا عبدالله! إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب.

فدخل عبدالله بن عتيك، وكمن حتى نام الناس، فأخذ المفاتيح، وفتح الباب ليسهل له الهروب عند الحاجة، ثم توجه إلى بيت أبي رافع، فكان كلما فتح بابًا أغلقه من داخل حتى لو علم به الناس لا يصلون إليه حتى يقتل أبا رافع، فلما انتهى إلى بيته فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا يدري أين هو، فناداه: يا أبا رافع! قال: من هذا؟ فأهوى نحو الصوت وضربه ضربة بالسيف، وهو دهش، فما أغنت شيئًا، فخرج ثم جاء مغيرًا صوته، كأنه يغيثه، وقال: ما هذا

الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلًا في البيت ضربني بالسيف، فعمد إليه وضربه ضربة أثخنته، ولم يقتله، فوضع السيف في بطنه وتحامل عليه حتى أخذ في ظهره، ثم خرج يفتح الأبواب بابًا بابًا، والليل مقمر، وبصره ضعيف، فظن أنه وصل إلى الأرض، فقدم رجله فوقع من السلم، فأصيبت رجله فعصبها بعمامته، واختفى عند الباب، فلما صاح الديك قام رجل على سور الحصن وقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز فعرف أنه مات، فأتى أصحابه، ورجعوا، فلما انتهوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه، ومسح رسول الله ﷺ رجله فكأنه لم يشتكها قط.

أسر ثمامة بن أثال سيد اليمامة:

كان ثمامة من أشد الناس كراهية لرسول الله ﷺ ولدينه الإسلام، حتى خرج متنكرًا في المحرم سنة (٦هـ) يريد اغتيال النبي ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب، وكان النبي ﷺ قد أرسل محمد بن مسلمة في ثلاثين راكبًا لتأديب بني بكر بن كلاب في ناحية ضرية على بعد سبع ليال من المدينة في طريق البصرة، فلما كانوا راجعين وجدوا ثمامة في الطريق فأسروه، وجاؤوا به إلى المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد، فمر به النبي ﷺ فقال: **«ماذا عندك يا ثمامة؟»** قال: عندي خير يامحمد! إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل، تعط منه ما شئت، فتركه، ثم مر به اليوم الثاني، ودار نفس الحديث، ثم اليوم الثالث كذلك، فقال: أطلقوا ثمامة، فأطلقوه، فاغتسل وأسلم، وقال: والله! ما كان على ظهر الأرض من وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، ووالله! ماكان على وجه الأرض من دين أبغض إليَّ من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إليَّ.

وفي العودة ذهب ثمامة إلى مكة معتمرًا، فلامته قريش على إسلامه، فقال: والله! لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، فلما انصرف منع بيع الحنطة لأهل مكة، فجهدوا حتى كتبوا إلى النبي ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يسمح ببيع الطعام لهم، ففعل ﷺ.

غزوة بني لحيان:

بنو لحيان هم الذين كانوا قتلوا المسلمين بالرجيع، وكانوا متوغلين في الحجاز إلى

حدود عسفان، فأخَّر رسول الله ﷺ أمرهم، حتى إذا تخاذلت الأحزاب، واطمأن من الأعداء استعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج إليهم في ربيع الأول سنة (٦هـ) في مائتين من الصحابة، ومعهم عشرون فرسًا، وأسرع السير إليهم حتى بلغ بطن غران - وادٍ بين أمج وعسفان - حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم، ودعا لهم، وأقام في ذلك المكان يومين، أما بنو لحيان ففروا في رؤوس الجبال، فلم يجد منهم أحدًا، وأرسل عشرة فوارس إلى عسفان، لتسمع بهم قريش فيداخلهم الرعب، فذهبوا إلى كراع الغميم، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها أربع عشرة ليلة.

سرية العيص وإسلام أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ :

في جمادي الأولى سنة (٦هـ) أرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى العيص، في مائة وسبعين راكبًا، يعترضون عيرًا لقريش قادمة من الشام، كان يرأسها أبو العاص بن الربيع زوج بنت رسول الله ﷺ فأخذها المسلمون، وأخذوا ما فيها، وأسروا رجالها، وأفلت أبو العاص فجاء إلى المدينة، واستجار بزينب، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ أن يرد عليه أموال العير ففعلت، ورد عليه كل شيء، الصغير والكبير والقليل والكثير.

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارة ومالًا وأمانة، فرجع إلى مكة، وأدَّى الأمانات إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول، وذلك بعد ثلاث سنوات ونيف، ولم تكن آية تحريم المسلمات على الكفار نزلت إلى ذلك الوقت، فكان النكاح باقيًا على حاله.

هذا، وقد أرسل رسول الله ﷺ عدة سرايا خلال هذه الفترة، كان لها أثر بالغ في كبح جماح العدو، وإخماد شره، واستتباب الأمن وبسط السلام إلى أماكن بعيدة، ثم نقل إليه ﷺ ما أدَّى إلى قيامه بغزوة بني المصطلق.

غزوة بني المصطلق ، وهي غزوة المريسيع

بنو المصطلق فرع من قبيلة خزاعة، وكانت عامة بطون خزاعة ممالئين لرسول الله ﷺ، ناصحين له، ولكن كان هذا الفرع منها ممالئًا لقريش، وقد نُقِل إلى رسول الله ﷺ أنهم يستعدون لقتاله، فبعث بريدة بن الحصيب لتحقيق هذا الخبر، فتأكد لديه صحته، فاستعمل على المدينة زيد بن حارثة - وقيل: غيره - وأسرع في الخروج إليهم، ليباغتهم بالهجوم، ومعه سبعمائة من الصحابة، وكان بنو المصطلق نازلين على ماء يسمى بالمريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فأغار عليهم وهم غارون، فقتل بعضهم، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، وذلك لليلتين من شعبان سنة (٦هـ) - وقيل: (٥هـ) - وكان في السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق، فلما قدم ﷺ المدينة أعتقها وتزوجها بعد أن أسلمت، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا أصهار رسول الله ﷺ فكانت أعظم النساء بركة على قومها.

تلك هي غزوة بني المصطلق بإيجاز، ليس فيها ما يستغرب، لكن وقعت خلالها حادثتان مؤلمتان استغلهما المنافقون لإثارة الفتن والاضطراب في المجتمع الإسلامي، وحتى في البيت النبوي وهما:

الحادثة الأولى: قول رأس المنافقين: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل:

وسبب ذلك أن رجلاً من حلفاء المهاجرين وآخر من حلفاء الأنصار ازدحما على ماء المريسيع، فضرب المهاجري الأنصاري، فقال الأنصاري: ياللأنصار وقال المهاجري: ياللمهاجرين، واجتمع ناس من الطرفين، فبادرهم رسول الله ﷺ وقال: **«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة»**، فعاد الناس إلى رشدهم ورجعوا.

وكانت جماعة من المنافقين قد خرجت في هذه الغزوة، لم تخرج من قبل، ومعهم رئيسنهم عبدالله بن أُبي، فلما بلغه الخبر استشاط غضبًا، وقال: أو قد فعلوها، قد

نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عُدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، أراد بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ ـ العياذ بالله ـ وأخذ يدبر لذلك الفتن، حتى قال لرفقائه: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم لتحولوا إلى غير داركم.

وكان معهم حينما قال ما قال شاب مؤمن قوي الإيمان: زيد بن أرقم، لم يصبر على هذا الهراء حتى أبلغ الخبر رسول الله ﷺ ، فدعا ﷺ ابن أُبي، وسأله عن ذلك، فحلف أنه لم يقل شيئًا مما بلغه، فأنزل الله سورة المنافقين، وفضحه إلى يوم الدين.

وكان ابن هذا المنافق - واسمه أيضًا عبدالله - مؤمنًا خالصًا، فوقف على نقب المدينة مستلًا سيفه، وقال لأبيه رأس المنافقين: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل إليه أن يأذن له، فخلَّى سبيله، وبهذه الحكمة انتهت هذه الفتنة.

الحادثة الثانية: قول المنافقين بالإفك.

وحديث ذلك أن النبي ﷺ نزل في عودته من تلك الغزوة منزلًا حين دنا من المدينة، ثم آذن بالرحيل ليلًا، وكانت معه عائشة - رضي الله عنها - فخرجت لحاجتها، فلما رجعت التمست صدرها فرأت أنها فقدت عقدها، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه حتى وجدته، وارتحل الجيش، وحملوا هودجها على بعيرها ظنًّا منهم أنها فيه، ولم ينكروا خفة الهودج لكونهم جماعة، ولكونها خفيفة، ورجعت عائشة إلى منازلهم فلم تجد أحدًا، فقعدت هناك على أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها إلى هذا المكان، فغلبت عيناها حتى نامت.

وكان أحد الصحابة - وهو صفوان بن المعطَّل السلمي رضي الله عنه - قد بات من وراء الجيش، وكان كثير النوم فلم يستيقظ إلا مؤخرًا، فسلك سبيل الجيش، فلما تقدم رأى سواد إنسان نائم، فلما قرب منه عرف أنها عائشة، لأنه كان رآها قبل الحجاب، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ؟ لم يقل كلمة غير ذلك، واستيقظت عائشة - رضي الله عنها - بسماع صوته، فخمَّرت وجهها بجلبابها، وقرَّب صفوان

راحلته، وأناخها فركبت، وأمسك هو زمام الناقة يمشي أمامها حتى وصل إلى الجيش، وهم نازلون في نحر الظهيرة.

ولما رأى ذلك عدو الله ابن أُبي وجد متنفسًا من كرب النفاق والحقد، فاتهمهما بالفجور إفكًا وزورًا، وأخذ يستحكي ذلك، ويستوشيه، ويجمعه ويفرقه، ويشيعه ويذيعه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاضوا فيه، حتى انخدع عدد من المؤمنين.

ومرضت عائشة - رضي الله عنها - حين قدمت المدينة، وطال مرضها نحو شهر، فكانت المدينة تموج بقول أهل الإفك، وهي لا تعلم شيئًا، وإنما كان يريبها أنها لم تكن ترى اللطف الذي كانت تراه من رسول الله ﷺ حين تشتكي، فكان ﷺ يدخل عليها فيسلم ويقول: كيف تيكم؟ ثم يرجع ولا يجلس عندها.

وكان ﷺ طوال هذه الفترة ساكتًا لا يتكلم، فلما استلبث الوحي طويلًا استشار أصحابه، فأشار علي بن أبي طالب بفراقها تلويحًا، وأشار أسامة وغيره بإمساكها، وأنها كالتبر الخالص، فقام ﷺ على المنبر واستعذر من رجل بلغ أذاه في أهله - وكانت الإشارة إلى عبدالله بن أُبي - فأظهر سيد الأوس رغبته في قتله، فأخذت الحمية سيد الخزرج، لأن ابن أُبي كان منهم، فتثاور الحيان حتى خفَّضهم رسول الله ﷺ.

وخرجت عائشة - رضي الله عنها - ذلك اليوم لحاجتها ليلًا، وقد نقهت من المرض، ومعها أم مسطح، فعثرت في مرطها، فدعت على ابنها مسطح، فاستنكرت ذلك عائشة، فأخبرتها الخبر، وأن ابنها ممن يقول بقولهم، فرجعت عائشة فاستأذنت رسول الله ﷺ وأتت أبويها، فلما تأكد لديها الخبر جعلت تبكي، وتبكي حتى بكت ليلتين ويومًا، لم تكتحل أثناءها بنوم، ولم يرقأ لها دمع، حتى ظنت وظن أبواها أن البكاء فالق كبدها.

وجاءها رسول الله ﷺ صباح الليلة الثانية فجلس وتشهد وقال: «**أما بعد: ياعائشة! فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه**».

وحينئذ قلص دمعُها، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان،

فقالت: والله لقد علمت، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقنّي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحي ساعته، فَسُري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «**يا عائشة! أمّا الله فقد برأك**» فقالت لها أمها: قومي إليه: فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله.

والذي أنزله الله تعالى في براءتها عشر آيات في سورة النور بداية من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١] إلى آخر الآية العشرين.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله من براءتها، فلما نزل أمر برجلين وامرأة من المؤمنين الخالصين فجلدوا، كل واحد ثمانين جلدة، وهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، زلت أقدامهم فأفاضوا في الإفك، وأما رأس المنافقين الذي تولى كبره، ورفقته، فلم يعاقبوا في هذه الحياة الدنيا، ولكنهم سيقفون بين يدي الله يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

عمرة الحديبية

الخروج للعمرة والنزول بالحديبية :

رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو في المدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، فأخبر بذلك المسلمين، وأخبر أنه يريد العمرة، واستنفر الأعراب الذين حوله، فأبطأوا، وظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا، وتخلصوا قائلين: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا.

وخرج رسول الله ﷺ يوم الإثنين غرة ذي القعدة سنة (٦هـ) في ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، وساق معه الهدي، ليعلم الناس أنه لم يخرج محاربًا، بل معتمرًا. فلما بلغ ذا الحليفة قلَّد الهديَ وأشعره وأحرم بالعمرة.

ثم سار حتى بلغ عسفان، فجاءه عينه، وأخبره أن قريشًا مجمعون على القتال، وصدِّ المسلمين عن البيت الحرام، وكانت قريش قد نزلوا بذي طوى، وأرسلوا خالد بن الوليد في مائتي فارس إلى كراع الغميم قريبًا من عسفان، ليسد الطريق النافذ إلى مكة، وجمعوا الأحابيش ليعينوهم، فاستشار رسول الله ﷺ هل يهاجم على أهالي المجتمعين من الأحابيش، أو يقصد البيت، فمن صده يقاتله ؟ فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: جئنا معتمرين، لا مقاتلين، فمن حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقبل النبي ﷺ هذا الرأي.

ورأى خالد المسلمين في صلاة الظهر، وهم يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم، ثم قرر أن يهجم أثناء صلاة العصر، فأنزل الله صلاة الخوف بين الظهر والعصر، ففاتته الفرصة.

وأخذ رسول الله ﷺ طريقًا آخر غير طريقهم، فسلك ذات اليمين أسفل مكة، حتى بلغ ثنية المرار مهبط الحديبية، فلما بلغها بركت ناقته، فزجروها فلم تقم، فقالوا: خلأت القصواء، فقال: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والله! لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلَّا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت، فتقدم حتى نزل بالحديبية.

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ـ وكانوا ناصحين لرسول الله ﷺ ـ فأخبره أن قريشًا مستعدون لقتاله وصدِّه عن البيت الحرام، فأخبره رسول الله ﷺ أنه ما جاء إلَّا للعمرة، وما جاء للقتال، وأنه مستعد للهدنة والصلح، ولكن إن أبت قريش إلا القتال فإنه يقاتلهم حتى تقطع عنقه، أو يُنفِّذ الله أمره.

بين رسول الله ﷺ وقريش :

ولما رجع بديل أبلغ ذلك قريشًا، فأرسلوا مكرز بن حفص، فقال له رسول الله ﷺ مثل ما قال لبديل، فأرسلوا سيد الأحابيش: الحليس بن عكرمة، فلما أشرف على المسلمين قال لهم رسول الله ﷺ : **«هذا من قوم يعظمون الهدي فابعثوه»**، ففعلوا واستقبلوه يلبون، فلما رأى الحليس ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت، أتحج لخم وجذام وحمير، ويمنع عن البيت ابن عبدالمطلب ؟ هلكت قريش ورب البيت، إن القوم أتوا معتمرين، فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا: اجلس إنما أنت أعرابي، لا علم لك بالمكايد.

ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي، فجاء وكلَّم، فقال له رسول الله ﷺ مثل ما قال لبديل. فقال: أي محمد! أرأيت لو استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، أي الهزيمة بك، فإني أرى حولك أوباشًا من الناس جديرون أن يتركوك ويفروا، فرد عليه أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه! فلم يستطع أن يرد على أبي بكر، لإحسان أبي بكر إليه من قبل.

وكان عروة يأخذ لحية النبي ﷺ حين يكلم، فكان المغيرة بن شعبة يضرب يده بنعل السيف ويقول: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فقال له عروة: أي غدر! ألست أسعى في غدرتك.

وكان المغيرة ابن أخي عروة، وكان قتل قومًا وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم. فلم يقبل منه رسول الله ﷺ إلا الإسلام، وكان عروة يسعى في ذلك، فأشار بغدرته إلى هذه القضية.

ورأى عروة تعظيم الصحابة للنبي ﷺ، فلما رجع قال لقريش: أي قوم! لقد وفدت على الملوك: على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما

يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

وخلال المفاوضات تسلل في الليل طائفة من شباب قريش الطائشين: سبعون أو ثمانون، فهبطوا من جبل التنعيم إلى معسكر المسلمين، وأرادوا بذلك القضاء على محاولات الصلح، ولكن المسلمين ألقوا عليهم القبض، ثم أطلقهم النبي ﷺ وعفا عنهم، فكان له أثره على إلقاء الرعب في قلوب قريش، وميلهم إلى الصلح، وفي ذلك أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٢٤].

عثمان بن عفان رسولًا إلى قريش، وبيعة الرضوان:

وحينئذ قرر رسول الله ﷺ إرسال رسول إلى قريش يؤكد لهم أنه ما جاء إلا للعمرة، فأرسل عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وأمره أيضًا أن يأتي المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات بمكة، فيبشرهم بقرب الفتح، وأن الله مظهر دينه، حتى لا يستخفي في مكة أحد بالإيمان.

ودخل عثمان - رضي الله عنه - في مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي، فبلَّغ الرسالة وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت، فأبى أن يطوف ورسول الله ﷺ ممنوع.

وحبست قريش عثمان - رضي الله عنه - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم، ثم يرسلوه مع الجواب وشاع بين المسلمين أنه قتل، وقتلُ الرسول يعني الإعلان عن الحرب، فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك قال: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس، وهو تحت شجرة، أن يبايعوه على القتال، فثار الناس إليه، وبايعوه - بحماس - على الموت، وعلى أن لا يفروا، وأخذ رسول الله ﷺ إحدىٰ يديه بالأخرىٰ، وقال: هذه عن عثمان، ولما انتهت البيعة جاء عثمان - رضي الله عنه - وأنزل الله في فضل هذه البيعة: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]. ومن هنا سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان.

عقد الصلح :

وسمعت قريش بهذه البيعة فداخلهم رعب عظيم، وأسرعوا بإرسال سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فجاء، وتكلَّم طويلًا حتى قبل منه رسول الله ﷺ الشروط الآتية:

١ـ أن الرسول ﷺ يرجع مع المسلمين هذا العام، ولا يدخل مكة، ويدخلها العام القابل، فيقيم بها ثلاثة أيام، ولا يكون معه من السلاح إلا السيف في القراب.

٢ـ توضع الحرب بين الفريقين عشر سنين.

٣ـ من أراد أن يدخل في عهد محمد ﷺ دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

٤ـ من التجأ من قريش إلى المسلمين يردُّه المسلمون إلى قريش، ومن التجأ من المسلمين إلى قريش لا تردُّه قريش إلى المسلمين.

ثم دعا عليًّا وأملى عليه أن يكتب، بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: ما ندري ما الرحمن، اكتب: باسمك اللهم، فأمره رسول الله ﷺ أن يكتب ذلك ثم أملى: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله. فقال: «**إني رسول الله وإن كذبتموني**»، وأمر عليًّا أن يمحو ذلك، ويكتب محمد بن عبدالله، فامتنع علي عن المحو، فمحاه ﷺ بيده الشريفة، وكتبت نسختان، نسخة لقريش، ونسخة للمسلمين.

قضية أبي جندل:

وبينما الكتاب يُكتَبُ جاء أبو جندل - وهو ابن سهيل بن عمرو ممثل قريش في هذا الصلح - وهو يحجل في قيوده، فطلب سهيل رده، فقال النبي ﷺ إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال: إذن لا أقاضيك، فقال ﷺ: «**فأجزه لي**» قال: لا. وضرب سهيل أبا جندل، وصاح أبو جندل: يا معشر المسلمين! أُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال ﷺ: «**اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا**» وأغرى عمر بن الخطاب أبا جندل ليقتل أباه سهيلًا فلم يفعل.

حل المسلمين من العمرة وحزنهم على قضية الصلح :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال للمسلمين: قوموا فانحروا، فما قام أحد، حتى قالها ثلاث مرات فما قام أحد، فدخل على أم سلمة، وذكر لها ذلك فأشارت أن يقوم هو فينحر بدنة ويحلق رأسه، ولا يكلِّم أحدًا. ففعل، وقد نحر جملًا لأبي جهل كان في أنفه برة من فضة، ليغيظ به المشركين، فلما رأى الناس قاموا فنحروا وحلقوا، وكاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا، وقد نحروا الإبل عن سبعة والبقرة عن سبعة.

وكان حزن المسلمين لسببين اثنين: الأول: رجوعهم بغير عمرة، والثاني: عدم المساواة بين الطرفين، فالمسلمون يردون من جاء إليهم، وقريش لا يردون، فطمأنهم رسول الله ﷺ عن الأول بأنهم سوف يعتمرون العام القادم، فالرؤيا صادقة، وفي هذا الجزء من الصلح مراعاة لمشاعر الفريقين، وطمأنهم عن الثاني بأن من ذهب منا إليهم فقد أبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

وكان قوله ﷺ هذا مبنيًّا على نظره البعيد، فإن جماعة من المسلمين لما تزل في الحبشة، ولم يكن ينطبق عليهم هذا العهد، فكان يمكن اللجوء إليهم للمحبوسين في مكة، لكن ظاهر العهد كان في صالح قريش، فلم يزل له أثر شديد في أعماق مشاعر المسلمين، حتى جاء عمر بن الخطاب، وقال: يارسول الله! ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال: «**بلى**». قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال: «**بلى**». قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع، ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: «**يا ابن الخطاب! إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري ولن يضيعني أبدًا**».

ثم انطلق عمر متغيظًا إلى أبي بكر فقال له ما قال لرسول الله ﷺ، وأجابه أبو بكر بما أجاب به رسول الله ﷺ ثم قال لعمر: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

ثم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح:١] الآيات. فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر، فأقرأه إياها فقال: يارسول الله! أو فتح هو ؟ قال: نعم. فطابت نفسه، ورجع.

ثم ندم عمر على ما فرط منه، فعمل لأجله أعمالًا، لم يزل يتصدق ويصوم ويصلي ويعتق حتى رجا الخير.

قضية النساء المهاجرات :

وبعد إبرام الصلح، والحل من العمرة، جاءت نسوة مؤمنات، فطلب أولياؤهن الكفار من رسول الله ﷺ أن يردَّهن، فامتنع عن ذلك، بدليل أنهن لم يدخلن في العهد، وأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. فحرم المؤمنات على الكفار، والكافرات على المؤمنين.

فكان رسول الله ﷺ يمتحن هؤلاء المهاجرات بما أمر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢]. فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: قد بايعتك - كلامًا دون مصافحة - ولم يكن يردهنَّ، وطلق المسلمون أزواجهم الكافرات، وفرقوا بين المسلمات وأزواجهن الكفار.

دخول خزاعة في عهد المسلمين :

واختارت خزاعة أن يكونوا مع رسول الله ﷺ في هذا الميثاق، فدخلوا في عهده - وقد كانوا خلفاء بني هاشم من زمن الجاهلية - ودخلت بنو بكر في عهد قريش، فكانوا هم السبب في فتح مكة وسيأتي.

حل قضية المستضعفين :

أما المسلمون المعذبون في مكة، فانفلت منهم رجل اسمه أبو بصير، وجاء إلى المدينة، فأرسلت قريش رجلين إلى النبي ﷺ ليردَّه، فردَّه، فلما نزل بذي الحليفة قتل أبو بصير أحدهما، وفر الآخر حتى انتهىٰ إلى النبي ﷺ، وقال: قتل صاحبي وإني لمقتول، وجاء أبو بصير فزجره النبي ﷺ، فعرف أنه سيردُّه إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، أي ساحله، وانفلت أبو جندل فلحق به، فجعل لا يخرج رجل من قريش قد أسلم إلا لحق به، حتى اجتمعت منهم جماعة، وأخذت تعترض كل عير لقريش تخرج إلى

الشام، فتهجمُ عليها وتأخذ أموالها، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم أن يستقدمهم إلى المدينة، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل إليهم فقدموا، وانحلت المشكلة.

أثـر الصلـح :

كان لهذا الصلح أثر كبير في تسيير الدعوة الإسلامية، فقد وجد المسلمون فرصة اللقاء بعامة العرب، ودعوتهم إلى الله، فدخل الناس في الإسلام بكثرة، وبلغ عددهم في عامين ما لم يبلغ خلال تسعة عشر عامًا، وقد جاء كبار قريش وخلاصتها : عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة إلى رسول الله ﷺ طائعين راغبين، يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويبايعونه على الإسلام، ويبذلون له كل ما يملكون من غالٍ ورخيص، ويفدونه بالنفوس والأرواح، والمواهب والقدرات، وقد قال رسول الله ﷺ حينما جاؤوا : «**إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها**».

مكاتبة الملوك والأمراء

ولما عاد رسول الله ﷺ من عمرة الحديبية، وقد أبرم الصلح مع قريش، وأمن جانبهم، بدأ بإرسال الكتب إلى الملوك والأمراء، يدعوهم فيها إلى الإسلام، ويذكرهم بمضاعفة مسئولياتهم، وهذه هي تلك الكتب بإيجاز.

١ـ كتابه ﷺ إلى النجاشي: أصحمة بن الأبجر ملك الحبشة :

كتب فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسوله، فأسلم تسلم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] **فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك».**

وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري، فلما أخذه النجاشي وضعه على عينيه، ونزل عن السرير، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وكتب إلى النبي ﷺ بإسلامه وبيعته، وزوَّج أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان بالنبي ﷺ وأصدقها من عنده أربعمائة دينار، وأرسلها والمهاجرين في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم والنبي ﷺ بخيبر.

مات النجاشي هذا في رجب سنة (٩هـ) فنعاه النبي ﷺ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب، وخلفه على الحبشة نجاشي آخر، فكتب إليه يدعوه إلى الإسلام، ولا يدري هل أسلم هذا الثاني أو لم يسلم؟

٢ـ كتابه ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية :

وكتب النبي ﷺ كتابًا إلى المقوقس ملك مصر ،والإسكندرية وهو: **«بسم الله**

الرحمن الرحيم من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتَّبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِم تَسْلَم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

وبعث الكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة، فكلَّمه حاطب وأبلغه الكتاب، فأكرمه المقوقس، ووضع الكتاب في حق من عاج، وختم عليه، واحتفظ به، وكتب إلى النبي ﷺ يقر فيه بأن نبيًّا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، ولكنه لم يسلم، وأهدى جاريتين: مارية وسيرين، وكان لهما في القبط مكان عظيم. وأهدى كسوة، وبغلة اسمها دلدل، فاختار النبي ﷺ مارية لنفسه، والبغلة لركوبه، ووهب سيرين لحسان بن ثابت - رضي الله عنه - .

٣ـ كتابه ﷺ إلى كسرى أبرويز ملك فارس:

وكتب إليه: «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتَّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾** [يس: ٧٠] **فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك**».

وبعث الكتاب مع عبدالله بن حذافة السهمي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، ليدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قُرِيء عليه الكتاب مزقه، وقال: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «**مزق الله ملكه**»، ووقع كما قال. فقد انهزم جيشه أمام الروم هزيمة منكرة، ثم انقلب عليه ابنه شيرويه، فقتله وأخذ ملكه، ثم استمر فيه التمزق والفساد إلى أن استولى عليه الجيش الإسلامي في زمن عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ثم لم تقم لهم قائمة.

٤ـ وكتب النبي ﷺ إلى قيصر ملك الروم :

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتَّبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

وبعث الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر قد جاء من حمص إلى بيت المقدس ماشيًا على قدميه، شكرًا لله تعالى على ما حصل له من الفتح والانتصار على الفرس، فلما جاءه الكتاب أرسل رجاله ليأتوا برجل من العرب يعرف النبي ﷺ ، فوجدوا أبا سفيان في ركب من قريش، فأتوا بهم إلى هرقل، فدعاهم هرقل في مجلسه، وحوله عظماء الروم، فسألهم أيهم أقرب إليه ﷺ نسبًا، فأخبروه بأنه أبو سفيان، فأدناه منه وأجلس بقية الناس وراءه، وقال لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل ـ أي النبي ﷺ ـ فإن كذبني فكذبوه. فاستحيا أبو سفيان أن يكذب.

وسأله هرقل: كيف نسبه فيكم؟

فقال: هو فينا ذو نسب.

فقال: فهل قال هذا القول منكم أحد قبله؟

قال: لا.

قال: فأشراف الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟

قال: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قال: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قال: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال: لا.

قال: فهل يغدر؟

قال: لا.

وهنا تمكن أبو سفيان من إدخال كلمة مريبة فقال:

ونحن منه في مدة لا ندري ما فاعل فيها.

قال: فهل قاتلتموه؟

قال: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

فقال: الحرب بيننا وبينه سجال. ينال منا وننال منه.

قال: وماذا يأمركم؟

قال: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

قال هرقل مُعلِّقًا على هذا الحوار: ذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وذكرت أنه لم يقل أحد منكم هذا القول قبله، قلت: فلو كان كذلك لقلت: رجل يأتمُّ بقول قيل قبله.

وذكرت أنه لم يكن من آبائه من ملك، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وذكرت أنكم لم تكونوا تتهمونه بالكذب، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله. وذكرت أن ضعفاء الناس اتَّبعوه، وهم أتباع الرسل، وذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وذكرت أنه لا يرتد منهم أحد، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وذكرت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا يغدرون. وذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان. ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه

لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا الكتاب فقرأه، فارتفعت الأصوات وكثر اللغط، فأخرج أبا سفيان ومن معه، فلما خرج أبو سفيان قال لأصحابه: لقد أَمِر أمر ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، ولم يزل أبو سفيان موقنًا بعده بظهور أمر رسول الله ﷺ حتى وَفَّقه الله للإسلام.

وأجاز هرقل دحية بن خليفة الكلبي بمال وكسوة ثم رجع إلى حمص، فأذن لعظماء الروم في دسكرة له، وأمر بأبوابها فأغلقت. ثم قال: يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم؟ فتتابعوا هذا النبي، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة، فلما رأى قيصر نفرتهم قال: ردوهم علي، فقال لهم: إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه.

ويتبين من هذا أن قيصر عرف النبي ﷺ وصدَّق نبوته تمام المعرفة، ولكن غلب عليه حب ملكه فلم يسلم، وباء بإثمه وإثم رعيته كما قال النبي ﷺ.

أما دحية بن خليفة الكلبي فإنه لما كان بحسمى في طريقه راجعًا إلى المدينة قطع عليه الطريق رجال من بني جذام، وانتهبوه، حتى لم يتركوا معه شيئًا، فلما بلغ المدينة، وأخبر رسول الله ﷺ، بعث إليهم زيد بن حارثة في خمسمائه مقاتل، فأغاروا وقتلوا وغنموا ألف بعير، وخمسة آلاف شاة، وسبوا مائة من النساء والصبيان، وأسرع زيد بن رفاعة الجذامي، أحد رؤسائهم، إلى المدينة - وكان أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحية حين قطع الطريق عليه - فرد عليه رسول الله ﷺ الغنائم والسبي.

٥ـ وكتب رسول الله ﷺ كتابا إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير دمشق من قبل قيصر.

وهاك نص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر: سلام على من اتَّبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك»

وبعث الكتاب مع شجاع بن وهب الأسدي ـ من أسد بن خزيمة ـ فلما قرأ الكتاب رمى به، وقال: من ينزع ملكي مني ؟ واستعد ليرسل جيشًا يغزو المسلمين، وقال

لشجاع بن وهب: أخبر صاحبك بما ترى، واستأذن قيصر في حرب رسول الله ﷺ، فثناه قيصر عن عزمه، فأجاز الحارث شجاع بن وهب بالكسوة والنفقة، وردَّه بالحسنى.

٦ـ وكتب ﷺ كتابًا إلى أمير بصرى :

يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث الكتاب مع الحارث بن عمير الأزدي ـ رضي الله عنه ـ فلما بلغ مؤتة ـ من عمل البلقاء في جنوب الأردن ـ تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فضرب عنقه.

وكان هذا أشد عمل عدواني تجاه الرسل، فلم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، وقد وجد ﷺ على ذلك وجدًا شديدًا، حتى أفضى ذلك إلى معركة مؤتة، وسنأتي على ذكرها.

٧ـ وكتب ﷺ كتابًا إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي: سلام على من اتَّبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك»

وبعث الكتاب مع سليط بن عمرو العامري، فأكرمه وأجازه، وكساه من نسيج هجر، وكتب في الجواب:

ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهابني، فاجعل لي بعض الأمر أتَّبعك.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: **«لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت. باد، وباد ما في يديه»** فمات منصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة.

٨ـ وكتب رسول الله ﷺ كتابًا إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين :

دعاه فيه إلى الإسلام، وبعث هذا الكتاب مع العلاء بن الحضرمي، فأسلم المنذر، وأسلم بعض أهل البحرين، وبقي الآخرون على دينهم من اليهودية أو المجوسية، فكتب المنذر يخبر بذلك رسول الله ﷺ ويستفتيه، فكتب إليه يأمره أن يترك للمسلمين ما أسلموا عليه، ويأخذ من اليهود والمجوس الجزية، وأنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك.

٩ـ وكتب رسول الله ﷺ كتابًا إلى ملكي عمان جيفر وأخيه وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي. سلام على من اتَّبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسْلِمَا تَسْلَما، فإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين. فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرَّا بالإسلام فإنَّ ملككما زائل، وخيل تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما».

وبعث الكتاب مع عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ فلما قدم عمان لقي عبد بن الجلندي، فسأله عبد عما يدعو إليه، فقال: إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وبعد حوار جرى بينهما سأله عبد عما يأمر به. فقال: يأمر بطاعة الله وينهي عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.

قال عبد: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، لكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا - تابعًا -.

قال عمرو: إن أسلم أخوك ملَّكه رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم، فقال: إن هذا لخلق حسن، ثم سأله عن الصدقة فأخبره بتفاصيلها، فلما ذكر المواشي قال: ما أرى قومي يرضون بهذا.

ثم إن عبدًا أوصل عمرًا إلى أخيه جيفر، فأعطاه الكتاب فقرأه، ثم أعطاه لأخيه، وسأل عمرا عما فعلته قريش، فأخبره أنهم أسلموا، وأنه إن أسلم يسلم، وإلا وطئته الخيل وتبيد خضراءه.

وأرجأ جيفر أمره إلى غد، فلما كان الغد أبدى القوة والصمود، ولكنه خلا بأخيه واستشاره، فلما كان بعد الغد أسلم هو وأخوه، وخليا بين عمرو وبين أخذه الصدقة، وكانا عونًا على من خالفه.

أُرْسِل هذا الكتاب إلى عبد وجيفر بعد فتح مكة، وأما بقية الكتب فقد أُرسِلت بعد عودته ﷺ من الحديبية.

بين المسلمين وبقية الأطراف

كان عهد الحديبية ميثاقًا ينص على وضع الحرب عشر سنين، وبفضل هذا العهد أمن رسول الله ﷺ من أكبر عدو له في جزيرة العرب، وهم قريش، وتفرغ لتصفية الحساب مع أخبث عدو له مكرًا وكيدًا وغدرًا وإغراءً للأحزاب، وهم اليهود، وكانوا متمركزين في خيبر وما وراءها في جهة الشمال، وبينما هو يستعد للخروج إليهم حدثت حادثة أخرى خفيفة، وهي غزوة الغابة.

غزوة الغابة :

وبيان ذلك أن رسول الله ﷺ كان قد أرسل لقاحة لترعىٰ في جهة الغابة بناحية أُحد، وكان معها غلامه رباح، والراعي، وسلمة بن الأكوع، وكانت مع سلمة فرس لأبي طلحة، فأغار عبدالرحمن بن عيينة الفزاري على الإبل، فقتل الراعي، واستاق الإبل أجمع، فأعطىٰ سلمة فرسه رباحًا ليسرع إلى المدينة، ويخبر بالحادث. وقام هو على أكمة، فاستقبل المدينة، وصاح بأعلى صوته ياصباحاه. ثلاث مرات ثم خرج في آثار القوم يرميهم بالنبل ويرتجز:

خـــذهـــا، أنـــا ابـــن الأكـــوع

والـــيـــوم يـــوم الـــرضـــع

فلم يزل يرميهم ويعقربهم، وإذا رجع إليه منهم فارس جلس في أصل شجرة ورماه، ودخلوا في مضيق جبل فعلاه، وأخذ يرديهم بالحجارة، فلم يزل كذلك حتى تركوا الإبل كلها، ولكنه لم يزل يتبعهم، ويرميهم حتى ألقوا ثلاثين بردًا وثلاثين رمحًا يستخفون، فكان يجعل عليها أكوامًا من الحجارة ليعرف بها.

وجلسوا في متضايق ثنية، فجلس ابن الأكوع على رأس قرن، فصعد إليه أربعة، فقال: هل تعرفونني؟ أنا سلمة بن الأكوع، لا أطلب منكم رجلًا إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني فرجعوا.

وبعد حين رأىٰ سلمة فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، أولهم أخرم، ثم

قتادة، ثم المقداد، فجاؤوا والتقى أخرم وعبدالرحمن، فعقر أخرم فرس عبدالرحمن، وطعنه عبدالرحمن فقتله، وتحول على فرسه، فلحقه أبو قتادة، وقتله طعنًا، وفر الباقون، فطاردهم هؤلاء الفوارس، ومعهم سلمة يعدو على رجليه، ووصلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يسمى بذي قرد، وكان قد نزل به العدو ليشرب منه، وهم عطاش، فأجلاهم عنه سلمة برميه، ولحق به رسول الله ﷺ والفوارس عشاء، فقال: يارسول الله القوم عطاش، فلو بعثني في مائة رجل أخذت بأعناقهم وسرحهم فقال: يا ابن الأكوع! ملكت فأسجح - أي تلطف - ثم قال: «**إنهم ليقرون الآن في بني غطفان**»، وأعطاه سهم الراجل والفارس، وأردفه على العضباء. وقال: «**خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا أبو سلمة**».

وقعت هذه الغزوة قبل خروجه ﷺ إلى خيبر بثلاثة أيام، وقد استعمل فيها على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى اللواء للمقداد.

غــزوة خيــبر

وفي المحرم سنة سبع من الهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر، وجاء من تخلف عن الحديبية ليؤذن له فنادى في الناس أن لا يخرجوا معه إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة فلا يعطى لهم منه شيء، فلم يخرج معه إلا أصحاب الشجرة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري.

ثم سلك الجادة المعروفة الموصلة إلى خيبر، حتى إذا كان في منتصف الطريق تقريبًا اختار طريقًا آخر يوصله إلى خيبر من جهة الشام، ليحول بينهم وبين فرارهم إلى الشام.

وبات الليلة الأخيرة قريبًا من خيبر، ولم تشعر به اليهود، فلما أصبح صلى الفجر بغلس، ثم ركب هو والمسلمون متجهين إلى مساكن خيبر، أما اليهود فقد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، ليعملوا في أرضهم وهم لا يعلمون، فلما رأوا الجيش رجعوا هاربين يقولون: محمد، والله محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: **«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**.

وخيبر على بعد (١٧١) كيلومترًا شمالي المدينة، وكانت مساكنها منقسمة إلى ثلاثة أشطر: النطاة والكتيبة والشق. فالنطاة ثلاثة حصون: حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير. والشق حصنان: حصن أبي، وحصن النزار، والكتيبة ثلاثة حصون: حصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن السلالم.

وكانت في خيبر حصون وقلاع أخرى صغيرة لم تكن تبلغ مبلغ هذه الحصون في القوة والمناعة.

فتـح النطـاة :

وعسكر رسول الله ﷺ شرقي حصون النطاة بعيدًا عن مدى النبل، وبدأ القتال بفرض الحصار على حصن ناعم، وكان حصنًا منيعًا، رفيعًا صعب المرتقى، وكان خط الدفاع الأول لليهود، وفيه بطلهم «مرحب» الذي كان يعد بألف رجل، فوقعت المراماة

بين الفريقين أيامًا، ثم بشرهم رسول الله ﷺ بالفتح، وقال: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**» فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنى أن يعطاها، فلما أصبح قال: «**أين علي؟**» قالوا: هو يشتكي عينيه، فأرسل إليه فأتي به، فبصق في عينيه ودعا له فبرىء كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم.

وكان اليهود قد نقلوا نساءهم وذراريهم إلى حصن الشق ليلًا، وقرروا البروز للقتال في ذلك الصباح، فلما ذهب إليهم علي - رضي الله عنه - وجدهم متجهزين للقتال، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، ورفضوا ودعا مرحب إلى المبارزة، وهو يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عامر بن الأكوع، وهو يقول:

قد علمت خيبر أني عامر
شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، فذهب عامر ليتناول بسيفه ساق اليهودي، وكان سيفه قصيرًا، فلم يصل إليه، بل رجع إلى عامر فأصاب ركبته، فمات بسببه فيما بعد، فقال النبي ﷺ فيه: إن له لأجرين، إنه لجاهد مجاهد، قل عربي مشى بها - أي بالأرض - مثله.

أما مرحب فبرز له علي وهو يرتجز:

أنا الذي سمتني أمي حيدره
كليث غابات كريه المنظره
أوفيهم بالصاع كيل السندره

وضرب رأس مرحب فقتله، ثم خرج أخوه ياسر يدعو إلى المبارزة، فبرز له الزبير بن العوام، وألحقه بأخيه، ثم دار القتال المرير قُتِلَ فيه عدد من سراة اليهود، وانهارت معنوياتهم، فانكشفوا عن مواقفهم، وتبعهم المسلمون حتى دخلوا الحصن بالقوة،

وانهزم اليهود إلى الحصن الذي يليه، وهو حصن الصعب، وقد غنم المسلمون من حصن ناعم كثيرًا من الطعام والتمر والسلاح.

ثم حاصر المسلمون حصن الصعب تحت قيادة الحباب بن المنذر، ودام الحصارثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث دعا رسول الله ﷺ بالفتح والغنيمة، ثم ندب المسلمين بالهجوم فهاجموا بشدة، ووقع البراز والقتال، ودارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة اليهود، وافتتح المسلمون الحصن قبل أن تغرب الشمس، فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام، وكان أكثر الحصون طعامًا وودكًا، وأعظمها غناء للمسلمين، وكان المسلمون قبل ذلك في مجاعة شديدة حتى ذبح ناس الحمر، فنهى رسول الله ﷺ عن لحومها، وأمر بالقدور فأكفئت، وهي منصوبة على النيران تطبخ فيها تلك اللحوم.

ولاذ اليهود بقلعة الزبير وتحصَّنوا فيها، وهي ثالث الحصون وآخرها في شطر النطاة، أما المسلمون ففرضوا عليهم الحصار، وفي اليوم الرابع دلَّ يهودي على جداول ماء كان يستقي منها اليهود فقطعها المسلمون عنهم، فخرجوا وقاتلوا قتالًا شديدًا، ثم انهزموا إلى شطر الشق وتحصنوا بحصن أُبَيّ.

فتح الشق:

وتبعهم المسلمون حتى حاصروهم، فخرجوا مستعدين لأشد القتال، وبرز أحد أبطالهم يطلب المبارزة فَقُتِل، ثم برز آخر فَقُتِل، قتله أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري، فلما قتله أسرع إلى اقتحام القلعة، واقتحم معه المسلمون، فجرى القتال داخل القلعة ساعة، ثم فر اليهود إلى الحصن الثاني: حصن النزار، وهو آخر الحصنين في هذا الشطر، وغنم المسلمون في حصن أُبَيّ أثاثًا كثيرًا ومتاعًا وغنمًا وطعامًا.

ثم تقدموا وحاصروا حصن النزار، وكان على رأس جبل لا سبيل إليه، وقد تمنع أهله أشد التمنع، وكانوا على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحامه، ولذلك أقاموا فيه مع الذراري والنساء، وقاوموا أشد المقاومة، رميًا بالنبل والحجارة، فنصب المسلمون المنجنيق، فوقع في قلوبهم الرعب، وهربوا إلى شطر الكتيبة دون أن يعانوا شدة تُذْكَر، ووجد المسلمون غنائم فيها أواني من نحاس وفخار، فقال ﷺ: «**اغسلوها واطبخوا فيها**».

فتـح الكتيبـة :

وتقدم المسلمون إلى حصن القموص، أول حصون الكتيبة، فحاصروه أربعة عشر يومًا أو عشرين يومًا. ثم يقال: إن اليهود طلبوا الأمان. ويقال: إن المسلمين فتحوا الحصن عنوة، وفرَّ اليهود إلى الحصنين الباقيين، الوطيح، والسلالم، فلما سار إليهما المسلمون ليحاصروهما طلب اليهود الأمان على أن يخرجوا من خيبر وأراضيها بنسائهم وذراريهم، فعاهدهم على ذلك، وسمح لهم بأن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم، إلا الصفراء والبيضاء ـ أي: الذهب والفضة ـ والكراع والحلقة ـ أي الخيل والسلاح - وتبرَّأ منهم الذمة إن كتموا شيئًا، ثم سلموا الحصون الثلاثة أو الحصنين، فغنم المسلمون مائة درع، وأربعمائة سيف، وألف رمح، وخمسمائة قوس عربية، وصُحُفًا من التوراة أعطوها لمن طلبها.

وغدر بالعهد كنانة بن أبي الحقيق وأخوه، فغيبا كثيرًا من الذهب والفضة والجواهر، فبرئت منهما الذمة، وقتلا لغدرتهما، وكانت صفية بنت حيي بن أخطب تحت كنانة، فَجُعِلت في السبي..

قتلـى الفريقـين :

وبلغ عدد القتلى من اليهود ثلاثة وتسعين قتيلاً، أما المسلمون فقيل: (١٥) وقيل: (١٦) أو (١٨).

قدوم مهاجري الحبشة وأبي هريرة وأبان بن سعيد:

ولما رجع مهاجرو الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي، اتجه طائفة منهم إلى خيبر، وهم ستة عشر رجلًا فيهم جعفر بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري - رضي الله عنهم أجمعين - فوافوا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، وقبل أن يقسمها، فقبل ﷺ جعفرًا وقال: «**والله ما أدري بأيهما أفرح؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**» ولما قسم خيبر أعطاهم من الغنيمة، وأما بقية مهاجري الحبشة فذهبوا مع نسائهم وذراريهم إلى المدينة رأسًا.

ووافاه أيضًا بخيبر بعد أن تم الفتح: أبو هريرة - رضي الله عنه - وكان قد جاء إلى

المدينة بعد خروجه ﷺ إلى خيبر، فأسلم ثم استأذن وخرج إلى خيبر، فأعطاه رسول الله ﷺ من غنيمة خيبر.

ووافاه بعد الفتح - أيضًا - أبان بن سعيد، وكان قد خرج بسرية إلى نجد، فلما قضى مهمته جاء إلى خيبر، ولم يعط له ولأصحابه من غنيمة خيبر.

قسمة خيبر :

ولما حصل اليهود على الأمان جاؤوا باقتراح جديد قبل أن يتم جلاؤهم. قالوا: يامحمد! دعنا في هذه الأرض، نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، وتعطينا نصف ما يخرج منها من الثمر والزرع، فرضي بذلك على أن يجليهم منها متى شاء. فبقوا على ذلك حتى أجلاهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين سلكوا طريق الشر والخبث.

وقسَّم رسول الله ﷺ خيبر على ستة وثلاثين سهمًا، كل سهم مجموع مائة سهم، فعزل منها النصف، وهو ثمانية عشر سهمًا لنوائب المسلمين، وقسَّم النصف الباقي، وهو أيضًا ثمانية عشر سهمًا، على الغزاة، فأعطى للراجل سهمًا، وللفارس ثلاثة أسهم، سهمًا له وسهمين لفرسه، وكان الفوارس مائتين، فصارت لهم ستة أسهم، والرجالة ألفا ومائتين فصار لهم اثنا عشر سهمًا.

وكانت خيبر غنية بالتمر والطعام، قالت عائشة - رضي الله عنها - لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر، ورد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم من النخيل بعدما رجعوا من خيبر إلى المدينة.

شاة مسمومة:

وبعدما عاد الهدوء، وذهب الخوف عاد اليهود إلى خبثهم، وتآمروا على قتل النبي ﷺ، فأهدوا إلى رسول الله ﷺ شاة مسمومة بواسطة امرأة سلام بن مشكم: أحد كبرائهم، وقد علمت أن رسول الله ﷺ يعجبه الذراع فأكثرت السم فيه، وتناول منه رسول الله ﷺ ولاكها، ثم لفظها، وقال: إنها شاة مسمومة، وسأل المرأة واليهود فاعترفوا بجريمتهم، وقالوا: قلنا: إن كان ملكًا نستريح منه، وإن كان نبيًّا لا يضره،

فعفا عنهم وعن المرأة، ثم إن بشر بن البراء بن معرور مات من أجل هذا السم فأمر بقتل المرأة قصاصًا.

استسـلام أهـل فـدك :

فدك قرية في شرق خيبر على بعد يومين، تعرف اليوم بـ «حائط»، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل محيصة بن مسعود إلى يهود فدك بعد وصوله إلى خيبر، ليدعوهم إلى الإسلام، فأبطأوا عليه، فلما سمعوا بفتح خيبر داخلهم الرعب، وطلبوا أن يعامل بهم معاملة أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت أرض فدك خالصة لرسول الله ﷺ. ينفق منها على نفسه، ويعول صغير بني هاشم، ويزوج أيمهم.

وادي القـرى :

وسار رسول الله ﷺ بعد خيبر إلى وادي القرى، ودعا أهلها ـ وهم يهود ـ إلى الإسلام، فلم يسلموا ولم يستسلموا، وخرجوا للقتال، وبرز منهم رجل فقتله الزبير بن العوام، ثم آخر فقتله، ثم ثالث فقتله علي، حتى قتل منهم أحد عشر رجلًا، كلما قتل منهم رجل دعا البقية إلى الإسلام، وكلما صلى صلاة دعاهم إلى الإسلام، حتى أمسوا، ثم غدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى انهزموا، وغنم المسلمون مغانم كثيرة. ثم طلبوا أن يعامل بهم معاملة أهل خيبر، فقبل ذلك منهم.

مصالحـة أهـل تيمـاء :

ووصل إلى يهود تيماء أخبار خيبر وفدك ووادي القرى، فصالحوا على دفع الجزية، ومكثوا في بلادهم آمنين.

زواجه ﷺ وبناؤه بصفية :

وكانت صفية بنت حيي بن أخطب في السبي، فأخذها دحية بن خليفة الكلبي بإذن رسول الله ﷺ، فقال الصحابة لرسول الله ﷺ : إنها لا تصلح إلا لك، إنها سيدة قريظة والنضير، فدعا بها رسول الله ﷺ، وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، وأسلمها إلى بعض النساء.

فلم تم له فتح خيبر ووادي القرى، وأطاع له أهل فدك وتيماء، أخذ في عودته إلى المدينة حتى إذا كان بسد الصهباء حلَّت صفية فزفت إليه ﷺ فأصبح عروسًا بها، وَأَوْلَم عليها بحيس من التمر والأقط والسمن، وأقام ثلاثة أيام يبني بها.

ثم سار حتى قدم المدينة في أواخر شهر صفر أو في شهر ربيع الأول من سنة (٧هـ).

غـزوة ذات الرقـاع

ولما رجع رسول الله ﷺ من خيبر، واطمأن بالمدينة سمع بتجمع البدو من بني أنمار وثعلبة ومحارب، فاستعمل على المدينة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وقصد في نحو سبعمائة من الصحابة موضعًا يقال له نخل، على بعد يومين من المدينة، فلقي جمعًا من غطفان، فتقارب الفريقان، وأخاف بعضهم بعضًا، ولم يدر القتال، وأقيمت الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ بطائفة ركعتينَ، ثم تأخَّروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت له أربع وللقوم ركعتان، وهي صلاة الخوف، ولها صور أخرى مروية في الأحاديث.

ثم ألقى الله الرعب في قلب العدو فتفرق جمعه، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة.

وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع، لأن أقدام المسلمين نقبت لأجل المشي، فلفوا عليها الخرق، وهي الرقاع، وقيل: لأن أراضيها وجبالها ذات ألوان مختلفة كأنها رقاع، وقيل: بل هي اسم لمكان الغزوة.

من يمنعك مني؟

ومن أروع ما وقع في هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ نزل ذات يوم تحت شجرة ظليلة، فعلق بها سيفه ونام، وتفرق الناس تحت الأشجار وناموا، فجاء رجل من المشركين، فاخترط سيف رسول الله ﷺ وهو نائم، فاستيقظ وهو في يده صلتًا. فقال: أتخافني؟ قال: «لا». قال: فمن يمنعك مني؟. قال: «الله». فسقط السيف من يده. فأخذه رسول الله ﷺ، وقال: «**من يمنعك مني؟**» قال: كن خير آخذ. فدعاه إلى الإسلم فلم يسلم، ولكنه أعطى العهد أنه لا يقاتله، ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلَّى سبيله، فذهب إلى قومه، وقال: جئتكم من عند خير الناس.

وعامة أهل المغازي يقولون: إن هذه الغزوة وقعت في السنة الرابعة من الهجرة، والصحيح أنها في السنة السابعة بعد خيبر، لأن أبا هريرة وأبا موسى الأشعري - رضي الله عنهما - كانا في هذه الغزوة، وهما إنما جاءا إلى النبي ﷺ أول مرة بعد فتح خيبر كما تقدم.

وقد أرسلت قبل هذه الغزوة وبعدها عدة سرايا لتأمين الطرق، وتأديب المعتدين وتفريق المتجمعين، نطوي ذكرها حتى لا يطول الكلام.

عمـرة القضـاء

في ذي القعدة سنة (٧هـ) خرج رسول الله ﷺ للعمرة التي تمَّ الاتفاق عليها في صلح الحديبية، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري، وساق معه ستين بدنة، وجعل عليها ناجية من جندب الأسلمي، وحمل معه السلاح حذرًا من غدر قريش، واستعمل عليه بشير بن سعد، وكان معه مائة فرس عليها محمد بن مسلمة.

وأحرم من ذي الحليفة ولبَّى، ولبَّى معه المسلمون، وواصل سيره حتى إذا بلغ وادي يأجج وضع السلاح، وخلف عليها أوس بن خولي الأنصاري، في مائتين من الصحابة، وتقدم بسلاح الراكب، السيوف في القرب، فدخل مكة من ثنية كداء التي تطلعه على الحجون، وهو على ناقته القصواء، والمسلمون متوشحون السيوف، محدقون به، يلبي ويلبون، حتى دخل المسجد الحرام، فاستلم الحجر الأسود بمحجنه ثم طاف ـ وهو على راحلته ـ وطاف معه المسلمون، يرملون حول البيت كاشفين مناكبهم اليمنى، شأن الفتوة والقوة، وعبدالله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ متوشحًا بالسيف، يقول:

خـلّـوا بـنـي الـكـفـار عـن سـبـيـلـه
خـلّـوا، فـكـل الـخـيـر فـي رسـولـه
الـيـوم نـضـربـكـم عـلـى تـأويـلـه
كـمـا ضـربـنـاكـم عـلـى تـنـزيـلـه
ضـربًـا يـزيـل الـهـام عـن مـقـيـلـه
ويـذهـل الـخـلـيـل عـن خـلـيـلـه

وكان المشركون جالسين على جبل قعيقعان - شمالي الكعبة - وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فلما رأوا المسلمين يرملون قالوا: هؤلاء أجلد من كذا وكذا، وكان رسول الله ﷺ أمرهم أن يرملوا في الأشواط الثلاثة الأولى لِيُرِي المشركين قوتهم، إلا ما بين الركن اليماني والحجر الأسود، فإنه في

الجنوب، في جهة لم يكن يراها المشركون.

فلما فرغ من الطواف سعىٰ بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم نحر هديه عند المروة، وحلق رأسه، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث رجالًا من الصحابة إلى بطن يأجج ليكونوا على السلاح، ويأتي من بقي هناك من الصحابة فيؤدُّوا نسكهم.

وأقام بمكة ثلاثة أيام تزوج خلالها ميمونة بنت الحارث الهلالية - وكانت زوجة سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب وخالة ابن العباس - فلما بلغتها الخطبة وَكلَّ أمرها إلى العباس، فزوجها العباس بالنبي ﷺ وهو حلال، فإنه اعتمر أول ما دخل مكة، ثم حلَّ فبقي حلالًا.

وفي صبيحة اليوم الرابع غادر رسول الله ﷺ مكة راجعًا إلى المدينة، فلما بلغ سرف على بعد تسعة أميال من مكة نزل بها وأقام، وهناك زفت إليه ميمونة - رضي الله عنها - فبنى بها. ثم عاد إلى المدينة فرحًا مسرورًا بما حباه الله من تصديق رؤياه، وشرَّفه بطواف بيته.

ومن عجيب قدر الله أن ميمونة - رضي الله عنها - لما توفيت كانت بسرف فدفنت هناك.

وبعد رجوعه ﷺ من عمرة القضاء أرسل عدة سرايا إلى جهات متعددة أهمها سرية مؤتة، ثم سرية ذات السلاسل.

معركة مؤتة

[جمادى الأولى سنة (٨ هـ)]

سبق في ذكر كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء أن شرحبيل بن عمرو الغساني كان قد قتل الحارث بن عمير - رضي الله عنه - حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى عظيم بصرى، وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ اشتد عليه فجهز جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبدالله بن رواحة، وعقد لواءً أبيض حمله زيد بن حارثة.

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، فيدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا قاتلوهم، وقال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلًا بصومعة، ولا تقطعوا نخلًا، ولا شجرة، ولا تهدموا بناءً .

وشيع الجيش إلى ثنية الوداع، ثم ودعه، فسار الجيش حتى نزل معان - بجنوب الأردن - فبلغهم أن هرقل نازل بمآب في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من متنصرة العرب مائة ألف، فتشاوروا ليلتين هل يكتبون ذلك إلى رسول الله ﷺ ويطلبون منه المدد، أم يقدمون على الحرب؟ فشجعهم ابن رواحة بأن الذي تكرهونه - وهي الشهادة - إنما خرجتم تطلبونه، ونحن ما نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة، إنما نقاتل بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، وما هي إلا إحدى الحسنيين، إما الظهور وإما الشهادة، فقالوا: صدق والله ابن رواحة، فتقدموا ونزلوا بمؤتة، وتعبؤوا وتهيؤوا للقتال. ودارت معركة عنيفة ورهيبة وعجيبة في تاريخ البشر: ثلاثة آلاف مقاتل يواجهون جيشًا عرمرمًا - مائتي ألف - ويصمدون في وجهه. وهذا الكم الهائل من العدو المدججين بالسلاح يهجم عليهم طول النهار، ويفقد كثيرًا من أبنائه وأبطاله، ولا ينجح في دحرهم.

أخذ راية المسلمين زيد بن حارثة فقاتل وقاتل، ثم قاتل وقاتل حتى شاط في رماح القوم، وخرَّ شهيدًا في سبيل ربه، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل وقاتل، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء وعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ

الراية بشماله، فلم يزل رافعًا لها حتى قُطِعَت شماله، فاحتضنها بعضديه حتى أبقاها تخفق في جو السماء، إلى أن قُتِل بعد أن أصابته بضع وتسعون من طعنة ورمية، كل ذلك فيما أقبل من جسده، وجاءت نوبة عبدالله بن رواحة فأخذ الراية وتقدم، واقتحم عن فرسه المعمعة، ثم لم يزل يقاتل حتى قُتِلَ.

وحتى لا تسقط الراية أخذها ثابت بن أرقم وقال للمسلمين: اصطلحوا على رجل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد، وبذلك انتقلت الراية إلى سيف من سيوف الله، وتقدم خالد بن الوليد فقاتل قتالًا منقطع النظير حتى انقطعت في يده تسعة أسياف، وأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بالمدينة في نفس اليوم بمقتل القواد الثلاثة، وبانتقال القيادة إلى خالد بن الوليد، وسمَّاه سيفًا من سيوف الله.

وبانتهاء النهار رجع الفريقان إلى مقرهما، فلما أصبحوا غيَّر خالد - رضي الله عنه - ترتيب العسكر، فجعل الساقة مقدمة، والمقدمة ساقة، والميسرة ميمنة، والميمنة ميسرة، فظن العدو أن المدد قد وصل للمسلمين فداخله الرعب، وبعد مناوشة خفيفة بدأ خالد يتأخر بالمسلمين، فلم يجترىء العدو على التقدم، خوفًا من أن تكون خدعة، فانحاز المسلمون إلى مؤته، ومكثوا سبعة أيام يناوشون العدو، ثم تحاجز الفريقان وانقطع القتال، لأن الروم ظنوا أن الإمدادات تتوالى على المسلمين، وأنهم يكيدون بهم ليجروهم إلى الصحراء حيث لا يمكنهم التخلص، وبذلك كانت كفة المسلمين راجحة في هذه الغزوة.

وقُتِل في هذه الغزوة اثنا عشر رجلًا من المسلمين، أما عدد قتلى العدو فلم يعرف، إلا أنهم قُتِلُوا بكثرة.

سرية ذات السلاسل:

ونظرًا لموقف عرب الشام في معركة مؤتة رأى رسول الله ﷺ القيام بعمل حكيم يكفُّهم عن نصرة الرومان، والقيام بجانبهم، فأرسل إليهم عمرو بن العاص - رضي الله عنه - في ثلاثمائة من الصحابة ومعهم ثلاثون فرسًا ليستألفهم، لأن أم أبيه كانت من قبيلة بلى - إحدى قبائلهم - فإن أبوا فليلقنهم درسًا على قيامهم بجانب الروم، فلما قرب منهم بلغه أن لهم جمعًا كبيرًا، فاستمدَّ من رسول الله ﷺ، فأمده بمائتين من سراة

المهاجرين والأنصار، وعليهم أبو عبيدة بن الجراح، وكان عمرو بن العاص هو الأمير العام وإمام الصلاة، فدوَّخ بلاد قضاعة حتى لقي جمعًا، فلما هجم عليهم فرّوا وتفرَّقوا.

والسلاسل بقعة وماء وراء وادي القرى، إليها نسبت هذه السرية، لأن المسلمين نزلوا بها، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة (٨هـ) أي بعد الشهر الذي وقعت فيه معركة مؤتة.

الفتح الأعظم : فتح مكة المكرمة

السبب والاستعداد والإخفاء :

وفي رمضان سنة (٨) من الهجرة فتح الله تعالى لرسوله ﷺ مكة المكرمة، وهو الفتح الأعظم، أعز الله به دينه ورسوله، وأنقذ به بيته وبلده، واستبشر به أهل السماء، ودخل به الناس في دين الله أفواجًا.

وسببه أن بني بكر دخلوا مع قريش في عهد الحديبية، وكانت بينهم وبين خزاعة دماء وثأرات في الجاهلية اختفت نارها بظهور الإسلام، فلما وقعت هدنة الحديبية اغتنمها بنو بكر، وأغاروا في شهر شعبان سنة (٨هـ) على خزاعة ليلًا، وهم على ماء يقال له: الوتير، فقتلوا منهم ما يربو على عشرين، وطاردوهم إلى مكة حتى قاتلوهم فيها، وأعانتهم قريش سرًّا برجال وسلاح.

وكانت خزاعة قد دخلت مع المسلمين في عهد الحديبية، وكان قد أسلم عدد منهم، فأبلغوا رسول الله ﷺ الخبر، فقال: والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه.

وأحست قريش بسوء فعلتها، وخافت نتائجها، فأسرعت بإرسال أبي سفيان إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة، فلما جاء المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة - رضي الله عنها - وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه، فقال: يابنية! أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر.

ثم جاء رسول الله ﷺ فكلّمه فلم يرد شيئًا، فذهب إلى أبي بكر ليكلّم رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، فأتى عمر فأبى، وشدَّد في الكلام، فأتى عليًّا فاعتذر، وأشار عليه أن يجير بين الناس ويرجع، ففعل.

أما رسول الله ﷺ فتجهز للغزو، وأمر أصحابه بذلك، واستنفرالأعراب الذين حول المدينة، وكتم الخبر ودعا الله: **«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها»**.

وزيادة في الكتمان أرسل أبا قتادة - رضي الله عنه - في أوائل رمضان إلى بطن إضم، على بعد ستة وثلاثين ميلًا من المدينة، ليظن الظان أنه يريد هذه الناحية.

وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم فيه بمسير رسول الله ﷺ إليهم، وأعطاه امرأة على جُعلٍ، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء، فأرسل عليًا والمقداد والزبير ومرثدًا الغنوي، وقال: انطلقوا إلى روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، فأتوها وطلبوا منها الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقالوا: لتخرجنَّ الكتاب أو لنجردنَّك، فأخرجته من عقاصها، فأتوا به رسول الله ﷺ، فقال: **«ما هذا يا حاطب؟»** فاعتذر بأن له في مكة أهلًا وعشيرة وولدًا، وليست له فيهم قرابة يحمونهم لأجلها، فأراد أن يتخذ عندهم يدًا يحمون بها أهله، ولم يفعله ارتدادًا عن الإسلام، ولا رضىً بالكفر، فقال عمر: دعني يا رسول الله، أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق. فقال ﷺ: **«إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»** فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

في الطريق إلى مكة:

ولعشر من رمضان سنة (٨هـ) غادر رسول الله ﷺ المدينة، متجهًا إلى مكة، ومعه عشرة آلاف من المسلمين، واستعمل على المدينة أبا رهم الغفاري.

ولما بلغ الجحفة لقيه عمه العباس مع أهله مسلمًا مهاجرًا. وبالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبدالله بن أبي أمية فأعرض عنهما، لأنه كان يلقى منهما شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك، وقال علي لأبي سفيان: ائته من قبل وجهه، وقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٩١] ففعل، فقال ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢]. فأنشده أبو سفيان أبياتًا مدحه فيها واعتذر عما فعل به سابقًا.

ولما بلغ كديدًا ورأىٰ أن الصوم شق على الناس أفطر، وأمر الناس بالإفطار، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا عشرة آلاف نار، كل

على حدته، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

وخرج أبو سفيان خائفًا يترقب، ولا يعلم شيئًا، ومعه حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، فلما رأى النيران قال: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا، قال بديل: هذه خزاعة، قال أبو سفيان: خزاعة أقلّ وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ:

وكان العباس - رضي الله عنه - على بغلة رسول الله ﷺ يتجول، فلما سمع الصوت عرفه فقال: أبا حنظلة؟ فقال: أبا الفضل؟ قال: نعم. قال: مالك؟ فداك أبي وأمي. قال: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله.

قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي. قال: والله لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فركب، فلما مرَّ بعمر بن الخطاب رآه فقال: أبو سفيان؟ عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، واشتد إلى رسول الله ﷺ وركض العباس البغلة فسبق إلى رسول الله ﷺ ثم دخل عمر واستأذنه في ضرب عنق أبي سفيان، فقال العباس: إني أجرته، وأخذ برأس رسول الله ﷺ وقال: لا يناجيه الليلة أحد دوني، وأكثر عمر، ورسول الله ﷺ ساكت، ثم قال للعباس: اذهب به إلى بيتك فإذا أصبحت فأتني به.

فلما جاء به في الصبح قال رسول الله ﷺ: **«ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله»**.

قال أبو سفيان: ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، لو كان معه إله غيره لأغنى عني شيئًا بعد.

قال: **«ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله»**.

قال: أمَّا هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيء.

فقال العباس: أسْلِم قبل أن تُضْرَب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

فقال العباس: يارسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا قال: **«نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»**.

دخول رسول الله ﷺ في مكة المكرمة :

وفي الصباح تقدَّم رسول الله ﷺ إلى مكة، وأمَرَ العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس! من هذه؟ فيقول: بنو فلان. (مثلًا بنو سليم) فيقول: ما لي ولبني فلان. حتى مرت كتيبة الأنصار، يحمل رايتها سعد بن عبادة فقال: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الكعبة، فقال: يا عباس! حبذا يوم الذمار.

ثم مَرَّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، ولا يرى منهم إلا الحديد، فقال: سبحان الله! يا عباس! من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قبل ولا طاقة. لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا. قال العباس: يا أبا سفيان! إنها النبوة. قال: نعم إذن.

ثم أُخْبِرَ رسول الله ﷺ بمقالة سعد فقال ﷺ: **«كذب سعد. هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة»** وأخذ الراية من سعد، ودفعها لابنه قيس.

وبعد مروره ﷺ أسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يامعشر قريش! هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله. وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، فأسرع الناس إلى بيوتهم وإلى المسجد الحرام.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ذي طوى أمر خالد بن الوليد قائد الميسرة أن يدخل مكة من أسفلها من طريق كدى، وإن عرض له أحد يحصده حصدًا حتى يوافيه على الصفا. وأمر الزبير قائد الميمنة وحامل راية رسول الله ﷺ أن يدخل مكة من أعلاها من كداء، ويغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه رسول الله ﷺ ، وأمر أبا عبيدة قائد الرجالة ومن لا سلاح له أن يأخذ بطن الوادي حتى ينزل بمكة بين يدي رسول الله ﷺ .

ووبشت قريش أوباشًا بالخندمة، قالوا: إن كان لهم شيء كنا معهم، وإلا أعطينا الذي سُئلنا، فلما مرَّ بهم خالد حصد اثني عشر منهم في مناوشة خفيفة، وفرَّ الباقون. ثم تقدم خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا، وقُتِل من رجاله اثنان

ضلا الطريق وشذا عنه.

أما الزبير فنصب الراية بالحجون عند مسجد الفتح، وضرب قبة فيها أم سلمة وميمونة - رضي الله عنهما - ولم يبرح حتى جاء رسول الله ﷺ، فاستراح قليلاً، ثم سار، وبجانبه أبو بكر - رضي الله عنه - يحادثه، وهو يقرأ سورة الفتح، حتى دخل المسجد الحرام، وحوله المهاجرون والأنصار، فاستلم الحجر الأسود، وطاف بالبيت وهو على الراحلة، ولم يكن محرمًا، وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بعود في يده: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها.

تطهير الكعبة والصلاة فيها:

فلما فرغ من الطواف دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، وأمر بفتحها، ثم أمر بما فيها من الأصنام فأُخْرِجَت وكُسِّرت، وأُمِرَ بما فيها من الصور فَمُحِيت، ثم دخلها هو وأسامة بن زيد وبلال، فأغلق الباب، واستقبل الجدار الذي يقابله، وهو على بعد ثلاثة أذرع، وعن يساره عمود وعن يمينه عمودان، ووراءه ثلاثة أعمدة، فصلى ركعتين، ثم دار في البيت، وكبَّر في نواحيه، ووحَّد الله.

لا تثريب عليكم:

ثم فتح الباب، وكانت قريش قد ملأت المسجد الحرام صفوفًا، فأخذ بعضادتي الباب فخطب خطبة بليغة بيَّن فيها كثيرًا من أحكام الإسلام، وأسقط أمور الجاهلية. وأعلن عن ذهاب نخوتها، ثم قال: «**يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم**» قالوا: خيرًا. أخ كريمٌ، وابن أخ كريم.

قال: «**لا تثريت عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

ثم نزل وجلس في المسجد الحرام، ورد المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وقال: «**خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم**».

البيعة:

ثم أتى الصفا فعلا عليه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه يدعو، ثم بايع الناس على

الإسلام، وممن أسلم يومئذ أبو قحافة والد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ففرح رسول الله ﷺ بإسلامه، ثم بايع النساء بعد الرجال على: **«أن لا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينه في معروف»**.

وممن بايع يومئذ من النساء هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، جاءت متنقبة متنكرة، خوفًا على نفسها مما كانت قد فعلت بنعش حمزة، فلما تمت لها البيعة قالت: يارسول الله! ما كان على وجه الأرض من أهل خباء أحب إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على وجه الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يعزوا من أهل خبائك، فقال رسول الله ﷺ: **«وأيضًا والذي نفس محمد بيده»**.

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد جلس أسفل من مجلس رسول الله ﷺ يبلِّغُ الناس ويبايعهم عنه، وكانت بيعة النساء كلامًا بغير مصافحة.

وقد جاء بعض الناس ليبايعوا رسول الله ﷺ على الهجرة فقال: **«ذهب أهل الهجرة بما فيها، لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»**.

أناس أهدرت دماؤهم :

وكان رسول الله ﷺ قد أَهْدَر يومئذ دماءَ أناسٍ عظمت ذنوبهم، وكبرت جرائمهم، فأمر بقتلهم حتى ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب وقُتِلَ، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم، فأما الذين قُتِلوا فهم: ابن خطل، ومقيس بن صبابة، والحارث بن نفيل، وقينة لابن خطل، أربعة نفر، يقال: وأيضًا الحارث بن طلاطل الخزاعي، وأم سعد، مع احتمال أن تكون أم سعد هي مولاة ابن خطل، فإذن، خمسة أو ستة نفر.

وأما الذين أسلموا - وكانوا قد هربوا أو اختفوا، ثم استؤمن لهم فجاؤوا وأسلموا - فهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وقينة أخرى لابن خطل، أربعة نفر، قيل: وأيضًا كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان. سبعة نفر.

واختفى آخرون خوفًا على أنفسهم دون أن يكون قد أُهْدِرَت دماؤهم، منهم صفوان

ابن أمية، وزهير بن أبي أمية، وسهيل بن عمرو، ثم أسلم هؤلاء كلهم، ولله الحمد.

صلاة الفتح :

ودخل رسول الله ﷺ ضحى في بيت أم هانىء بنت أبي طالب - رضي الله عنها - فاغتسل وصلى ثماني ركعات صلاة الفتح، يسلم في كل ركعتين، وكانت أم هانىء قد أجارت حموين لها، وأراد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن يقتلهما، فسألت رسول الله ﷺ فقال: «**قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانىء**».

بلال يؤذن على ظهر الكعبة :

وحان وقت صلاة الظهر، فأمر رسول الله ﷺ بلالًا، فأذن على ظهر الكعبة، وكان ذلك بمثابة إعلان عن ظهور الإسلام، وقد راع ذلك المسلمين بقدر ما أغاظ المشركين، والحمد لله رب العالمين.

إقامة رسول الله ﷺ بمكة :

ولما تم فتح مكة تخوَّف الأنصار أن يقيم بها رسول الله ﷺ، لأنها بلده وبلد عشيرته وقومه وذلك حين كان رسول الله ﷺ على الصفا، رافعًا يديه يدعو، فلما فرغ من الدعاء قال لهم: «**معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم**» فاطمأنَّ الأنصار وذهب خوفهم وفرحوا.

نعم. بقي رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يجدد معالم الإسلام، ويطهِّرُها من آثار الجاهلية، وقد جدد أنصاب الحرم، ونادى مناديه: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسَّره.

هدم عزى وسواع ومناة :

ولخمس وعشرين من رمضان بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارسًا إلى نخلة، ليهدم العزى وهيكلها، فتوجه إليها، وهدمها، وكانت أكبر أصنامهم.

ثم أرسل عمرو بن العاص في رمضان نفسه لهدم سواع، وهو أعظم صنم لهذيل، كان هيكله برهاط على قرابة (١٥٠) كيلومترًا شمال شرقي مكة فذهب إليه وهدمه،

وأسلم سادنه لما رأى من عجزه.

ثم بعث سيد بن زيد الأشهلي - رضي الله عنه - في رمضان نفسه إلى مناة في عشرين فارسًا، وكانت بالمشلل عند قديد، وهي صنم كلب وخزاعة وغسان والأوس والخزرج، فأتاها وكسرها، وهدم هيكلها.

بعث خالد إلى بني جذيمة :

ثم بعث خالد بن الوليد في شهر شوال إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام، ومعه ثلاثمائة وخمسون رجلًا من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فلما دعاهم إلى الإسلام قالوا: صبأنا، صبأنا، فقتلهم وأسرهم، ثم أمر يومًا أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه ذلك، ولما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فرفع يديه، وقال مرتين: اللهم أبرأ إليك مما صنع خالد، ثم بعث عليًا - رضي الله عنه - بمال، فودى قتلاهم، وأعطى بدل ما ضاع من أموالهم، وفَضِلَ فَضْلٌ فتركه لهم.

وكان بين خالد وعبدالرحمن بن عوف كلام وشر لأجل ما فعله خالد، فلما رجعوا وأخبروا رسول الله ﷺ بذلك قال: **«مهلًا يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان أُحُدٌ ذهبًا ثم أنفقته في سبيل الله، ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته»**.

غـزوة حنـين

ولما تم فتح مكة اجتمعت أشراف قبائل قيس عيلان للشورى، وفي مقدمتها هوازن وثقيف، فقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه. ولا ناهية له عنا، فلنغزوه قبل أن يغزونا، فأجمعوا أمرهم للحرب، واختاروا لقيادتها مالك بن عوف النصرى، فتحشد جمع كبير، ونزل بأوطاس، ومعهم نساءهم وذراريهم وأموالهم، وكان فيهم دريد بن الصمة المشهور بأصالة الرأي، فلما سمع أصوات الصبيان والحيوان سأل مالكًا عن ذلك، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعى ضأن والله، وهل يردُّ المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك، وأشار أن يردَّهم إلى بلادهم، فلم يقبل مالك رأيه، وجمعهم في وادي أوطاس، وانتقل بالمقاتلين إلى وادي حنين، بجانب وادي أوطاس، ونصب فيه كمائن.

وعلم رسول الله ﷺ بتجمعهم فخرج من مكة يوم السبت السادس من شهر شوال، ومعه اثنا عشر ألف مقاتل، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد.

وفي الطريق رأى المسلمون سدرة عظيمة كانت تعلق عليها العرب أسلحتهم، ويذبحون ويعكفون عندها، يقال لها: «ذات أنواط» فقال بعضهم لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال: «**الله أكبر قلتم كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون، إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم**».

وقال بعضهم نظرًا لكثرة الجيش: لن نغلب اليوم، فشق ذلك على رسول الله ﷺ. ولما كان عشية جاء فارس، وأخبره بخروج هوازن بظعنهم ونعمهم وشائهم، فتبسم وقال: تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله.

وفي الليلة العاشرة من شهر شوال سنة (٨هـ) وصل رسول الله ﷺ إلى وادي حنين.

فعبأ جيشه سحرًا قبل أن يدخل فيه، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، وأعطى ألوية لقبائل أخرى، ولبس درعين والبيضة والمغفر، ثم بدأت مقدمة الجيش تنحدر بالوادي، وهي لا تعلم بوجود كمائن العدو فيه، فبينما هي تنحط فيه إذ العدو يمطر عليهم النبال كأنها جراد منتشر، وشُدَّ عليها شدة رجل واحد، فاضطربت مقدمة الجيش بهذه المفاجأة، وانكشف عامة من كان فيها من المسلمين، وتبعهم من كان خلفهم، فصارت هزيمة عامة.

وسَرَّ ذلك بعض المشركين وبعض حديثي العهد بالإسلام، فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال أخ لصفوان: ألا بطل السحر اليوم، وقال له آخر: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجبرونها أبدًا فغضب عليهما صفوان - وهو مشرك - وعكرمة بن أبي جهل - وهو حديث العهد بالإسلام - وانتهراهما.

أما رسول الله ﷺ فثبت في قليل من المهاجرين والأنصار وطفق يركض بغلته ليتقدم نحو العدو، وهو يقول:

أنـــــا الـــــــنـــــــبـــــــي لا كـــــــذب
أنـــــا ابـــــن عـــــبـــــدالـــــمـــــطـــــلـــــب

وأخذ أبو سفيان بن الحارث بلجام بغلته، والعباس بركابه لئلا يسرع نحو العدو، فنزل رسول الله ﷺ عن البغلة ودعا ربه واستنصره، وأمر العباس وكان جهوري الصوت، أن ينادي أصحابه، فنادى - وملأ الوادي بصوته - ألا! أين أصحاب السمرة؟ فعطفوا نحو الصوت عطفة البقر على أولادها، يقولون: لبيك، لبيك، حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا العدو، واقتتلوا.

وصرفت الدعوة إلى الأنصار، ثم إلى بني الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين، واحدة تلو الأخرى، حتى اجتمع حوله ﷺ جمع عظيم، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودًا لم يروها، فَكَرَّ المسلمون واحتدم القتال فقال ﷺ: **«الآن حمي الوطيس»** وأخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه القوم، وقال: **«شاهت الوجوه»**، فملأ أعينهم تراباً، فلم يزل حدهم كليلًا وأمرهم مدبرًا، حتى تفرقوا

وهربوا، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، حتى أخذوا النساء والذراري، وأسروا كثيرًا من المحاربين، وجرح يومئذ خالد بن الوليد جراحات بالغة. وأسلم كثير من مشركي مكة لما رأوا من عناية الله برسوله.

مطاردة المشركين :

ولما هرب المشركون تفرقوا ثلاث فرق. فرقة لحقت بالطائف، وهم الأكثر، وفرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بأوطاس، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أوطاس أبا عامر الأشعري، عم أبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - في جماعة من المسلمين، فبددهم، وظفر بما كان معهم من الغنائم، وقد استُشهِدَ أبو عامر الأشعري في هذه المعركة، وخلفه أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - فرجع مظفرًا منصورًا.

وطاردت طائفة من فرسان المسلمين فلول المشركين المنهزمين إلى نخلة، فأدركت دريد بن الصمة، وقتلته.

وأمر رسول الله ﷺ بجمع الغنائم والسبي، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وستة آلاف سبي، فجمع ذلك كله بالجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري.

غزوة الطائف :

ثم تقدم إلى الطائف، ومر في الطريق بحصن لمالك بن عوف النصري فأمر بهدمه، ولما وصل إلى الطائف وجد العدو قد تحصَّن به، ومعه قوت سنة، ففرض عليه الحصار، وكان المسلمون نازلين قريبًا من العدو، فرشقهم بالنبال حتى أصيب عدد من المسلمين بجراحات، فارتفعوا إلى محل مسجد الطائف اليوم.

واختار المسلمون عدة تدابير لإرغام العدو على النزول، لكنها لم تنجح، كان خالد ابن الوليد يخرج كل يوم يدعوهم إلى المبارزة، فلم يخرج منهم أحد، ونصب عليهم المنجنيق فلم يؤثر، ودخل جمع من أبطال المسلمين تحت دبابتين لينقبوا في جدار الحصن، فرمى العدو عليهم قطعات من حديد محماة بالنار، فاضطروا إلى الرجوع، ولم يتمكنوا من نقب الجدار، وقُطِّعَت أعنابهم ونخيلهم فناشدوا الله والرحم

فتركت، ونادى منادي رسول الله ﷺ أيما عبد نزل إليها من الحصن فهو حر، فنزل ثلاثة وعشرون عبدًا فيهم أبو بكرة، تسور حصن الطائف، وتدلى منه ببكرة يستقي عليها، فكنَّاه رسول الله ﷺ - بأبي بكرة - فشق فرار هؤلاء العبيد عليهم.

وطال الحصار دون جدوى ـ فقد دام حوالي عشرين يومًا، وقيل شهرًا كاملًا - فاستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي، فقال: هم ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأمر بالرحيل، وطلب بعض المسلمين أن يدعو عليهم فقال: اللهم اهدِّ ثقيفًا، وأت بهم مسلمين.

تقسيم الغنائم والسبي :

وعاد رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجعرانة، فمكث بها بضعة عشر يومًا لا يقسم الغنائم، يبتغي أن يقدم هوازن تائبين، فيحرزوا أموالهم وسباياهم، فما جاء أحد، فأخرج الخمس من الغنيمة، وأعطاها لأناس ضعفاء الإسلام، يتألفهم، ولأناس لم يسلموا بعد، ليحبب إليهم الإسلام. فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية من الفضة ومائة من الإبل، وأعطى مثل ذلك لابنه يزيد، ثم لابنه الآخر معاوية، وأعطى صفوان بن أمية مائة ثم مائة ثم مائة - أي ثلاثمائة - من الإبل، وأعطى كلا من حكيم بن حزام، والحارث ابن الحارث بن كلدة، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وعلقمة بن علاثة، ومالك بن عوف، والعلاء بن حارثة، والحارث بن هشام، وجبير بن مطعم، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبدالعزى وغيرهم مائة مائة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين خمسين، وأربعين أربعين حتى شاع بين الناس أن محمدًا يعطي عطاء ما يخاف الفقر، فازدحم الأعراب يطلبون منه، حتى ألجأوه إلى شجرة، فتعلق بها رداؤه، فقال: ردُّوا عليَّ ردائي، فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذابًا.

ثم أخذ وبرة من سنام بعير وقال: والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدُّوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عارًا وشنارًا ونارًا يوم القيامة، فردَّ الناس ما كانوا أخذوه من الغنيمة، ولو كان شيئًا زهيدًا.

ثم أمر زيد بن ثابت بتقسيم الغنيمة، والذي يصيب الرجل الواحد بعد إخراج

الخمس هو حوالي بعير ونصف بعير، وشاتين ونصف شاة، وعشرة دراهم، وثلث السبي الواحد، فإذا صرف نصيب الرجل إلى أحد هذه الأشياء، بعد إعطائه عشرة دراهم، يصير له إما أربعة من الإبل فقط، وإما أربعون شاة فقط، وإما ثلثا السبي الواحد فقط.

شكوى الأنصار وخطبة رسول الله ﷺ :

واستغرب الأنصار ما فعله رسول الله ﷺ حيث أعطى المؤلفة قلوبهم عطايا جزيلة لا تقاس، ولم يعط الأنصار شيئًا، فقال بعضهم: إن هذا لهو العجب، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فأبلغه ذلك سعد بن عبادة رئيس الأنصار، فجمعهم وحدهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ما تفضل الله به عليهم، ثم ذكرهم ما تفضلوا به عليه ﷺ ثم قال: «**أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**».

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وانصرفوا.

وفد هوازن :

وبعد أن تم توزيع الغنائم قدم وفد هوازن يرأسه زهير بن صرد، فأسلموا وبايعوا، ثم قالوا: يارسول الله! إن فيمن أصبتم، الأمهات والأخوات والعمات والخالات، وهن مخازي الأقوام:

فامنن علينا رسول الله في كرم
فإنك المرء نرجوه وننتظر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها
إذ فوك تملؤه من محضها الدرر

وذلك في جملة أبيات:

فقال: إن معي من ترون، وإن أحب الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا إما السبي وإما المال، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا، اردد إلينا نساءنا وأبناءنا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير، فقال: إذا صليت الظهر فقوموا، وأظهروا إسلامكم، وقولوا: نحن إخوانكم في الدين، ثم قولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا، ففعلوا، فقال ﷺ: أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم، وسأسأل الناس، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وامتنع بعض الأعراب، كالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والعباس بن مرداس. فقال ﷺ: **«من طابت نفسه أن يرد فسبيل ذلك؛ وإلا فليرد، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله إلينا»** فردَّ الناس كلهم بطيب أنفسهم إلى عيينة بن حصن، وكسا النبي ﷺ السبايا قبطية قبطية.

وبعد ردِّ السبايا لم يبق في نصيب الرجل الواحد إلا بعيران فقط أو عشرون شاة فقط.

عمرة الجعرانة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم أحرم للعمرة - وهي عمرة الجعرانة - فاعتمر ثم قفل راجعًا إلى المدينة، فبلغها لستٍ أو ثلاث بقين من ذي القعدة.

تأديب بني تميم ودخولهم في الإسلام:

وفي المحرم سنة (٩هـ) نقلت الأخبار إلى المدينة بأن بني تميم يحرضون القبائل على منع الجزية، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ خمسين فارسًا بقيادة عيينة بن حصن الفزاري، فهجم عليهم في الصحراء، فَأَسَرَ منهم أحد عشر رجلًا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيًا، وجاء بهم إلى المدينة، فجاء عشرة من رؤسائهم، ورغبوا في المباهاة، فخطب خطيبهم عطارد بن حاجب فأجابه ثابت بن قيس، ثم أنشد شاعرهم الزبرقان بن بدر فأجابه حسان بن ثابت، فاعترفوا بفضل خطيب الإسلام وشاعره فأسلموا، فردَّ عليهم رسول الله ﷺ سباياهم، وأحسن جائزتهم.

هدم فلس بني طيء وإسلام عديّ بن حاتم :

وفي شهر ربيع الآخر سنة (٩هـ) أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في مائة وخمسين رجلًا على مائة بعير وخمسين فرسًا، ليهدم صنم بني طيء المعروف بالفلس، وكان مع علي - رضي الله عنه - راية سوداء ولواء أبيض، فشنَّ الغارة على محلة حاتم الطائي المعروف بالجود والكرم، فأصاب نعمًا وشاء وسبيًا، وفيها سفانة بنت حاتم الطائي، فلما جاؤوا بها إلى المدينة منَّ عليها رسول الله ﷺ فأطلقها بغير فدية، وأكرمها وأعطاها الراحلة، فذهبت إلى الشام، وكان أخوها عديٌّ بن حاتم قد هرب إليها، فقالت له عن رسول الله ﷺ: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، ائته راغبًا أو راهبًا، فجاء عدي بغير أمان ولا كتاب، فلما كلَّم رسول الله ﷺ أسلم مكانه.

وبينا هو عند رسول الله ﷺ جاء رجل يشكو إليه الفاقة، ثم جاء آخر يشكو قطع السبيل، فقال: يا عدي! هل رأيت الحيرة؟ فلئن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحدًا إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله، فلا يجد أحدًا يقبله منه، وقد رأى عدي خروج الظعينة، وحضر في فتح كنوز كسرى.

هذان الحادثان - تأديب بني تميم، وهدم فلس طيء - من أهم ما وقع بعد فتح مكة وغزوة حنين، وقد وقع أثناء ذلك بعض الأحداث الطفيفة الأخرى، ولكن الصراع القائم بين المسلمين والوثنيين كان قد انتهى بعد الفتح بصفة عامة، وكان المسلمون يستريحون من تعب الحروب وعنائها، ولكن الذي استجد قبل الفتح بقليل هو اتجاه القوات النصرانية المتمركزة في الشام نحو المسلمين، والذي كان من نتائجها معركة مؤتة، وكانت هذه القوات متغطرسة جدًّا لأجل انتصاراتها المتواصلة ضد الفرس، ففتحت باب اللقاء الدامي بينها وبين المسلمين، كان من نتائجه غزوة تبوك في حياة النبي ﷺ ثم فتوح الشام في زمن الخلفاء الراشدين.

غـزوة تبـوك

كانت لمعركة مؤتة سمعة سيئة للرومان، وقواتهم، فقد كان لنجاح المسلمين ـ وهم ثلاثة آلاف فقط ـ في ردع مائتي ألف من قوات الرومان أثر بالغ في نفوس القبائل العربية المجاورة للشام، وأخذت هذه القبائل تتطلع إلى الاستقلال، فرأى الرومان أن يقوموا بغزوة حاسمة يقضون بها على المسلمين في عقر دارهم، المدينة المنورة.

تهيؤ المسلمين للقاء الرومان :

وسمع رسول الله ﷺ بتجمعهم واستعدادهم، فاستنفر المسلمين من كل مكان، وأعلن عن جهة الغزوة صراحة، ليأخذ الناس عدتهم الكاملة، إذ كان الزمان زمان حر شديد، وكانت الشقة بعيدة، وكان الناس في عسر وجدب، وقد طابت الثمار، والظلال، فكانوا يحبون المقام فيها.

وحث رسول الله ﷺ الموسرين على تجهيز المعسرين، فتقدم المسلمون بما لديهم، وأول من جاء بماله أبو بكر - رضي الله عنه - جاء بكل ماله، وهو أربعة آلاف درهم، فقال ﷺ: **«هل أبقيت لأهلك شيئًا؟»** فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - بنصف ماله، وأنفق عثمان بن عفان - رضي الله عنه - كثيرًا يقال: عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، وأعطى خمسين فرسًا، ويقال: إنه أعطى تسعمائة بعير ومائة فرس، وقد قال فيه النبي ﷺ: **«ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»**.

وجاء عبدالرحمن بن عوف بمائتي أوقية، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة وغيرهم بأموال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم، كل على قدره، حتى أنفق بعضهم مدًّا أو مدين، لم يستطع غيره، وأرسلت النساء ما قدرن عليه من الحلي.

وجاءه ﷺ فقراء الصحابة يطلبون أن يحملهم، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢] فجهزهم عثمان

والعباس وغيرهما رضي الله عنهم.

وتكلَّم المنافقون، فلمزوا من أنفق الكثير، وسخروا ممن أنفق القليل، وسخروا من رسول الله ﷺ على جرأته على لقاء الرومان، فلما سُئِلوا قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، وجاء المعذرون من المنافقين والأعراب، واستأذنوا النبي ﷺ في التخلف، محتالين بأعذار شتَّى فأذن لهم، وتخلَّف بعض المسلمين المخلصين تكاسلًا.

الجيش الإسلامي إلى تبوك:

واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة، وخلف علي بن أبي طالب على أهله، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق، وفرق الرايات على رجال، فأعطى الزبير راية المهاجرين، وأعطى أسيد بن حضير راية الأوس، والحباب بن المنذر راية الخزرج، وتحرك من المدينة يوم الخميس، ومعه ثلاثون ألف مقاتل، يريد تبوك، وكانت قلة شديدة في الظهر والزاد، فكان ثمانية عشر رجلًا يتعقبون بعيرًا واحدًا، وأكل الناس أوراق الشجر حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير، ليشربوا ما في كرشه من الماء.

وبينما الجيش في طريقه إلى تبوك إذ لحقه علي بن أبي طالب، سمع طعون المنافقين فلم يصبر حتى خرج، فردَّه رسول الله ﷺ وقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي.

وكان الناس قد نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود - الحجر - فاستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة.

ولما مرَّ بتلك الديار - ديار ثمود - قال لهم أيضًا: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم، ثم قنع رأسه، وأسرع السير، حتى جاز الوادي.

وفي الطريق كان رسول الله ﷺ يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، جمع التقديم والتأخير.

ولما نزل بتبوك لحقه أبو خيثمة، وكان مؤمنًا صادقًا تخلف بغير عذر، فلما دخل

في بستانه - وكان يومًا شديد الحرِّ - وجد زوجتيه قد رشت كل واحدة منها عريشتها، وهيأت طعامًا وماءً باردًا فقال: رسول الله ﷺ في الحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وماء مهيأ، وامرأة حسناء؟ ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زادًا، ففعلتا ثم ركب بعيره وأخذ سيفه ورمحه، وخرج يسير حتى صادف رسول الله ﷺ حين نزل بتبوك.

عشرون يومًا في تبوك :

وعلمت الروم بنزول رسول الله ﷺ في تبوك فخارت عزائمهم، ولم يجترئوا على اللقاء، فتفرقوا في داخل بلادهم، وبقي رسول الله ﷺ عشرين يومًا يرهب العدو، ويستقبل الوفود، وقد جاءه يوحنا بن رؤبة حاكم أيلة، وصحبته أهل جرباء وأذرح، وأهل ميناء، فصالحوه على إعطاء الجزية، ولم يسلموا، وكتب رسول الله ﷺ ليوحنا كتابًا فيه الأمان له، ولأهل أيلة، وفيه الذمة لسفنهم وسياراتهم في البحر والبر، وفيه حرية التنقل والنزول. وأن من أحدث حدثًا فلا يحول ماله دون نفسه.

وكتب لأهل جرباء وأذرح كتابًا أعطاهم فيه الأمان، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب، وصالحه أهل ميناء على ربع ثمارها.

أسر أكيدر دومة الجندل:

وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل، في أربعمائة وعشرين فارسًا، وقال له: إنك ستجده يصيد البقر، فسار خالد حتى إذا كان بمنظر العين من حصنه خرجت بقرة تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر ليصيدها، فتلقاه خالد في خيله، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فحقن دمه، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة رأس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وأقرَّ بإعطاء الجزية على قضية أيلة وميناء.

العودة إلى المدينة :

وبعد عشرين يومًا تحرك رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد استغرق الذهاب والعودة ثلاثين يومًا، فجملة ما غاب رسول الله ﷺ عن المدينة خمسون يومًا.

وفي الطريق مرَّ الجيش بعقبة، فأخذ الناس بطن الوادي، وسلك رسول الله ﷺ طريق العقبة، ولم يكن معه إلا عمار، آخذًا بزمام الناقة، وحذيفة بن اليمان، يسوقها، فتبعه اثنا عشر رجلًا من المنافقين يريدون اغتياله، واقتربوا منه جدًّا، وهم ملتثمون، فبعث رسول الله ﷺ إليهم حذيفة، ليضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه، فضربها، فأرعبهم الله وأسرعوا بالفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ حذيفة بأسمائهم، وبما أرادوه، فسمي بصاحب سر رسول الله ﷺ.

هدم مسجد الضرار:

وكان المنافقون قد بنوا بقباء مسجدًا ضرارًا وكُفْرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي لهم فيه، وذلك عندما كان يستعد للخروج إلى تبوك، فقال: إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله، فلما كان في مرجعه من تبوك، ونزل بذي أوان، وليس بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم، نزل جبريل عليه السلام بخبر المسجد، فبعث رسول الله ﷺ من أحرقه وهدمه.

استقبال رسول الله ﷺ من قبل أهل المدينة :

ولما لاحت للنبي ﷺ معالم المدينة قال: «**هذه طابة، وهذا أُحُدٌ جبل يحبنا ونحبه**» وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان، والولائد يستقبلونه وينشدون:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

حتى دخل ﷺ المسجد فصلى فيه ركعتين وجلس للناس.

المخلفون :

وجاء المتخلفون من المنافقين يعتذرون ويحلفون، فقبل علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وجاء ثلاثة من المؤمنين الصادقين، كانوا قد تخلفوا عنه، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فصدقوا، ولم يعتذروا، فأمرهم أن

ينتظروا حتى يقضي الله فيهم، وأمر المسلمين أن لا يكلموهم، فتغيَّر لهم الناس، وتنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم أنفسهم، وأظلمت عليهم الدنيا، فلما تم على ذلك أربعون يومًا أمرهم أيضًا أن لا يقربوا نساءهم، حتى إذا تم خمسون يومًا أنزل الله توبتهم فقال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

ففرح المسلمون، واستبشر المخلفون، فبشروا وأبشروا، وأجازوا وتصدقوا، وكان أسعد يوم في حياتهم.

ونزلت آيات فضحت المنافقين، وكشفت سرائر الكاذبين، وبشرت المؤمنين الصادقين، فالحمد لله رب العالمين.

كان رجوعه ﷺ عن تبوك في شهر رجب سنة (٩هـ) وتوفي النجاشي أصحمة بن الأبجر ملك الحبشة في هذا الشهر، فصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب في المدينة.

ثم توفيت ابنته أم كلثوم - رضي الله عنها - في شهر شعبان سنة (٩هـ) فصلى عليها ودفنها بالبقيع، وحزن عليها حزنًا شديدًا، وقال لعثمان بن عفان - رضي الله عنه -: **«لو كان عندي ثالثة لزوجتكها»**.

وفي ذي القعدة سنة (٩هـ) توفي رأس المنافقين عبدالله بن أُبي، فاستغفر له رسول الله ﷺ وصلى عليه، وقد حاول عمر - رضي الله عنه - أن يمنعه عن الصلاة عليه فأبى، ثم نزل القرآن ينهى عن الصلاة على المنافقين.

كلمة حول الغـزوات

كانت كلمة الحرب تعني في الجاهلية القتل والفتك والإحراق والتدمير والنهب والسلب وهتك الأعراض والإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل دون رحمة ولا هوادة، فلما جاء الإسلام غير هذا المعنى تغييرًا تامًّا، فجعل الحرب سبيلًا لنصرة المظلومين، وكبت الظالمين، ووسيلة لبسط الأمن والسلام على الأرض، وذريعة لإقامة العدل، وإنقاذ الضعفاء من براثن الأقوياء، ولإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ولم تكن من شيمة العرب أن يخضعوا لأحد، مهما طال القتال، ومهما غلا الثمن، فقد دام القتال بين بكر وتغلب في حرب البسوس أربعين عامًا، وكانت ضحيتها حوالي سبعين ألف مقاتل، ولم يخضع أحدهما للآخر، ودامت حروب الأوس والخزرج أكثر من مائة عام، ولم يخضع أحدهما للآخر، فهذه هي شيمة العرب قبل الإسلام: مواصلة الحروب، وعدم الخضوع للعدو.

ثم جاء النبي ﷺ بالإسلام فواجهته العرب بنفس الأسلوب، وجرروه إلى ساحة القتال، ولكنه واجههم بأسلوب آخر حكيم، حتى فتح قلوبهم قبل أن يفتح بلادهم، وإذا قارنت حصائد غزواته ونتائجها بنتائج حروب الجاهلية ترى عجبًا عجابًا، فمجموع من قتل في جميع غزواته وحروبه ﷺ من المسلمين والمشركين واليهود والنصارىٰ هم في حدود ألف قتيل فقط، والمدة التي استغرقتها هذه الغزوات لا تزيد على ثمانية أعوام، ولكنه في هذه الفترة القليلة، وبإهراق هذا القدر القليل من الدم أخضع الجزيرة العربية كلها تقريبًا، وبسط الأمن والسلام في أقصى ربوعها وأرجائها، أترى أن هذا يمكن بقوة السيف؟ ولا سيما بالنسبة لأولئك الذين كانوا يتفانون في الحروب لأمور تافهة، ويضحون بالآلاف بعد الآلاف دون أن يتصور منهم الخضوع؟ كلا. بل إنها نبوة ورحمة، ورسالة وحكمة، ودعوة ومعجزة، وفضل من الله ونعمة.

حج أبي بكر الصديق رضي الله عنه

كان العرب يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام ومن الشعائر التي كانوا متمسكين بها من هذا الدين حج بيت الله الحرام، فكانوا يقيمون الحج كل عام، ويهتمون به أيَّما اهتمام، وكانوا قد أدخلوا فيه عددًا من البدع والتغييرات، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة سنة ثمان وأمَّر عليها عتاب بن أسيد قام عتاب بالحج، فحج معه المسلمون والمشركون كما كانوا يحجون في الجاهلية، لم يغيِّر منه شيء، فلما كان العام القابل - العام التاسع من الهجرة - أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - أميرًا على الحج، ليقيم بالناس المناسك، فخرج في أواخر ذي القعدة سنة (٩هـ) في ثلاثمائة من أهل المدينة، ومعه عشرون بدنة لرسول الله ﷺ وخمس لنفسه.

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنبذ العهد لجميع المشركين الذين لم يوفوا بعهودهم، وأن يمهل هؤلاء ومن لا عهد له أربعة أشهر، يسيحون خلالها في الأرض كيفما يشاؤون، حتى يعلموا أنهم غير معجزي الله، وأن الله مخزي الكافرين، وأمر بإتمام العهود إلى مدتها للمشركين الذين لم ينقضوها، ولم يظاهروا على المسلمين أحدًا.

فأرسل بها النبي ﷺ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ليبلغها الناس يوم الحج الأكبر، وقال: لا يبلغ عني إلا رجل مني، فلحق علي أبا بكر بضجنان أو بالعرج، فقال له أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. فكان يصلي وراء أبي بكر.

وأقام أبو بكر - رضي الله عنه - للناس حجهم، فلما كان يوم النحر قام علي - رضي الله عنه - عند الجمرة فقرأ على الناس أوائل سورة براءة، وفيها ما سبق من نبذ العهود، والإمهال، والإتمام، وبعث أبو بكر - رضي الله عنه - رجالًا ينادون: ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

الوفود والدعاة والعمال

كان العرب ينتظرون نتيجة الصراع القائم بين قريش والنبي ﷺ، وكانوا يعتقدون أن الباطل لا يمكن أن يسيطر على المسجد الحرام بالقوة والفتح، ولم تكن قصة أصحاب الفيل عنهم ببعيدة، فلما أكرم الله رسوله ﷺ بإدخاله في المسجد الحرام، وبتسليطه على كفار مكة، لم يبق عندهم أدنى شك في كونه رسولاً حقًّا، فبدأت القبائل العربية تتوافد إليه تترى. تؤمن برسالته وتقر بطاعته، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، وخلال فترة قصيرة اتسعت رقعة الدولة الإسلامية من ساحل البحر الأحمر إلى ساحل الخليج العربي، ومن مناطق جنوب الأردن ومشارف الشام إلى سواحل اليمن وعُمان، وأخذ النبي ﷺ ينظم أمور هذه البلاد الشاسعة، فيرسل الدعاة وينصب الولاة، ويبعث جباة الصدقات، ويوفر ما يحتاج إليه نظام العباد والبلاد من القضاة والعمال، وسنمرُّ بشيء من كل ذلك حسب المقام قريبًا إن شاء الله.

والوفود التي توافدت إلى رسول الله ﷺ يزيد عددها على سبعين وفدًا، حسب ما ذكره عامة أهل السير، وقد حاول بعض أهل العلم استقصاء هذه الوفود ـ سواء ثبتت الرواية بها أو لم تثبت ـ فأبلغها قريبًا من مائة وفد.

وكانت الوفادة إليه ﷺ قد بدأت قبل الفتح، وقد توافد إليه البعض في أوائل سنوات الهجرة، بل قد جاءه بعض الوفود قبل الهجرة، إلا أن الوفادة العامة، وفي صورة متوالية مستمرة إنما وقعت بعد الفتح في السنة التاسعة، وقد امتدت إلى السنة العاشرة، بل وإلى ما بعدها أيضًا، ولذلك سميت السنة التاسعة بسنة الوفود.

ومعظم هذه الوفود كان أعضاؤها سادات القبائل، ورؤساؤها، ورجالًا من أهل الحل والعقد منها، وربما توافد الرجل وحده، أو توافد ومعه رهط صغير.

أما الغرض المطلوب من الوفادة فكان يختلف من وفد إلى وفد، فمنهم من جاء يريد رد السبايا والمأخوذين، كما تقدم في وفد هوازن، ووفد تميم، ومنهم من جاء يريد الأمان لنفسه فقط، أو لنفسه وقومه كليهما، ومنهم من جاء يفاخر ويباهي، أو يناظر

ويجادل، ومنهم من جاء يطلب رد الجيش الإسلامي كيلا يهجم على قومه، ومنهم من جاء يقرُّ بالطاعة والجزية، ومنهم من جاء يُبدي رغبته في الإسلام، ويبدي رجاء ذلك من قومه، ومنهم من جاء مسلمًا طائعًا ممثلًا لقومه، يرغب في معرفة تعاليم الإسلام وأحكامه.

وكان رسول الله ﷺ يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق، فيجيزهم بما يرضيهم، ويرغِّبهم في الإسلام، ويعلِّمهم الإيمان والشرائع، ليعلموا من وراءهم، وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لإظهار الدين بين الأعراب في البوادي، فقد كانت نتائج هذه الوفادات، مع تنوعها واختلاف أغراضها، إسلام المتوافدين، ثم إسلام قومهم عاجلاً أو بعد فترة قصيرة، ولم يشذ عن ذلك إلا البعض فقط، مثل بني حنيفة ومسيلمة الكذاب، وفيما يلي نذكر بعض الوفود المهمة.

وفد عبد القيس :

كانوا من سكان شرق الجزيرة العربية، ومن أول من أسلم خارج المدينة، فإن أول مسجد أقيمت فيه الجمعة بعد مسجد رسول الله ﷺ هو مسجدهم بقرية جواثي بالبحرين، وقد توافد بنو عبد القيس مرتين، مرة في السنة الخامسة من الهجرة، ومرة في سنة الوفود، والوافدون في المرة الأولى كانوا ثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلًا، فلما وصلوا المدينة ورأوا النبي ﷺ رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد، وتبادروا إليه يسلمون عليه، وكان فيهم عبدالله بن عوف الأشج، وكان أصغرهم سنًّا، فتخلف عند الركائب حتى أناخها، وجمع المتاع، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء هونًا حتى سلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**».

وكان النبي ﷺ قد قال قبل وصولهم إلى المدينة: سيطلُع عليكم ركب هم خير أهل المشرق، لم يُكرَهُوا على الإسلام، قد أنضوا الركائب، وأفنوا الزاد، اللهم اغفر لعبد القيس. فلما جاؤوه قال: «**مرحبًا بكم غير خزايا ولا ندامى**».

وسألوه عن أمر فصل يعملون به، ويخبرون به من وراءهم، فأمرهم بأربع:

١- شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

٢- وإقام الصلاة.

٣- وإيتاء الزكاة.

٤- وصوم رمضان.

ولم يكن قد فُرِضَ الحج إذ ذاك فلم يأمر به، وطلب منهم أن يعطوا من المغنم الخمس، ونهاهم عما يُسكِر من الأشربة، وكانوا يكثرون منها، ونهاهم أيضًا عن الأواني التي كانوا ينتبذون فيها.

أما الوفادة الثانية فكان فيها أربعون رجلًا، فيهم الجارود بن العلاء العبدي، كان نصرانيًا فأسلم، وحسن إسلامه.

وفود ضمام بن ثعلبة من بني سعد بن بكر:

كان رجلًا جافيًا من أهل البادية ذا غديرتين، قدم المدينة فأناخ بعيره في المسجد، وعقله، ثم قال: أيكم ابن عبدالمطلب؟ فدلُّوه عليه ﷺ فدنا منه وقال: يا محمد! إني سائلك، فمشدِّد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك، فقال: «**سل ما بدا لك**».

فقال: أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك.

قال: «**صدق**».

قال: فمن خلق السماء؟ قال: «**الله**». قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «**الله**». قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: «**الله**».

قال: فبالذي خلق السماء، وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: «**نعم**».

قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال: «**صدق**». قال: فبالذي أرسلك. آلله أمرك بهذا؟ قال: «**نعم**».

قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا، قال: «**صدق**». قال: فبالذي أرسلك. آلله أمرك بهذا؟ قال: «**نعم**»

قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا، قال: «**صدق**». قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: «**نعم**».

قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلًا. قال: «**صدق**»

قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «**نعم**».

ثم ولى. فقال: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليهن، ولا أنقص منهن. فقال النبي ﷺ: «**لئن صدق ليدخلن الجنة**».

ولما رجع إلى قومه مسلمًا وقد خلع الأنداد، وأخبرهم بما أمرهم به ونهاهم عنه - رسول الله ﷺ - ما أمسى من قومه رجل ولا امرأة إلا مسلمًا، وبنوا المساجد، وأذَّنوا بالصلاة، فلم يكن وافد أفضل من ضمام بن ثعلبة.

وفد عذرة وبلى:

في شهر صفر سنة (٩هـ) قدم اثنا عشر رجلًا من بني عذرة، وذكروا قرابتهم من قصي، ونصرتهم له في إخراج بني بكر وخزاعة من مكة، فرحَّب بهم النبي ﷺ وبشَّرهم بفتح الشام، ونهاهم عن سؤال الكاهنة، وذبائح النصب، وقد أسلموا وأقاموا أيامًا ثم رجعوا.

وعلى إثرهم جاء وفد بلى في ربيع الأول سنة (٩هـ) فأسلموا وأقاموا ثلاثًا ثم رجعوا.

وفد بني أسد بن خزيمة:

قدم عشرة منهم في أول سنة تسع، ورسول الله ﷺ في المسجد مع أصحابه، فسلَّموا، وقال متكلمهم: يارسول الله! إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يارسول الله، ولم تبعث إلينا بعثًا، فأسلمنا ولم نقاتلك، كما قاتلك بنو فلان، ونحن لمن وراءنا سلم، فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وسألوه عما كانوا يفعلونه في الجاهلية من العيافة - وهي زجر الطير - والكهانة، وضرب الحصباء، فنهاهم عن ذلك، وسألوه عن الرمل، فقال: علمه نبي، فمن صادف مثل علمه فذاك وإلا فلا، ومعلوم أن المصادفة مستحيلة المعرفة، وكل هذه الأعمال من التخرص على الغيب، ومكث أهل الوفد أيامًا يتعلمون الفرائض، ثم انصرفوا وقد أجيزوا.

وفد تجيب:

تجيب فرع من قبيلة كندة، وقد جاء هؤلاء بصدقات قومهم مما فضل عن فقرائهم،

فسر بهم رسول الله ﷺ، وأكرم مثواهم، وقال أبو بكر - رضي الله عنه -: ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا، فقال ﷺ: «**إن الهدى بيد الله، فمن أراد به خيرًا شرح صدره للإيمان**».

وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها، ثم أرادوا الرجوع فأجازهم رسول الله ﷺ بأفضل ما كان يجيز به الوفود، وسألهم هل بقي منهم أحد، قالوا: غلام خلفناه في رحالنا، هو أحدثنا سنًّا، قال: أرسلوه. فأقبل وقال: يارسول الله! أنا من الرهط الذين أتوك آنفًا، فقضيت حاجتهم فاقض حاجتي. قال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي، فدعا له بذلك، وأمر له بمثل جائزة أصحابه، فكان أقنع الناس، وثبت في الردة على الإسلام، ووعظ قومه فثبتوا عليه.

وفد بني فزارة:

جاء هذا الوفد بعد مرجعه ﷺ من تبوك، في بضعة عشر رجلًا، مقرِّين بالإسلام، وهم مسنتون، فسألهم النبي ﷺ عن بلادهم فشكوا جدبها، وقالوا: فادع الله لنا ربك يغثنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك، فقال: سبحان الله، ويلك هذا، أنا أشفع إلى ربي، فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العلي العظيم، وسع كرسيه السماوات والأرض، فهي تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الحديث. ثم صعد المنبر، ودعا الله حتى أغاثهم بالمطر الغزير والرحمة التامة.

وفد نجران:

نجران منطقة كبيرة على حدود اليمن، طولها مسيرة يوم للراكب السريع، كانت تشتمل على ثلاث وسبعين قرية، فيها عشرون ومائة ألف مقاتل، كلهم على دين النصارى، فكتب رسول الله ﷺ إلى أسقفهم يدعوهم إلى الإسلام، فلما قرأ الكتاب فزع، واستشار خاصتهم ثم عامتهم، فاستقرَّ رأيهم على إرسال وفد يعالج القضية، فأرسلوا وفدًا يتكون من ستين رجلًا، فجاؤوا النبي ﷺ وقد لبسوا حَللًا من حبرة يجرونها، وأردية من حرير، وخواتيم من ذهب، فلم يكلمهم رسول الله ﷺ فأشار عليهم بعض كبار الصحابة أن يغيِّروا حللهم، ويضعوا خواتيمهم، ففعلوا، فكلَّمهم

رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا، وقالوا: كنا مسلمين قبلكم. فقال لهم رسول الله ﷺ: يمنعكم عن الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولدًا.

قالوا: فمن مثل عيسى؟ خُلِقَ من غير أب! فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٥٩-٦١].

فتلاها عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى المباهلة، فطلبوا منه فرصة، واستشاروا فيما بينهم، فقالوا: إن كان نبيًّا ولاعناه لا يبقى منا شعر ولا ظفر إلا هلك، فرضوا بإعطاء الجزية، وهي ألف حلة في صفر، وألف حلة في رجب، مع كل حلة أوقية، وجعل لهم الذمة والأمان، والحرية في الدين، ثم قالوا: أرسل معنا رجلًا أمينًا، فأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح، فسمي بأمين هذه الأمة.

وفي عودتهم إلى نجران أسلم اثنان منهم، ثم بدأ الإسلام يفشو فيهم حتى أسلم جمع منهم.

وفد أهل الطائف:

سبق أن النبي ﷺ حاصر أهل الطائف بعد غزوة حنين، ثم تركهم في أماكنهم ورجع، فلما رجع تبع أثره عروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم، ثم رجع ودعا قومه إلى الإسلام - وكان أحب إليهم من أبكارهم، فظن أنهم يطيعونه - فرموه بالنبل من كل جانب حتى قتلوه، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فبعثوا عبد ياليل بن عمرو، ومعه خمسة آخرون من أشرافهم، وذلك في رمضان سنة (٩هـ) فلما قدموا المدينة ضرب عليهم رسول الله ﷺ قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا.

ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام، وهم لا يسلمون، حتى طلبوا منه أن يسمح لهم بالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، وأن لا يهدم اللّات، ويعفيهم عن الصلاة، وأن لا يكسّروا أصنامهم بأيديهم، فأبى، وأخيرًا رضخوا له،

وأسلموا واشترطوا أن يتولى هو بهدم اللّات، وأن ثقيفًا لا يهدمونها بأيديهم أبدًا فقبل ذلك.

وكان عثمان بن أبي العاص الثقفي أصغرهم سنًّا، فكانوا يخلفونه في رحالهم، فكان إذا رجعوا يذهب إلى النبي ﷺ يستقرؤه القرآن، وإذا رآه نائمًا استقرأ أبا بكر، حتى حفظ شيئًا كثيرًا من القرآن، وهو يكتم ذلك عن أصحابه، فلما أسلموا، أمَّرَه عليهم رسول الله ﷺ لحرصه على الإسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين.

ورجع الوفد إلى قومه فكتم عنهم إيمانه، وخوَّفهم الحرب والقتال، وقالوا: جئنا رجلًا فظًّا غليظًا قد ظهر بالسيف، ودان له الناس، فعرض علينا أمورًا شديدة، وذكروا ما تقدم من ترك الزنا والخمر والربا وغيرها، وإلا يقاتلهم، فأخذتهم النخوة، واستعدُّوا للقتال يومين أو ثلاثة أيام، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب، فقالوا للوفد: ارجعوا فأعطوه ما سأل، فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا، فأسلم ثقيف.

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة الثقفي في رجال إلى الطائف ليهدموا اللّات، فكسَّروها وهدموا بنيانها.

وفد بني عامر بن صعصعة:

كان في هذا الوفد عدو الله عامر بن الطفيل الذي غدر بأصحاب بئر معونة، وأربد بن قيس، وجبار بن أسلم، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم، وقد تآمر عامر، وأربد بن قيس على اغتيال النبي ﷺ، فلما قدموا المدينة دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال عامر - وهو المتكلم عن الوفد-: أُخَيِّرك بين خصال ثلاث: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر، وألف شقراء.
فرفض رسول الله ﷺ كل ذلك، وقال: اللهم اكفني عامرًا واهدِ قومه.

ودار أربد، حينما كان عامر يتكلم، خلف النبي ﷺ واخترط سيفه شبرًا ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله.

فلما رجعوا وكانوا ببعض الطريق نزل عامر عند امرأة من قومه من بني سلول، ونام في بيتها، فبعث الله عليه الطاعون، وأخذته غدة في حلقه، فقال: أغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية؟ ائتوني بفرسي، فركب فمات على فرسه.

وأما أربد فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣].

وقد روى قصتهما موئلة بن جميل الصحابي - أحد رجال قبيلتهما بني عامر - وكان هو أيضًا قد أتى النبي ﷺ فأسلم وهو ابن عشرين سنة، وبايعه ومسح يمينه وساق إبله إلى رسول الله ﷺ فصدقها بنت لبون، ثم صحب بعده أبا هريرة، وعاش في الإسلام مائة سنة، وكان يسمى ذا اللسانين لأجل فصاحته.

وفد بني حنيفة:

كانت وفادتهم سنة (٩هـ) وكانوا سبعة عشر رجلًا، فيهم مسيلمة الكذاب، نزلوا في بيت رجل من الأنصار، ثم جاؤوا النبي ﷺ فأسلموا، أما مسيلمة فيقال: إنه أيضًا أسلم معهم، ويقال: إنه تخلف ولم يحضر، وقال: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته.

وكان النبي ﷺ قد أُرِيَ قبل ذلك في المنام أنه أُتِيَ بخزائن الأرض، فوقع في يديه سواران من ذهب، فكبُرا عليه وأهماه، فأوحي إليه أن انفخهما، فنفخهما فذهبا، فأولهما كذابين يخرجان من بعده.

فجاء رسول الله ﷺ مسيلمة، وفي يده ﷺ قطعة من جريد، ومعه ثابت بن قيس، فوقف عليه في أصحابه، فكلَّمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خلَّينا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، والله إني لأراك الذي أريت فيه ما أريت، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني، ثم انصرف.

ورجع الوفد فلبث مسيلمة يسيرًا ثم ادَّعى أنه أُشْرِك في الأمر مع النبي ﷺ وادَّعى النبوة، ولفَّق السجعات، وأحلَّ لقومه الخمر، والزنا، وافتتن به قومه، وتفاقم أمره، حتى توفي رسول الله ﷺ وهو على ذلك، فازداد قومه افتتانًا به، فأرسل إليه أبو بكر - رضي الله عنه - الجيوش بقيادة خالد بن الوليد، فجرت بينه وبين المسلمين حروب شديدة، قتل فيها مسيلمة ومعظم جنوده، وقضي على فتنته، وكان الذي قتله وحشي بن حرب قاتل حمزة - رضي الله تعالى عنه -.

أما الكذاب الثاني الذي الذي أُرِيه النبي ﷺ فهو الأسود العنسي، وسنأتي على ذكره.

وفود رسول ملوك حمير، وبعث معاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري :

وبعد مرجعه ﷺ من تبوك قدم مالك بن مرة الرهاوي، يحمل معه كتاب ملوك حمير، وهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعين، ومعافر وهمدان، وكانوا قد أسلموا وأرسلوه بذلك، فكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابًا بيَّن لهم فيه ما لهم وما عليهم، وأعطى الذمة للمعاهدين.

ثم أرسل إليهم معاذ بن جبل في رجال من أصحابه، على الكورة العلياء من جهة عدن بين السكون والسكاسك، وكان قاضيًا وحاكمًا في الحروب، وعاملًا على أخذ الصدقة والجزية، ويصلي بهم الصلوات الخمس، وبعث أبا موسى الأشعري - رضي الله عنه - على الكورة السفلى، زبيد ومأرب وزمع الساحل، وقال: يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا.

وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله ﷺ، أما أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - فقدم عليه ﷺ في حجة الوداع.

وفد همدان وبعث خالد وعلي :

همدان قبيلة مشهورة باليمن، قدم وفدها سنة (٩هـ) بعد مرجعه ﷺ من تبوك، وفيهم مالك بن النمط، وكان شاعرًا مجيدًا فقال:

حلفت برب الراقصات إلى منى
صوادر بالكبان من هضب قردد

بأن رسول الله فينا مصدق
رسول أتى من عند ذي العرش مهتد

فما حملت من ناقة فوق رحلها
أشد على أعدائه من محمد

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا وأقطعهم فيه ما سألوه، واستعمل مالك بن النمط

على من أسلم من قومه، ثم بعث خالد بن الوليد يدعو بقيتهم إلى الإسلام، فمكث فيهم ستة أشهر ولم يسلموا، ثم بعث إليهم علي بن أبي طالب، وأمره أن يقفل خالدًا ففعل، وقرأ عليهم كتابًا لرسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا، فكتب البشارة إلى رسول الله ﷺ فخر ساجدًا. ثم رفع رأسه فقال: «**السلام على همدان، السلام على همدان**».

وفد بني عبد المدان :

ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ربيع الآخر سنة (١٠هـ) إلى بني عبدالمدان بنجران من أرض اليمن ليدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام؛ فإن أبوا قاتلهم، فلما قدم إليهم بعث الركبان في كل وجه، يدعون إلى الإسلام، ويقولون: أسلموا تسلموا، فأسلموا، فأقام خالد بينهم يعلّمهم الإسلام، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه أن يقدم بوفدهم ففعل، ولما اجتمعوا به ﷺ قال لهم: بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدًا بظلم، قال: صدقتم، وأمَّرَ عليهم قيس بن الحصين. ورجعوا إلى قومهم في بقية شوال أو صدر ذي القعدة، ثم أرسل إليهم عمرو بن حزم ليفقههم في الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له بذلك كتابًا، وهو كتاب مشهور جدًا.

إسلام بني مذحج:

وهي - أيضًا - قبيلة يمانية، أرسل إليهم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في رمضان سنة (١٠هـ) ليدعوهم إلى الإسلام، وأمره أن لا يقاتلهم حتى يقاتلوه، فلما انتهى إليهم، ولقي جموعهم دعاهم إلى الإسلام، فأبوا ورموا المسلمين بالنبل، فصف علي مع أصحابه، وقاتلهم حتى هزمهم، فكفَّ عن طلبهم قليلًا، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وبايعه رؤساؤهم، وقالوا: نحن من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا، فخذ منها حق الله، ففعل، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فوافاه بمكة في حجة الوداع.

وفد أزد شنوءة :

هي - أيضًا - قبيلة مشهورة في جهة اليمن، توافدوا برئاسة صرد بن عبدالله

الأزدي، فأسلموا، فأمَّرَه عليهم، وأمَرَه أن يجاهد بمن أسلم من يليه من أهل الشرك.

وفود جرير بن عبدالله البجلي وهدم ذي الخلصة :

وقدم على رسول الله ﷺ جرير بن عبدالله البجلي، وهو من مشاهير الصحابة، وكان لقبيلته بجيلة وخثعم صنم ومعبد كبير يسمونه ذا الخلصة، يضاهون به الكعبة، فكانوا يقولون للكعبة: الكعبة الشامية، ولمعبدهم: الكعبة اليمانية، فقال رسول الله ﷺ يومًا لجرير: ألا تريحني من ذي الخلصة؟ فشكا إليه أنه لا يثبت على الخيل، فضرب بيده الكريمة في صدره وقال: اللهم ثبته واجعله هاديًا مهديًّا، فلم يسقط بعد ذلك عن فرس. ونفر جرير إلى ذي الخلصة في خمسين ومائة راكب من قومه أحمس - فرع من بجلية - فخرب ذلك البيت، وأحرقه، وتركه مثل الجمل الأجرب، وبعث أبا أرطاة إلى رسول الله ﷺ يبشره بذلك، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة لخيل أحمس ورجالها، خمس مرات.

ظهور الأسود العنسي وقتله :

وبينما استتب الأمن والإسلام في اليمن، وعمال رسول الله ﷺ متوافرون في جميع جهاتها إذ ظهر الأسود العنسي من بلدة كهف حنان في سبعمائة مقاتل، يدعي لنفسه النبوة والأمر، وتقدم إلى صنعاء واحتلَّها، ثم تفاقم أمره، واشتدت فتنته، وقوي ملكه، حتى انحاز عمال رسول الله ﷺ إلى أرض الأشعريين، وعامله المسلمون بالتقية، واستمر ذلك ثلاثة أشهر، أو أربعة أشهر، ثم احتال عليه فيروز الديلمي وزملاؤه من الفرس، وكانوا قد أسلموا، فقتله فيروز، واحتز رأسه، ورماه خارج الحصن، فانهزم أصحابه، وظهر الإسلام وأهله، وتراجع نواب رسول الله ﷺ إلى أعمالهم، وكتبوا بذلك إليه ﷺ.

وكان قتله قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة، فأتاه الوحي، فأخبر به أصحابه، ثم وصل الكتاب في زمن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

حجة الوداع

ولما تم إبلاغ الدعوة في أنحاء الجزيرة العربية، وأوجد الله طائفة من المؤمنين تتكفل بحفظها وبإبلاغها إلى أقصىٰ أرض الله، قدر الله أن يُري رسول الله ﷺ ثمار جهده المتواصل قبل أن ينتقل إلى الله، فأكرمه الله بحج بيته المكرم في ذي الحجة سنة (١٠هـ).

ولما أراد ﷺ الحج أذَّن به في الناس، فاجتمع بالمدينة بشر كثير، فلما كان يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة وهو اليوم السادس والعشرون منه، ترجَّل وادهن، ولبس إزاره ورداءه، وانطلق من المدينة بعد صلاة الظهر، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلي العصر، فصلاها بها ركعتين، ثم بات بها، فلما أصبح قال: أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك، وقل عمرة في حجة، وكان هذا إباحة للعمرة في أيام الحج، وكان أهل الجاهلية يرونها من أفجر الفجور.

ثم اغتسل رسول الله ﷺ قبل الظهر، وتطيب في رأسه وبدنه بطيب فيه مسك. ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، وأهلَّ بالحج والعمرة في مصلاه، وقرن بينهما، فقال: «**اللهم لبيك عمرة وحجًّا**» ثم لبَّى: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**». وكان أحيانًا يقول: «**لبيك إله الحق**».

ثم خرج من المصلى فركب القصواء، وأهل مرة أخرى، فلما استوت به بالبيداء أهلَّ أيضًا، وأشعر هديه بعد الصلاة وقلدها بذي الحليفة.

ثم واصل سيره حتى دنا من مكة، فبات بذي طوى، وصلى به الفجر، ثم اغتسل ومضى حتى دخل المسجد الحرام، وذلك صباح يوم الأحد لأربع مضين من ذي الحجة، فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، ثم أقام بأعلىٰ مكة عند الحجون، ولم يعد إلى الطواف، وبقي في إحرامه، لأنه كان قارنًا جمع بين إحرامي الحج والعمرة، لكونه قد ساق الهدي، وأمر كل من ساق معه الهدي أن يبقى في إحرامه، وأما من لم يسق معه الهدي فأمره أن يقصر رأسه بعد الطواف والسعي، ويحل حلالًا تامًّا،

ويجعل عمله هذا عمرة، سواء كان قد أحرم بنية الحج أو العمرة أو كليهما. وقال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة، ولأحللت، فحلَّ من لم يكن معه هدي.

ثم توجه ﷺ يوم التروية ـ وهو اليوم الثامن من ذي الحجة ـ إلى منى، وأحرم للحج كل من كان قد حل، فصلى بمنى خمس صلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، وصلى الرباعية منها ركعتين قصرًا، ثم أجاز من منى بعدما طلعت الشمس حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، فلما زالت الشمس ركب القصواء وأتى وادي عرنة وقد اجتمع الناس حوله فقام فيهم خطيبًا، فحمد الله وأثنىٰ عليه، وتشهد، وأوصى بتقوى الله. ثم قال فيما قال: «**أيها الناس! اسمعوا قولي. فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمور الجاهلية موضوع تحت قدمي، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث** [وكان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل] **وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا العباس بن عبدالمطلب، فإنه موضوع كله، واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد**».

وقد بيَّن في هذه الخطبة عدة أمور أخرى، فلما فرغ منها نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فكان يوم نعمة وسعادة وشكر.

ثم أذَّن بلال بعد الخطبة ثم أقام فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ركعتين، ثم أقام فصلى العصر ركعتين، جمعهما في وقت الظهر جمعًا مقدمًا. ولم يصل بينهما

شيئًا، ثم أتى الموقف فجعل بطن ناقته إلى الصخرات، واستقبل القبلة، ، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلًا، ثم دفع حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر مبكرًا، ثم أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ودعا وكبَّر وهلَّلَ ووحَّد حتى أسفر جدًا.

ثم دفع إلى منى، قبل أن تطلع الشمس حتى أتى الجمرة الكبرى، فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها، ولم يزل يلبي حتى رمى الجمرة، فلما رماها قطع التلبية، ووقف عند هذه الجمرة يقول: «**خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا**». .

ثم أتى منزله بمنى فنحر ثلاثًا وستين بدنة بيده، ثم نحر علي بقية المائة، وهي سبع وثلاثون بدنة. ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر وطبخت، فأكلوا من لحمها وشربوا من مرقها.

وبعد فراغه من النحر دعا الحلاق، فأعطاه شقه الأيمن فحلق، فقسمه بين الناس من شعرة وشعرتين، ثم حلق الأيسر فأعطاه لأبي طلحة.

ثم لبس ثيابه، وتطيب قبل أن يطوف، ثم ركب حتى أتى البيت، فطاف طواف الإفاضة، ولم يطف بين الصفا والمروة، وصلى الظهر، وأتى على بني المطلب، وهم يسقون على زمزم، فقال: انزعوا بني عبدالمطلب! فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم، فناولوه دلوًا فشرب منه.

ثم رجع ﷺ إلى منى فمكث بها ليالي التشريق (١١، ١٢، ١٣) من ذي الحجة ـ يرمي الجمرات الثلاث كل يوم إذا زالت الشمس، يبدأ بالجمرة الصغرى فيرميها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، ثم الوسطى، ثم الكبرى كذلك.

وقد خطب رسول الله ﷺ خطبة يوم النحر، ثم خطبة في أوسط أيام التشريق. أكد فيهما ما سبق في خطبة عرفة وزاد عليها، وقد نزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق قبل الخطبة.

وفي اليوم الثالث عشر ـ وهو يوم النفر الثاني، وثالث أيام التشريق، وكان يوم

الثلاثاء ـ نفر رسول الله ﷺ من منى بعد رمي الجمرات، فنزل بالأبطح، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وبعث عائشة أم المؤمنين مع أخيها عبدالرحمن بن أبي بكر ليعمرها من التنعيم، فأحرمت وقضت عمرتها، ثم جاءته بالأبطح سحرًا، وكان ﷺ قد رقد به رقدة، فلما جاءته آذن بالرحيل، وركب إلى البيت فطاف به طواف الوداع، وصلى صلاة الفجر، ثم انصرف متوجهًا إلى المدينة، وقد خرج من أسفل مكة، ولما قرب من المدينة ولاحت له معالمها كبَّر ثلاثًا ثم قال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده**».

بعث أسامة بن زيد:

واستقر رسول الله ﷺ بالمدينة يسبح ربه بحمده على ما أراه من دخول الناس في دين الله أفواجًا، ومن نجاح دعوته التي قام بها قبل نحو ثلاث وعشرين سنة، وقد استقبل بعد عودته إلى المدينة بعض الوفود. وجهَّز أسامة بن زيد في سبعمائة مقاتل، وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وقد تحرك جيشه ونزل بالجرف على ثلاثة أميال من المدينة، ولكن نقلت إليه أخبار مقلقة عن مرض رسول الله ﷺ فتريث ينتظر النتيجة، فجاء قضاء الله بوفاة رسول الله ﷺ وأن يكون هذا البعث أول بعث في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

إلى الرفيـق الأعلـى

معالـم التوديـع :

وبعدما بلَّغ رسول الله ﷺ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة بدأت طلائع الوداع من الدنيا تتسم في أقواله وأفعاله.

اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يومًا، وعارضه جبريل بالقرآن مرتين: فقال لابنته فاطمة: «**لا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي**». وودع معاذًا إلى اليمن فأوصاه، ثم قال: «**يا معاذ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري**». فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ.

وقال ﷺ في حجة الوداع مرارًا: «**لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، ولعلي لا أحج بعد عامي هذا**» وكان نزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . الآية﴾ [المائدة: ٣] وكذلك نزول سورة النصر إشعارًا بأنه فرغ من مهمته في الدنيا، ولذلك سميت بحجة الوداع، أي إنه ودَّع الناس لينتقل إلى ربه ـ سبحانه وتعالى ـ.

وفي أوائل شهر صفر خرج إلى أُحد، فصلى على الشهداء كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**أنا فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**».

وفي أواخر شهر صفر خرج إلى بقيع الغرقد في جوف الليل، فاستغفر لهم وقال: «**إنا بكم لاحقون**».

بدايـة المرض :

ويوم الإثنين الأخير من شهر صفر شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع، قالت عائشة: رجع من البقيع وأنا أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه، فقال: «**بل أنا والله يا عائشة وا رأساه**».

كان هذا بداية مرضه ﷺ وهو مع ذلك يدور على نسائه، حتى اشتد به المرض، وهو في بيت ميمونة فأخذ يسأل: «**أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟**» يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء، فخرج يمشي بين الفضل بن عباس، وعلي بن أبي طالب تخط قدماه بالأرض، حتى انتقل إلى بيت عائشة.

عهده ووصيته:

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : لما دخل بيتي، واشتد به وجعه قال: «**هريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلِّي أعهد إلى الناس**».

فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن، ثم خرج إلى الناس، فصلَّى بهم وخطبهم.

وقال فيما قال: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**» وقال: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» وقال: «**لا تتخذوا قبري وثنًا يُعْبد**».

وعرض نفسه للقصاص، وأوصى بالأنصار خيرًا. ثم قال: «**إن عبدًا خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ماعنده**». قال أبو سعيد الخدري: فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا.

ثم أثنى رسول الله ﷺ على أبي بكر، ، وأمر بسد الأبواب الشارعة في المسجد إلا باب أبي بكر.

وكان ذلك يوم الأربعاء، فلما كان يوم الخميس وقد اشتد به الوجع، قال: «**هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده**»، فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله، فاختلفوا، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «**قوموا عني**».

وأوصى في ذلك اليوم بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وبإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، وأكد لهم أمر الصلاة، وما ملكت أيمانهم،

وقال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي».

استخلاف أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ على الصلاة:

وكان النبي ﷺ مع شدة مرضه يصلي بالناس، فلما كان ذلك اليوم ـ يوم الخميس ـ وحان وقت صلاة العشاء اغتسل ﷺ في مخضب ليتخفف، ثم ذهب ليقوم فأغمي عليه، ثم أفاق فاغتسل ثانيًا، ثم ذهب ليقوم فأغمي عليه، ثم أفاق فاغتسل ثالثًا فلما ذهب ليقوم أغمي عليه، فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام، وجملة الصلوات التي صلَّاها أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة.

ويوم السبت أو الأحد وجد رسول الله ﷺ في نفسه خفة فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فأجلساه إلى يساره، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ، والناس يقتدون بأبي بكر، يسمعهم التكبير.

تصدقه بما لديه:

ويوم الأحد اعتق النبي ﷺ غلمانه، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين سلاحه، وجاء الليل فأرسلت عائشة - رضي الله عنها - بمصباحها إلى امرأة وقالت: أقطري لنا في مصباحنا من عكتك السمن، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير.

آخر يومه في الدنيا:

ولما أصبح يوم الاثنين ـ وكان يوم نوبة عائشة ـ وقام أبو بكر يصلي بالناس صلاة الفجر، كشف رسول الله ﷺ ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه، وظن أنه ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم، فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتمّوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

وفي هذا اليوم - أو في هذا الأسبوع - دعا رسول الله ﷺ فاطمة فسارها بشيء فبكت، ثم سارها بشيء فضحكت، وسألتها عائشة عن ذلك فكتمت، حتى توفي رسول الله ﷺ فأخبرتها أنه قال لها في الأولى: إنه يموت في مرضه هذا فبكيت، وقال لها في

الثانية: إنها أول أهله يتبعه فضحكت، وبشَّرها أيضًا أنها سيدة نساء العالمين.

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من شدة الكرب، فقالت: وا كرب أباه، فقال: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**» ودعا الحسن والحسين فقبَّلهما، ودعا أزواجه فوعظهن وذكَّرهن.

وطفق الوجع يشتد ويزيد، وانتقض السم الذي أكله بخيبر، فأخذ يحس بشدة ألمه، وكان قد طرح خميصة على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه. فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** - يحذر ما صنعوا - **لا يبقين دينان بأرض العرب**»، وكان هذا من آخر ما تكلَّم وأوصى به الناس، وكرر مرارًا: «**الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم**».

الاحتضار والموت:

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى صدرها، بين سحرها ونحرها.

وجاء أخوها عبدالرحمن بسواك من جريدة رطبة، فأخذ رسول الله ﷺ ينظر إلى السواك، ففهمت عائشة أنه يريده، فسألته فأشار برأسه: أن نعم، فأخذته ومضغته حتى لينته، فاستاك به رسول الله ﷺ كأحسن ما كان يستاك، وبين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء، ويمسح به وجهه، ويقول: «**لا إله إلا الله إن للموت سكرات**».

ثم رفع يديه أو إصبعه وشخَّص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة فسمعته يقول: «**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى**».

وكرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، وفاضت روحه، ومالت يده، ولحق بالرفيق الأعلى، وذلك يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة (١١هـ) حين اشتد الضحى، وقد تم له ثلاث وستون سنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

حيرة الصحابة وموقف أبي بكر:

وتسرب الخبر بين الصحابة خلال لحظات، فأظلمت عليهم الدنيا، وكادوا

يفقدون وعيهم، فلم يكن يوم أحسن ولا أضوء من يوم دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، ولم يكن يوم أظلم ولا أقبح من يوم مات فيه، وكان لهم ضجيج كضجيج الحجاج من البكاء.

وقام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في المسجد يقول: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولا يموت حتى يفني الله المنافقين، وأخذ يتوعد بالقطع والقتل من يقول إنه مات، والصحابة حوله في المسجد حائرون مندهشون.

وكان أبو بكر - رضي الله عنه - قد خرج إلى مسكنه بالسنح حين رأى الخفة في مرضه ﷺ صباحًا، فلما توفي ﷺ أقبل أبو بكر على دابته حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلِّم الناس، حتى دخل على عائشة، فقصد رسول الله ﷺ، وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف وجهه، فقبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

ثم خرج فقال: اجلس يا عمر، فأبى أن يجلس، فتركه وجاء إلى المنبر وقام بجنبه، وترك الناس عمر، وأقبلوا إليه، فتشهَّد وقال: أما بعد، من كان منكم يعبد محمدًا فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال ابن عباس: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها.

قال عمر: فوالله! ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق، فعقرت، حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض، وعرفت أنه قد مات.

اختيار أبي بكر لخلافته ﷺ:

وكان أهم قضية بعد وفاة رسول الله ﷺ هو اختيار أمير يقوم مقامه ﷺ في إدارة شؤون العباد والبلاد، وكان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يرى أنه أحق بالخلافة لقرابته منه ﷺ فاجتمع هو والزبير ورجال من بني هاشم في بيت فاطمة - رضي الله عنها - واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، ليختاروا أميرًا منهم، واجتمع المهاجرون إلى

أبي بكر وعمر - رضي الله عنهم -.

وذهب أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - ومعهما أبو عبيدة بن الجراح والمهاجرون إلى سقيفة بني ساعدة فجرى بينهم وبين الأنصار نقاش وحوار ذكر فيه الأنصار فضلهم واستحقاقهم، فقال أبو بكر: إن ما ذكرتم من خير فأنتم أهله، وما تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش - أي لا ينقادون لحكم أحد غير قريش - هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، ثم أخذ بيد عمر وبيد أبي عبيدة، وقال: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين. فقال رجل من الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فكثر اللغط والأصوات، وخشوا الاختلاف، فقال عمر لأبي بكر: ابسط يدك، فبسطها، فبايعه هو والمهاجرون والأنصار.

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض:

ويوم الثلاثاء غسّلوا رسول الله ﷺ ولم يجردوه من ثيابه، وقام بغسله العباس وعلي، والفضل وقثم ابنا العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأوس بن خولى، وكان العباس وابناهما يقلّبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس أسنده إلى صدره.

وقد غسلوه ثلاث غسلات بماء وسدر، وكان الماء من بئر لسعد بن خيثمة بقباء، يقال لها الغرس، وكان ﷺ يشرب منها.

وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة، أدرج فيها إدراجًا.

وحفر أبو طلحة قبره في الموضع الذي توفي فيه، وجعل القبر لحدًا، ثم وضع سريره على شفير القبر، ودخل الناس أرسالاً عشرة فعشرة، يصلون عليه أفذاذًا، لا يؤمهم أحد، وأول من صلّى عليه عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الصبيان ثم النساء، أو النساء ثم الصبيان.

وانتهى في ذلك يوم الثلاثاء ومعظم ليلة الأربعاء، ثم أنزلوه ﷺ في القبر ودفنوه في أواخر الليل ﷺ.

البيت النبوي

وكان له ﷺ في مختلف مراحل حياته إحدى عشرة امرأة أو اثنتا عشرة امرأة، واجتمع منهن تسع في آخر حياته، أما الاثنتان أو الثلاث فقد وافتهن الوفاة والنبي ﷺ حي، وفيما يلي ذكر موجز لهن:

١ـ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -:

تقدم أن النبي ﷺ تزوجها وهي في سن الأربعين، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وجميع أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم، ولم يتزوج عليها امرأة أخرى مدة حياتها، توفيت بمكة في رمضان سنة عشر من النبوة، ودفنت بالحجون ولها (٦٥) سنة.

٢ـ أم المؤمنين سودة بنت زمعة - رضي الله عنها-:

كانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو، فأسلما وهاجرا إلى الحبشة، ثم رجعا فمات عنها، فتزوجها النبي ﷺ وذلك في شوال سنة عشر من النبوة بعد وفاة خديجة بنحو شهر، توفيت بالمدينة في شوال سنة (٥٤هـ).

٣ـ أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق - رضي الله عنهما -:

تزوجها النبي ﷺ في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة بعد سودة بسنة، وهي بنت ست سنين، وبنى بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر وهي بنت تسع سنين، ولم يتزوج بكرًا غيرها، وهي أفقه نساء الأمة، وفضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، توفيت في ١٧ رمضان سنة (٥٧هـ) أو (٥٨هـ)، ودفنت بالبقيع.

٤ـ أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -:

كانت تحت خنيس بن حذافة السهمي، فتوفي عنها بين بدر وأحد لجرح أصابه في بدر، ثم انتقض عليه فيما بعد، فلما حلَّت تزوجها النبي ﷺ في شعبان سنة (٣هـ) توفيت بالمدينة في شعبان سنة (٤٥هـ) ولها ستون سنة، ودفنت بالبقيع.

٥ـ أم المؤمنين زينب بنت خزيمة الهلالية - رضي الله عنها -:

كانت تحت عبيدة بن الحارث، فَقُتِل عنها يوم بدر، فتزوجها رسول الله ﷺ في

رمضان سنة (٣هـ) وقيل: كانت تحت عبدالله بن جحش، فَقُتِل عنها يوم أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ في سنة (٤هـ) كانت تسمى في الجاهلية بأم المساكين، لإطعامها إياهم، توفيت في آخر ربيع الآخر سنة (٤هـ) بعد الزواج به ﷺ بثمانية أشهر أو بنحو ثلاثة أشهر، فصلَّى عليها النبي ﷺ ودفنت بالبقيع.

٦ـ أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية - رضي الله عنها -:

كانت تحت أبي سلمة، وله منها أولاد، فتوفي عنها في جمادى الآخرة سنة (٤هـ) فتزوجها رسول الله ﷺ في ليال بقين من شوال سنة (٤هـ) كانت من أفقه النساء وأعقلهن، توفيت سنة (٥٩هـ). أو (٦٢هـ) ودفنت بالبقيع، ولها (٨٤) سنة.

٧ـ أم المؤمنين زينب بنت جحش بن رئاب - رضي الله عنها -:

وهي ابنة أميمة بنت عبدالمطلب: عمة النبي ﷺ زُوِّجت بزيد بن حارثة، فلم يوفق بينهما، حتى طلقها زيد، وكان قد تبناه النبي ﷺ فيقال له زيد بن محمد، كما تقدم، وكان أهل الجاهلية يرون تحريم زوجة المتبنىٰ على أبيه المتبنيِّ مثل تحريم زوجة الابن الحقيقي، فلما انقضت عدة زينب من زيد زوجها الله سبحانه وتعالى بالنبي ﷺ من فوق سبع سماوات، وأبطل التبني، وذلك في ذي القعدة سنة (٥هـ) وقيل: في سنة (٤هـ) وكانت من أعبد النساء وأعظمهن صدقة. توفيت سنة (٢٠هـ) ولها (٥٣) سنة. وكانت أول أمهات المؤمنين وفاة بعد رسول الله ﷺ، صلى عليها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ودفنت بالبقيع.

٨ ـ أم المؤمنين جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق - رضي الله عنهما -:

سبيت في غزوة بني المصطلق في شعبان سنة (٦هـ) وقيل: سنة (٥هـ) فوقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها، فأعتقها وتزوجها، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فكانت أعظم النساء بركة على قومها، توفيت في ربيع الأول سنة (٥٦هـ)، وقيل: (٥٥هـ) ولها (٦٥) سنة.

٩ـ أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان - رضي الله عنهما -:

كانت تحت عبيدالله بن جحش، فولدت له حبيبة فكنيت بها، وهاجرت معه إلى الحبشة، فتنصر عبيدالله، وتوفي مرتدًا، وثبتت هي على الإسلام، فلما بَعثَ رسول

الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي أمره أن يزوِّجها بالنبي ﷺ فزوجها به النجاشي، وأصدقها من عنده أربعمائة دينار، وبعثها مع شرحبيل بن حسنة، فابتنى بها رسول الله ﷺ بعد رجوعه من خيبر في صفر أو ربيع الأول سنة (٧هـ) توفيت سنة (٤٢هـ) أو (٤٤هـ) أو (٥٠هـ).

١٠ـ أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب - رضي الله عنها -:

هي بنت سيد بني النضير، من بني إسرائيل، من سلالة هارون عليه السلام، سبيت في خيبر، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة (٧هـ) وابتنى بها بسد الصهباء على بعد ١٢ ميلًا من خيبر في طريقه إلى المدينة. توفيت سنة (٥٠هـ)، وقيل: (٥٢هـ) وقيل:(٣٦هـ) ودفنت بالبقيع.

١١ـ أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية - رضي الله عنها -:

هي أخت أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية زوج العباس - رضي الله عنهما - تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة (٧هـ) في عمرة القضاء بعد أن حلّ منها، وابتنىٰ بها بسرف على بعد تسعة أميال من مكة، وقد توفيت بسرف سنة (٦١هـ) وقيل: (٦٣هـ) وقيل:(٣٨هـ) ودفنت هناك، ولا يزال موضع قبرهامعروفًا.

فهذه إحدى عشرة امرأة هن أمهات المؤمنين وأزواج رسول الله ﷺ بالاتفاق، واختلف في امرأة واحدة وهي ريحانة بنت زيد، أنها كانت من أزواجه ﷺ أو من سراريه، وهي من بني النضير، كانت عند رجل من بني قريظة، فوقعت في غزوة بني قريظة في السبايا، فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه، فيقال: إنه أعتقها وتزوجها في المحرم سنة (٦) هـ فهي من أمهات المؤمنين، ويقال: إنه ﷺ لم يعتقها، بل كان يأتيها بملك اليمين، فهي من سراريه، توفيت مرجعه ﷺ من حجة الوداع، فدفنها بالبقيع.

وكانت له ﷺ سوى هؤلاء النسوة سرية واحدة، وهي مارية القبطية، أهداها له المقوقس في جملة ما أهداه حينما رد على كتابه ﷺ وكانت من بنات الملوك، فخصها النبي ﷺ لنفسه، وقد ولدت له إبراهيم، توفيت سنة (١٦) هـ ويقال: في المحرم سنة (١٥) هـ ودفنت بالبقيع.

أولاده ﷺ :

تقدم أن جميع أولاده ﷺ من خديجة إلا إبراهيم. وهم:

١ـ **القاسم**: وهو أكبر ولد رسول الله ﷺ، وبه كان يكنى، عاش حتى مشى، ثم توفي وهو نحو سنتين.

٢ـ **زينب**: وهي أكبر بناته ﷺ، أصيبت في الله، فقال ﷺ: تلك أفضل بناتي. ولدت بعد القاسم، وتزوجها أبو العاص بن الربيع، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد، ولدت زينب ابنًا اسمه علي، وبنتًا اسمها أمامة، وهي التي كان رسول الله ﷺ يحملها في الصلاة، توفيت زينب في أوائل سنة ثمان بالمدينة.

٣ـ **رقية**: تزوجها عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فولدت له ابنًا اسمه عبدالله، وقد بلغ ست سنين، ثم نقره ديك في عينه فمات، ماتت رقية ورسول الله ﷺ في بدر، وجاء زيد بن حارثة بشيرًا إلى المدينة، فوجدهم قد سووا التراب على قبرها.

٤ـ **أم كلثوم**: زوَّجها رسول الله ﷺ عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بعد وفاة رقية، مرجعه من بدر، ولم تلد له شيئًا، توفيت في شعبان سنة (٩هـ) ودفنت بالبقيع.

٥ـ **فاطمة**: وهي أصغر بناته ﷺ، وأحبهن إليه، وهي سيدة نساء أهل الجنة، تزوجها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد بدر، فولدت له ابنين: حسنًا وحسينًا، وبنتين: زينب وأم كلثوم، وأم كلثوم هذه تزوجها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فولدت له زيدًا. ثم مات عنها، فتزوجها عون بن عمها جعفر، وتوفي عون فتزوجها أخوه محمد، وتوفي محمد فتزوجها أخوه عبدالله، ثم ماتت وهي عنده، توفيت فاطمة - رضي الله عنها - بعد النبي ﷺ بستة أشهر.

[هؤلاء الخمسة المذكورون من أولاده ﷺ ولدوا قبل أن يكرمه الله بالنبوة والرسالة].

٦ـ **عبدالله**: يقال إنه ولد في الإسلام، ويقال: بل قبل ذلك، توفي وهو صغير، وكان آخر أولاد النبي ﷺ من خديجة.

٧ـ **إبراهيم**: ولد بالمدينة من سريته ﷺ مارية القبطية، في جمادى الأولى أو جمادى الآخرة سنة (٩هـ) وتوفي في ٢٩ شوال سنة (١٠هـ) يوم كسفت الشمس بالمدينة وهو رضيع، ابن ستة عشر أو ثمانية عشر شهرًا، ودفن بالبقيع، وقد قال ﷺ: «**إن له مرضعًا يتم رضاعه في الجنة**».

الصفات والأخلاق

كان رسول الله ﷺ يمتاز بجمال الخلق، وكمال الأخلاق، وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة وجليلة، نلخص هنا معانيها ومغزاها بالإيجاز.

الوجه وما بالوجه :

كان وجه رسول الله ﷺ أبيض مليحًا، مستديرًا، أزهر اللون، مشربًا بالحمرة، يتلألؤ تلألؤ القمر ليلة البدر، وكان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وتبرق أساريره كما يبرق السحاب المتهلل، كأن الشمس تجري فيه، بل لو رأيته رأيت الشمس طالعة، أما عرقه في وجهه فكأنه اللؤلؤ، ولريح عرقه أطيب من المسك الأذفر، وإذا غضب احمرَّ وجهه حتى كأنما فقىء في وجنتيه حب الرمان.

وكان سهل الخدين، واسع الجبين، متقوس الحاجبين، سابغهما مع الدقة، غير مقترنين، وقيل كان مقرون الحاجبين، واسع العينين، مشربًا بياضهما بحمرة، مع شدة سواد الحدقة، أهدب الأشفار - أي كثير شعر الأجفان مع طوله - إذا نظرت قلت: أكحل العينين، وليس بأكحل.

وكان أقنى العرنين، له نور يعلوه، يحسه من لم يتأمله أشم، تام الأذنين، حسن الفم وكبيره، أفلج الثنيتين، منفصل الأسنان، براق الثنايا، إذا تبسم تبدو أسنانه كأنها حب الغمام. وكان فيها شنب - أي نوع من اللمعان - فإذا تكلَّم رئي كالنور يخرج من بين ثناياه، وكان من أحسن الناس ثغرًا.

وكانت لحيته حسنة كثة، ممتلئة من الصدغ إلى الصدغ، تملأ النحر، شديدة السواد، وكان في الصدغين والعنفقة شيء من البياض، شعرات معدودة فقط.

الرأس والعنق والشعر :

وكان ضخم الهامة، كبير الرأس، طويل العنق، كأنه إبريق فضة، أو جيد دمية، له وفرة تبلغ إلى أنصاف الأذنين، أو شحمتي الأذنين، وربما أسفل من ذلك، وربما

تضرب المنكبين، وكان في شعر ناصيته أيضًا بعض البياض، ولكن قليلاً جدًّا بحيث لم يبلغ مجموع ما في رأسه ولحيته من البياض عشرين شعرة، وكان في رأسه شيء من الجعودة، أي التواء خفيف، وكان يرجِّل رأسَه ولحيته غبًّا؛ ويفرق من وسط الرأس.

الأطراف والأعضاء :

وكان عظيم رؤوس العظام، كالمرفقين والكتفين والركبتين، طويل الزندين، عظيم الساعدين، رحب الكفين والقدمين، ليس لهما أخمص، ناعم اليدين، فقد كانتا ألين من الحرير والديباج، وأبرد من الثلج، وأطيب من رائحة المسك، وكان ضخم العضدين والذراعين والأسافل، خفيف العقبين والساقين، بعيد ما بين المنكبين، سائل الأطراف، عريض الصدر، أجرد عن الشعر، فكان من لبته إلى سرته شعر يجري كالقضيب، ولم يكن في بطنه ولا صدره شعر غيره، وكان أشعر الذراعين والمنكبين، سواء البطن والصدر، في أبطيه عفرة، أما ظهره فكأنه سبيكة فضة.

القد والجسد:

وكان حسن القد، معتدل القامة سبط القصب لا قصيرًا مترددًا، ولا طويلًا بائنًا، ولكن كان أقرب إلى الطول، فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله هو ﷺ، وكان معتدل الجسد، متماسك البدن، لا سمينًا بدنًا، ولا هزيلًا ناحلًا، بل غصنًا بل غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدًّا.

طيب رائحته ﷺ :

وكان لجسده وعرقه وأعضائه ﷺ ريح أطيب من كل طيب، قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: ما شممت عنبرًا قط، ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ، وقال جابر: لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه، من طيبه، وكان يصافح الرجل فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها، وحفظت أم سليم عرقه في قارورة لتجعله في طيبها، لأنه أطيب الطيب.

صفة المشي :

وكان ﷺ سريع المشي، يمشي مشي السوقي، ليس بالعاجز ولا الكسلان، لم يكن يلحقه أحد، قال أبو هريرة: ما رأيت أحدًا أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ ، كأنما الأرض تُطوَى له، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث.

وكان إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، ليس لها أخمص، وإذا التفت التفت جميعًا، فإذا أقبل أقبل جميعًا، وإذا أدبر أدبر جميعًا، وإذا زال زال قلعًا، فإذا مشي كأنه ينحط من صبب ـ أي ينحدر من مكان مرتفع ـ وكان يخطو تكفئًا ويمشي هونًا.

الصوت والكلام :

وكان في صوته ﷺ بحة يسيرة، وكان حلو المنطق وقورًا، فإذا صمت علاه الوقار، وإذا تكلّم علاه البهاء، أما نطقه فكان كخزرات نظمن يتحدرن، وكان يفتتح الكلام ويختمه بأطرافه، ويتكلّم بكلام فصل، لا فضول فيه ولا تقصير، يتبين كل حرف منه، وكان فصيحًا بليغًا، سلس الطبع، ناصع الكلمات، لا يجاريه أحد مهما كان فصيحًا أو بليغًا، وكان قد أوتي جوامع الكلم مع الحكمة وفصل الخطاب.

نبـذة من أخلاقـه ﷺ :

وكان ﷺ دائم البشر سهل الخلق، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، وكان أكثر الناس تبسمًا، وأبعد الناس غضبًا، وأسرعهم رضاء، يختار أيسر الأمرين ما لم يكن إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس منه، لم ينتقم لنفسه قط، وإنّما كان ينتقم لله إذا أُنْتُهِكت محارمه.

وكان أجود الناس وأكرمهم وأشجعهم وأجلدهم، وأصبرهم على الأذى، وأوقرهم، وأشدهم حياء، إذا كره شيئًا عُرِفَ في وجهه، لم يكن يثبّت نظره في وجه أحد، ولا يواجه أحدًا بمكروه.

وكان أعدل الناس، وأعِفّهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، سمِّي بالأمين قبل النبوة، وكان أشد الناس تواضعًا، وأبعدهم عن الكبر، وأوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم، وأعظمهم شفقة ورحمة، وأحسنهم عشرة وأدبًا، وأبسطهم خلقًا،

وأبعدهم عن الفحش والتفحش، واللعن، يشهد الجنائز، ويجالس الفقراء والمساكين، ويجيب دعوة العبيد، ولا يترفَّعُ عليهم في مأكلٍ ولا ملبسٍ، يَخدِمُ من خَدَمه، ولم يُعاتِب خادِمَه، حتى لم يقل له أُفٍ قط.

هذا، ولا يمكن إحاطة أوصافه ﷺ بالبيان، فنكتفي بهذا القدر القليل، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا هذه البضاعة المزجاة، ويوفقنا لاتِّباع سبيل سيد المرسلين وإمام الأنبياء والمتقين محمد خير الخليقة أجمعين. اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه البررة المكرمين، واجعلنا تحت لوائه يوم الدين آمين يارب العالمين.

سلخ شهر ذي الحجة ١٤١٣هـ

الفهـرس